

ليف تولستوي

قصص مختارة



3.9.2015

ترجمة: غائب طعمة فرمان



ليف تولستوي

قصص مختارة

ترجمة: غائب طعمة فرمان



www.ketab.ir

0212-84380000

0212-84380000

ليف تولستوي قصص مختارة

Twitter: @ketab_n



Author: Lev Tolestoi
 Title: Stories
 Translator: Ghaeb T. Faraman
 Cover designed by: Roula Majed
 P.C.: Al-Mada
 First Edition: 2010
 Second Edition: 2015

المؤلف: ليف تولستوي
 عنوان الكتاب: قصص مختارة
 ترجمة: غائب طعمة فرمان
 تصميم الغلاف: رولا ماجد
 الناشر: دار المدى
 الطبعة الأولى: 2010
 الطبعة الثانية: 2015

copyright©Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

☎ + 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 780 1919 290	بغداد : حي ابو نؤاس - ساحة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 ☎ www.almada-group.com ✉ info@almada-group.com
☎ + 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمراء- شارع لبنان- بناية منصور- الطابق الاول ☎ www.daralmada.com ✉ info@daralmada.com
☎ + 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حماد- مشرع من شارع 29 أيار ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

ليف تولستوي حين يقص...

الكاتب الروسي العظيم ليف نيكولايفيتش تولستوي (١٨٢٨ - ١٩١٠) مشهور في العالم أجمع كمؤلف روايات «الحرب والسلام»، و«أنا كاريننا» و«البعث». وقد استطاع الكثيرون من معاصري تولستوي أن يقيموا أهمية هذه المؤلفات عن حق، ومن هؤلاء الروائيان الشهيران إ. س. تورغينيف، وف. م. دوستوفسكي والناقد البارز ف. ف. ستاسوف.

كما قيم روايات تولستوي كتاب مشهورون من كتاب الغرب: فلوير وزولا، وأناتول فرانس، ورومان رولان، وبرنارد شو، وتوماس مان، وأرنست همنغوي، وآخرون من رجال الأدب البارزين.

ويقول الباحثون في تراث تولستوي أن القوة الإبداعية الرئيسية لهذا الكاتب تتركز في رواياته العظيمة، وتبرز فيها خصائص فنان الكلمة العبقرية هذا بكل امتلائها وقوتها. وهذا صحيح. ولكن لا يجوز أن ينسى أن مع تولستوي الروائي كان «بتعابش» وبدع تولستوي القصص والراوي والكاتب المسرحي وكاتب الأطفال والمقالات الإشهارية والمربي.

كان ف. ا. لينين يقدر إبداع تولستوي تقديراً رفيعاً بشكل استثنائي. فقد رأى في تولستوي «كاتباً عبقرياً» «أعطى» في حياته

الطويلة « عددًا من أروع الأعمال الفنية التي وضعت في عداد الكتاب العظام للعالم أجمع ». ويؤكد ف. إ. لينين على أن مؤلفات تولستوي من بين أفضل مؤلفات الأدب العالمي وإبداعه عبر عن العصر الذي سبق الثورة في حياة روسيا بقدر من الصدق والقوة، جعله « خطوة إلى الأمام في التطور الفني للإنسانية جمعاء »*.

وفي الأشهر الأولى بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى عهد لينين إلى رفاقه المسيرين لشؤون التعليم الشعبي بأن ينشروا، بأقرب وقت ممكن، مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين، - ومن بينهم - « في المقام الأول » ليف تولستوي وفي الوقت ذاته عبر عن رغبته في أن يكون تحت متناول القراء إبداع « تولستوي كله » وأن تنشر كل مؤلفات الكاتب، التي منعتها الرقابة في روسيا القيصرية.

وقد تطلبت توصية لينين هذه في نشر « تولستوي كله » من الباحثين السوفييت في إبداع الكاتب سنوات كثيرة من العمل الدؤوب، فقد كان من الضروري مقابلة كل سطر من كل عمل بالمخطوطات، وإزالة كل تشويهات الرقابة، وكل أخطاء الناسخين ومصوفي الحروف المطبعية وما سهوا عنه. ونتيجة لهذا العمل ظهرت المجموعة الكاملة لمؤلفات الكاتب في تسعين مجلدًا من القطع الكبير. وكان ظهورها حدثًا ذا أهمية أدبية كبيرة في وطن الكاتب وفي خارجه. واليوم وكقاعدة تنجز ترجمات أعمال تولستوي إلى اللغات الأجنبية، بالاعتماد على نصوص هذه المجلدات التسعين التي تعتبر واحدة من أوثق الطبوعات. ويظهرها

* لينين . المؤلفات الكاملة . الطبعة الروسية ، المجلد ١٧ ، ص ٢٠٩ ، المجلد ٢٠ ، ص ١٩ .

ظهرت إمكانية تعريف القارئ الأجنبي أيضاً على إبداع تولستوي على نحو أوسع. ولعل من بين الأعمال التي تنشر في اللغة العربية لأول مرة قصته المبكرة «غارة» وروايته القصيرة «بوليكوشكا» التي استجاب فيها لإلغاء نظام القنانة في روسيا.

وإلى جانب هذين العملين يضم كتابنا هذا القصة الفلسفية لتولستوي الشاب «ثلاث ميتات» ثم «أسير القفقاس» التي وضعها الكاتب لكتابه المدهش «الأبجدية». ويعد ذلك تأني رواية تولستوي القصيرة «الذراع» التي كتبها في وقت متأخر، والتي تذهل بجرأتها غير الاعتيادية في التناول الفني. فإن شخصيتها الرئيسية، بطلها، حصان عجوز «يفكر» و«يناقش».

وهكذا يضم كتابنا خمسة أعمال أولها «غارة» كتبت في بداية الخمسينات من القرن الماضي، وآخرها «الذراع» كتبت بعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ. ومع أن كل واحدة تتميز عن الأخرى بالمحتوى، وباللغة، وبطرائق رسم الشخصيات، إلا أن من المستحيل خلطها بأعمال أي كاتب روسي أو أجنبي. فإنها جميعاً أعمال تولستوية نموذجية سواء في الطرح الجريء، لأهم قضايا الحياة الإنسانية، أو في مساعي الكاتب الملحاح لإيجاد طريق إلى حقيقة، يمكن أن تعترف بمصداقيتها، على حد التعبير المحبب لتولستوي، «الغالبية العظمى من الإنسانية» لتسلحها الروحي ويمكن أن تسير فيه.

خذوا، على سبيل المثال، قصة «غارة». فالانطباع الذي تخلفه القراءة الأولى لها هو أنها مجرد واحد من الحوادث المميزة لحرب القفقاس التي امتدت عشرات السنين، والتي اشترك فيها تولستوي الشاب، بعد

أن حصل في معركة كتلك التي تصفها القصة على تعميده القتالي الأول. ولكن حالما تقرأ القصة بإمعان أشد، حتى يتوضح أن محتواها أبعد من حدود «الأوتشرك» العسكري الاعتيادي أو الريبورتاج.

ويتضح من مسودات «غارة» المحفوظة أنها كتبت في البداية على شكل يوميات. وكان هذا الشكل يعيق المؤلف الشاب، فنبذه، وقرر أن يعطي «وصفاً للحرب» أكثر سعة وشمولاً، كما جاء في يوميات تولستوي.

ومن الفصل الأول من «غارة» يتضح أن من بين الأفكار الرئيسية في هذا العمل هو: كيف تحدد الشجاعة الحقيقية للإنسان في الحرب؟ إن المتطوع الشاب الذي تجري القصة على لسانه يكتشف في الأسابيع الأولى من وجوده في الجيش العامل أن فيه أشخاصاً شجاعتهم ليست حقيقية، بل تظاهرة نابعة من الغرور والطمع، والرغبة في كسب الحظوة، وغير ذلك من «الصفات الوضيعة»، بينما هناك أناس غير قليلين يمتلكون الشجاعة الحقيقية النابعة من صفات مختلفة تماماً، أهل للاحترام الرفيع.

في قلب هذه القصة «غارة» التي هي أول عمل لتولستوي عن الحرب شخصية ضابط عامل في الجيش الروسي، هو الرائد العجوز خلوبوف الذي قضى ثمانية عشر عاماً في حالة من الخطر الدائم. ويقول المؤلف عن سلوكه في المعركة: «لقد كان في شخص الرائد القليل جداً من الغموض، إلا أنه كان ينطوي على الكثير من الصدق والبساطة، حتى أذهلني تماماً، فوجدتني أقول لنفسي دون إرادتي «ذلك هو الشجاع عن حق».

لم يكن في هذا الرائد العجوز الأشيب أي ميل للتباهي بالثبات.
وما كان يستطيع تحمل العبارات المصطنعة الفخامة عن الجسارة
المستميتة لأي من الضباط الشبان الذين كانوا يحبون، حسب ملاحظة
خلوبوف الدقيقة، أن يدسوا أنفسهم فيما لا يدعون إليه..

ويقول المؤلف إن الرائد خلوبوف مجبول على «صفة خاصة وعالية
للسجاعة الروسية» وقد أفصح الرائد عن فحواها بالكلمات التالية:
«الشجاع من يتصرف كما يقتضي».

ويختلف تماماً تصرف الضابط ألانين الفتى الرومانسي المزاج،
والملازم روزنكرانتس الذي كان «مغروراً إلى أعلى درجة» يحب إدهاش
الآخرين بالأحداث الغريبة، والتصرفات غير المتوقعة.

وكلاهما يدفع ثمن شجاعته التظاهرية: ألانين بحياته،
وروزنكرانتس بعد محبة واحترام أي شخص له.

تصور «غارة»، وهي الأولى من قصص تولستوي الحربية أناساً
ينتمون إلى وسط الضباط الذي فيه كان الكاتب الشاب قد بدأ خدمته
العسكرية في القفقاس، أما الجنود فقد صوروا في ملامح أكثر عمومية.
ومن بين الشخصيات النموذجية يصور تولستوي الحرب في القفقاس في
قصته التالية: «حطب الغابة». فقد ركز الكاتب انتباهه فيها على
الكيفية التي يظهر فيها الإنسان الروسي الاعتيادي البسيط رجولته
وشجاعته، أثناء تأدية واجبه العسكري.

لقد كان تولستوي منذ صباه وحتى أواخر عمره يعتبر خلق إنسان
العمل الروسي لا يقتصر على الاستعداد الدائم للدفاع عن أرض الوطن،
بل ويتعدى ذلك إلى حبه الأصيل للسلام، ورغبته في أن يعيش في

صداقة ووثام مع جميع الشعوب الأخرى، وتلك واحدة من أروع صفات هذا الخلق.

وقد تجلت هذه الفكرة بقوة كبيرة في قصته المبكرة « غارة » أيضاً، وتطورت في كامل إبداعه سواء في أعماله الفنية، أو أعماله الإشهارية. وفي آخر الفصل السادس من قصة « غارة » تتردد هذه الكلمات بعمق: « أبعقل أن الناس يشعرون بالاحتفاظ في العيش في هذه الدنيا الرائعة، وتحت هذه النجوم التي لا تسبر؟ وهل يمكن حقاً أن يبقى في نفس الإنسان شعور الحقد والانتقام ونوازع القضاء على بني جنسه؟ يبدو لي أن كل ما في قلب الإنسان من شر لا بد أن يختفي في قاسه بالطبيعة بهذا التعبير الأعظم فصاحة عن الجمال والخير... ».

وقد كتب تولستوي الشاب هذه الكلمات قبل أكثر من مائة وثلاثين عاماً. ولكن ما أخرج الناس إليها في الأرض كلها في هذه اليوم أيضاً، حيث الطبيعة، كما في ذلك الزمن أيضاً، تعبق « جمالاً وفاقياً وقوة »، بينما يسرع المسعورون بالحرب اليوم في أن يفعلوا كل شيء لا لمجرد إبادة أناس معينين وأقطار معينة، بل لمحق الحياة كلها من وجه الأرض...

إن موضوع الموت ما يزال أحد « المواضيع الخالدة » التي اهتم واهتم بها الفن والأدب. وكما هو الحال في كل عمل من أعمال تولستوي الشاب حيرت قصة « ثلاث ميتات » النقد وقراءها الأوائل حيرة كبيرة جعلت المؤلف يكشف بعضهم موضحاً معنى عمله هذا.

في ربيع ١٨٥٨ عرض محتوى القصة في رسالة لقريبته أ.أ. تولستايا بالشكل التالي: « كانت فكرتي أن ثلاثة مخلوقات في

طور الاحتضار: سيدة وفلاحاً وشجرة. السيدة تافهة وحقيرة، لأنها ظلت تكذب طوال حياتها، وهي تكذب لدى احتضارها. والمسيحية، كما تفهمها، لا تحسم بالنسبة لها قضية الحياة والموت. فلماذا تموت إذا كانت راغبة في أن تعيش؟... إنها تافهة وحقيرة. والفلاح يحتضر بهدوء، وذلك بالضبط لأنه غير مسيحي. فإن له ديناً آخر، رغم أنه، بحكم العادة، كان يزاول الشعائر المسيحية. إن دينه هو الطبيعة التي كان يعيش معها. وكان نفسه يقوم بقطع الأشجار، ويبذر الجودار، ويحصده، وينحر الخراف، مثلما يولد الخراف لديه، ويولد الأطفال، ويموت الشيخوخ، وهو يعرف معرفة اليقين هذا القانون، ولا يتنصل عنه أبداً، كما تفعل السيدة، بل ينظر إليه في عينيه... والشجرة تموت بهدوء، ونقاء وجمال. لأنها لا تكذب، ولا تتظاهر، ولا تخاف، ولا تأسف. تلك هي فكرتي التي لا توافقين عليها، بالطبع، ولكن لا جدال فيها».

وقد قدم الناقد المشهور د. ي. بيساريف تحليلاً مفصلاً ودقيقاً للقصة، وقد قيم مهارة تولستوي الفنية، وقدرته ونفاذه العميق إلى سايكولوجية الإنسان، وتصوير عالمه الداخلي تقيماً عالياً.

لم يوجه هذا الناقد الشاقب، لدى انغماره في تحليل النزعة السايكولوجية لتولستوي، الاهتمام اللازم إلى أن في هذا العمل الفلسفي السايكولوجي يتردد بقوة أعلى مما في قصص الكاتب وروايته القصيرة السابقة صوت المؤلف معلناً بدقة استثنائية عن موقفه الشخصي من الموت: إن الذي يحتضر بكرامة من بين المخلوقات الأحياء هو من «لا يكذب، ولا يتظاهر، ولا يخاف ولا يأسف»...

في رواية تولستوي القصيرة «بوليكوشكا» يمس تولستوي أيضاً

موضوع الموت. ولكن الموت الذي تصوره هذه الرواية، موت الفلاح القن الخادم بوليكي المستعبد، المنسي، الذي عانى الكثير من أنظمة القنانة لا ينطبق على أية ميتة من الميتات الثلاث، الموصوفة في قصة « ثلاث ميتات ». فإن « طيبة » السيدة هي التي تقتل بوليكي، ومهما يكن في ذلك من معاضلة. فقد أشفقت هذه السيدة عليه (كان له خمسة أولاد!) ولكي تنقذه من الخدمة العسكرية الإجبارية، عهدت إليه بـ « مهمة » ظهر أنها ليست في مقدور فلاح جاهل أمي. فأضاع بوليكي نقود السيدة، ووضع يديه على نفسه، على حد التعبير المتداول في القرية القديمة، أي شق نفسه.

ذات مرة قال تولستوي عن « منحاه » الإبداع: « أنا لا أحب الكتابة بتشك ». وحين قرأ تورغينيف « بوليكوشكا » كتب عن الأثر الذي تركته في نفسه هذه الرواية القصيرة: « ... إنه لمخيف جداً. ولكن هناك صفحات مذهشة حقاً! حتى لتنفذ البرودة إلى عمودنا الفقري، رغم سمكه وغلظته. إنه فنان، فنان! »*.

وأكثر ما يثير الدهشة في هذه الرواية القصيرة هو نفاذ الكاتب إلى أعماق نفسية الفلاح الروسي القن. إنه معذب، تعيس، يعيش، كما يقولون، حياة الجوع والبرد. ولكنه احتفظ بنفسه حية. وهو لم يضع حبل المشنقة في رقبته رعباً من غيظ السيدة فقط، بل كان يفكر أيضاً على نحو مضن في أنه، وهو الفلاح البائس في القرية، أولي مثل هذه الثقة، ولم يستطع الاضطلاع بها...

* ١. س. تورغينيف. المؤلفات والرسائل الكاملة في ٢٨ مجلداً. الطبعة الروسية. الرسائل، المجلد ٥، موسكو ولينينغراد، ١٩٦١، ص. ٢١٦.

وقصة «أسير القفقاس» كتبها تولستوي كواحدة من «القصص الحقيقية» التي كانت تحدث أحياناً أثناء حرب القفقاس. كانت المجلات والصحف أثناء حرب القفقاس التي امتدت أكثر من عشرين عاماً تنشر بترحيب قصصاً عن الضباط والجنود الروس الذين أسرهם الجبليون، لا سيما إذا كانت هذه القصص مكتوبة من قبل أناس وقعوا في الأسر. وكان تولستوي قد التقى بأناس من مثل هؤلاء، وسألهم بالتفصيل عن حياتهم في الأسر.

كان تولستوي يدين الحكومة القيصرية بشدة على الفسادة التي استخدمتها في الحرب لضم القفقاس. فقد كانت القوات القيصرية تخرب وتحرق القرى، مثيرة كراهية القبائل الجبلية لها. وفي الوقت ذاته يقف تولستوي ضد التناحر القومي، وضد أولئك الذين يسعون شعباً على شعب آخر.

يروى تولستوي في «أسير القفقاس» كيف أسر تشار نوغاي الضابط الروسي الشجاع جيلين، وأخذه إلى القرية. وكان أهل القرية ينظرون إلى الأسير مثلما ينظرون إلى «وحش بعض»، على حد تعبير تولستوي. وكان أحد الجبلين، وهو رجل عجوز، «ما إن يرى جيلين حتى ينخر، ويشبح بوجهه»، وكاد يطلق الرصاص على الأسير، لأنه اقترب من كوخه. لقد صرعت الحرب سبعة من أبناء هذا الشيخ، وقتل هو الثامن بيده، حين انضم هذا الابن إلى الروس. وكان هذا العجوز «الفارس الأول الذي قتل الكثير من الروس، وكان غنياً».

بينما كان الجبليون البسطاء يعاملون جيلين معاملة أخرى، وصاروا يقدرونه على طبعه المرح المحب للعشرة، وعلى ذكائه.

والشابة دينا، بطلة القصة، كانت أيضاً تخشى جيلين في البداية، وبعد ذلك أنقذته، حين كان الإعدام يهدده بعد محاولة هروبه الفاشلة. واستطاعت عاطفة الشفقة والحب إزاء إنسان طيب غير متهم بشيء أن تقهر الرعب في نفس دينا. فأطلقت جيلين من الأسر مجازفة بحياتها. في أحيان كثيرة تسمى «أسير القفقاس» بقصة «جيلين وكوستيلين». وبالفعل كان الضابط كوستيلين مرافق جيلين ورفيقه. وهو إنسان ضخيم ثقيل الحركة جبان سبب وقوع جيلين في الأسر. وبسببه أيضاً فشلت محاولة الأسيرين الأولى في الهروب من القرية.

وإذا ما قارنا أفعالهما، وسلوكهما في اللحظات الحرجة، وطبائعهما، وحتى المظهر الخارجي لهذا وذاك نرى بسهولة أن كل عواطف الكاتب إلى جانب جيلين البسيط، النزيع، الشجاع، الصلب عند الملمات، الذي يواجه المخاطر بجرأة.

وقد كتبت «أسير القفقاس» بفن مذهب. فهي تحتوي على ستة فصول قصيرة، لا يزيد كل فصل منها على عشر صفحات صغيرة. ولكن ما أكثر ما تضمنته. تتبدى أمام أبصارنا لا وقائع حرب القفقاس وحدها، بل وحياة قرية جبلية أيضاً. القليلون من فناني الكلمة يستطيعون أن يصفوا الطبيعة، كما استطاع أن يصفها تولستوي. فالطبيعة في أعماله تعيش حياة واحدة مع الناس.

و«يختتم» كتابنا بالرواية القصيرة «الذراع» تلك القصة التي كتبها تولستوي بعد فترة وجيزة من وقوع التبدل في نظرته إلى العالم. في «الاعتراف» الذي نشر في عام ١٨٨١ أعلن الكاتب بصلاية عن انفصاله عن طبقة النبلاء التي كان ينتمي إليها من حيث المولد والتربية، وانتقاله إلى جانب الشعب العامل في الأرض - إلى الفلاحين الروس.

يقول تولستوي في «الاعتراف»: «حدث معي انقلاب كان يتهياً في داخلي منذ زمن بعيد، ورموزه كانت تعيش في نفسي. وما حدث معي أن حياة وسطنا - وسط الأغنياء والمتعلمين - ليست فقط نفرتني بل وفقدت كل معنى...» «وأفعال الشعب العامل، خالق الحياة، هي عندي القضية الحقيقية الوحيدة... لقد تخلّيت عن حياة وسطنا، بعد أن عرفت أنها ليست حياة...» إن الكاتب العظيم وجد مثاله في «حياة الشعب العامل البسيط الذي يصنع الحياة، وفي تلك الفكرة التي يعطيها لها».

وقد انعكست في إبداع الكاتب التغيرات الجذرية التي حصلت لأفكاره. وفي تلك السنين بالذات يصبر: المحتج اللاهب، والفاضح المتقد، والناقد العظيم، كما يسميه ف. إ. لينين، وهو يقيم إبداع تولستوي المتأخر. وفي إبداع الكاتب في هذه المرحلة المتأخرة ظهرت بقوة مميزة الجوانب القوية والضعيفة لأفكاره التي عكست «التناقضات الصارخة» لأيدولوجية طبقة الفلاحين البطريقية الروسية التي سعى تولستوي نفسه «محاميها» في سنوات الثورة الروسية الأولى.

ورواية «الذراع» القصيرة مهمة بشكل خاص لأنها كتبت بطريقتين للتناول: فقد كتبت الصيغة الأولى منها قبل عشرين عاماً من «الاعتراف»، وأرجأت زمناً طويلاً.

وفي عام ١٨٨٥ فقط عاد تولستوي إلى هذا العمل الذي بدأه منذ زمن طويل، وأجرى عليه تغييراً جذرياً. فقد شدد الكاتب في الصيغة الجديدة لهذه الرواية القصيرة تشديداً كبيراً على فضح مالكي «الذراع» الذين عذبوه بلا رأفة، وأودوا بحياته في آخر الأمر. ورواية «الذراع» شأنها شأن الأعمال المتأخرة الأخرى لتولستوي موجهة ضد «شر الحياة»

الذي كان تولستوي يعتبره الشر الرئيسي، وهو الملكية الخاصة ليس فقط للمعامل والمصانع، والغابات والحقول، بل وللمخلوقات الحية أيضاً.

ويقول الذراع: «فقد كنت أبقع، وكنت، مخصياً، وكان الناس لا يتصورونني ملك الرب، وملك نفسي، مثل أي كائن حي».

وفي الصيغة النهائية لهذه الرواية القصيرة شدد بشكل حاد على الأصل «الفلاحي» (المجيكوي) للذراع. فهو يحكي عن نفسه لخيول الرعيل الشابة: «نعم، أنا ابن مهذب الأول وبابا. أنا قروي الأول في شجرة النسب. وليس هناك حصان أرفع دماً مني في العالم».

وفي كلمات الذراع وأفكاره عن ماله يتجسد الكراهية «المجيكوية» وعدم الإدراك الساذج المتأصل في وعي الفلاحين البطريقين للأسباب الحقيقية في أن يكون في العالم الذي يعيش فيه الذراع من كتب عليهم الكدح والذلة، وآخرون يعيشون حياة مبتذلة لا هم فيها ولا عوز.

وفي الإمكان أن نقول عن الذراع، ونحن نتابع أفكاره ومشاعره، إنه ينظر إلى الحياة والناس وكأنما كتبت عليه حياة فلاح عجوز حكيم. فقد منحه الكاتب إمكانية أن يرى عن قرب حياة ومعيشة أناس من الطبقات المبسورة تبدو أمام الذراع مرضى يعانون أشكالاً مختلفة من الاضطراب العقلي».

إن قدرة مؤلف هذه الرواية القصيرة في النفاذ إلى الأحاسيس المعقدة العميقة لحصان مخصي مخذول من قبل القدر والناس، وتصويرها في الرواية أدهشت حتى تورغينيف الفنان السايكولوجي المرفف. وقد سجل معاصروه ما حكاه عن إحدى نزواته الصيفية مع تولستوي غير بعيد عن بيت ضيعة تولستوي في ياسنيا بولانا.

في المرعى من الجهة المقابلة صادفهما حصان عجوز منهوك. ويقول تورغينيف متذكراً: «اقتربنا من الحصان، من ذلك المخصي التعيس، فأخذ تولستوي ينظر إليه، ويردد، في الوقت ذاته، ما كان يجب أن يشعر به هذا الحصان ويفكر فيه، حسب رأيه.

فأصغيت إليه مصادقاً، إنه لم يكتف في أن يضع نفسه في موضع هذا المخلوق التعيس، بل ووضعني أنا أيضاً، لم اصطبر وقلت: «اسمعني، يا ليف نيكولايفتش، لا بد أنك كنت حصاناً في وقت ما». ونحن لا نعرف ماذا رد تولستوي على تورغينيف آنذاك، ولكنه فيما بعد، بعد ربع قرن كتب «الذراع»، وقد قص «قصة حصان» لا على تورغينيف وحده في هذه المرة، بل على الملايين العديدة من قرائه. ونشير في الختام إلى أن تولستوي كان، في الفترة المتأخرة في حياته، ينظر إلى كل عمل جديد من أعماله كـ «رسالة جامعة» موجهة إلى العديد من الناس. ونحن على ثقة من أن «الرسائل الجامعة» المتضمنة في هذا الكتاب ستجد قراءها الصاغين الشرفاء.

ك. ن. لومونوف

غارة قصة متطوع

١٠.

في الثاني عشر من تموز دلف في باب مخبئي الواطئ النقيب
خلوبوف في كتافيتيه متقلداً سيفه - وهذه بزة لم أره فيها منذ وصولي
إلى القفقاس.

- جنتك من العقيد مباشرة - قال لي وهو يرد على نظرتي المتسائلة
التي استقبلته بها - غداً ستغادر كتيبتنا.
سألت:

- إلى أين؟

- إلى «ن. ن»، المكان الذي عين لتجمع القوات.

- ومن هناك قد يجري زحف؟

- ربما.

- إلى أين؟ ماذا تظن؟

- ماذا أظن؟ أنا أقول لك ما أعرفه. أمس ليلاً وصل تتري مرسل

من الجنرال، يحمل أمراً يقضي بمغادرة الكتيبة على أن تأخذ معها من
البفسماط ما يكفي ليومين. ولكن إلى أين، ولماذا، وهل لوقت طويل؟

لا أحد يسأل مثل هذه الأسئلة، يا عزيزي. لقد أمرنا بأن نغادر. وهذا يكفي.

. على أية حال، إذا كنا سنأخذ من البقسماط ما يكفي ليومين، فمعنى ذلك أن القوات لن تبقى أكثر من ذلك.
. ولكن ذلك لا يعني شيئاً...

فسألت بدهشة:

. وكيف ذلك؟

. هكذا، ببساطة! عندما رحلنا إلى دارغي، أخذنا من البقسماط ما يكفي لأسبوع، ولكننا مكثنا هناك شهراً تقريباً.
صمت برهة، ثم سألت:

. وهل يمكن لي أن أذهب معكم؟

. إذا كانت مسألة إمكان، فذلك ممكن. ولكنني أنصحك بعدم الذهاب. فلماذا عليك أن تجازف؟..

. اسمح لي ألا أتبع نصيحتك. فقد قضيت شهراً كاملاً هنا، لمجرد انتظار سنوح الفرصة لأشهد قتالاً. بينما تريد لي أن أفوت هذه الفرصة.
. تفضل، تعال. ولكن أليس من الصائب حقاً أن تبقى هنا؟

أفضل أن تنتظرونا، وتقضي وقتك في الصيد. أما نحن فسنخرج والله معنا. إن في ذلك خيراً! قال بلهجة مقنعة جداً، حتى إنني، في الوهلة الأولى، نصورت بالفعل أن في ذلك خيراً. ومع ذلك فقد قلت بحزم: لن أبقى مهما يكن من شيء.

. ماذا تريد أن ترى هناك؟ تابع النقيب إقناعي. تريد أن تعرف أي معارك تحدث؟ إذن اقرأ «وصف الحرب» لميخائيلوفسكي.

دانييلفسكي. فهو كتاب ممتاز. وفيه وصف تفصيلي لكل شيء. أين كان يربط هذا الفيلق أو ذاك. وكيف تجري المعارك. أجبت:

- بالعكس، هذا لا يهمني.

- ماذا إذن؟ لمجرد أنك تريد، على ما يبدو، أن ترى كيف يقتل الناس؟... دعني أقول لك، في عام اثنين وثلاثين، كان هنا شاب لم يكن في سلك الخدمة، من الإسبان، على ما يبدو لي. خرج معنا في مسيرتين في مطار أزرق... ومع ذلك لم يسلم وقتل. لا أحد يندهش من شيء هنا، يا عزيزي. ورغم ما آلمني من سوء تفسيره لمقصدي لم أتجشم عناء تغيير رأيه. سألته:

- وهل كان ذاك شجاعاً؟

- الله يعلم. كان دائماً يسير في المقدمة. وأينما وقعت مناوشة تجده هناك.

قلت:

- إذاً، فهو شجاع.

- لا، ليس من الشجاعة أن يتطفل على ما لا يدعى إليه.

- فما هو الشجاع عندك؟

- الشجاع؟ الشجاع؟ - كرر النقيب كمن يطرح عليه هذا السؤال لأول

مرة، ثم قال بعد تفكير: الشجاع هو من يتصرف كما ينبغي.

وتذكرت أن أفلاطون يعرف الشجاعة بأنها معرفة ما ينبغي الخوف

منه، وما لا ينبغي ورغم ما في تعريف النقيب من عمومية وإبهام، فقد

فكرت في أن الفكرة الأساسية لدى الرجلين ليست مختلفة بالقدر الذي يمكن أن تبدو عليه، بل وإن تعريف النقيب أوضح من تعريف الفيلسوف الإغريقي، لأنه لو كان في مقدوره أن ينطق بفصاحة أفلاطون لقال، بالتأكيد، إن الشجاع هو من لا يخاف إلا ما ينبغي الخوف منه، وليس ما لا داعي للخوف منه.

أحببت أن أوضح فكرتي للنقيب فقلت:

«أجل، يبدو لي أن في كل خطر خياراً، والخيار المتخذ تحت تأثير الشعور بالواجب، مثلاً، هو الشجاعة، أما الخيار المتخذ تحت تأثير شعور وضيع فهو الجبن، ولهذا لا يجوز أن يوصف بالشجاعة من يجازف بحياته مدفوعاً بالغرور أو الفضول أو الجشع. وبالعكس، لا يجوز أن يوصف بالجبن من ينشئ عن الخطر تحت تأثير الشعور الصادق بالالتزام العائلي أو لمجرد الاقتناع.»

عندما كنت أتكلم كان النقيب ينظر إلي وعلى وجهه تعبير غريب. وقال وهو يحشو غليونه:

«هذا لا أستطيع أن أبرهنه لك. ولكن عندنا طالب عسكرية يحب أن يتفلسف. فتحدث معه. إنه يقرض الشعر أيضاً.»

لم أكن قد تعرفت على النقيب إلا في القفقاس، إلا أنني كنت أعرفه وأنا في روسيا. إن أمه، ماريا أيفانوفنا خلويوفا، وهي مالكة أرض صغيرة، تعيش على بعد فرسخين من ضيعتنا. وقد زرتها قبيل سفري إلى القفقاس. فسرت العجوز سروراً عظيماً لأنني سأرى ولدها باشنكا (وهو الاسم الذي تسمي به النقيب العجوز الأشيب) و - كرسالة حبة - أستطيع أن أقص له عن صحتها وأحوالها، وأسلمه إرسالية

صغيرة منها. قدمت ماريا ايفانوفنا لي فطيرة لذيذة، وخرجت إلى غرفة نومها، وعادت منها بخرز أسود كبير على نحو ما، مخاط بشريط حريري أسود أيضاً.

- هذه أيقونة الأم الشفيعة. قالت بعد أن قبلت صورة العذراء، راسمة علامة الصليب، وقدمتها لي. اجتهد أن توصلها له، يا بني.

عندما رحل إلى القفقاس أقمت صلاة، وقدمت نذراً بأنه إذا عاد حياً سليماً فسأوصي له بهذه الأيقونة للأم العذراء. وها قد مضت ثماني عشرة سنة، والأم الشفيعة والقديسون الأوصياء يصلون له، وحتى الآن لم يجرح مرة واحدة، مع أنه قد اشترك في معارك كثيرة، على ما يبدو!.. وما حكاه لي ميخائيلو عما حصيل له جعل شعري يقف، صدقني! وما أعرفه عنه أعرفه عن طريق الغرباء، فهو لا يكتب لي شيئاً عن حملاته، يخاف أن ارتاع.

(وأنا في القفقاس عرفت، ومع ذلك فليس منه، بأنه قد جرح أربع مرات جراحاً بليغة، وطبيعي أنه لم يكتب شيئاً عنها لأمه، مثلما لم يكتب عن حملاته).

تابعت الأم كلامها قائلة:

- فليقلد الآن صورة العذراء هذه، فأنا أباركه بها. الشفيعة الطاهرة نحميه! لا سيما في المعارك، فليحملها معه دائماً. قل له ذلك، يا بني، قل له إن أمك أمرتك بذلك.

وعدها بأن أنقل رسالتها بدقة.

واصلت العجوز قولها:

- أنا أعرف أنك ستحب ولدي باشنكا. فهو فتى ماجداً! صدقني لا

يمر عام دون أن يرسل نقوداً لي، كما أنه يساعد أنوشكا، ابنتي، كثيراً.
وكل ذلك من راتبه لا غير! سأظل أحمد الرب طوال العمر من كل قلبي
على أنه أعطاني مثل هذا الابن.

ختمت العجوز بذلك كلامها، والدموع تترقرق في عينيها.
سألتها:

كثيراً ما يكتب لك؟

نادراً ما يكتب، يا بني. لا بأس لو كتب في السنة مرة، ولكن
حتى إذا أرسل فلوساً، فهو إما أن يكتب بعض الكلمات القليلة، وإما
لا يكتب كلمة بالمرة. يقول: إذا كنت لا أكتب لك، يا أمه، فمعنى ذلك
أنني حي سليم، وإذا حصل لي شيء، لا سمح الله، فإنهم سيكتبون لك
بدونني.

وحيث سلمت للنقيب هدية أمه (وكان ذلك في مسكني) طلب مني
الورقة ليغلف بها، وطبقها بعناية، وخبأها. تحدثت له كثيراً عن تفاصيل
حياة أمه، ولزم النقيب الصمت. وحيث أنهيت حديثي، انتحى ناحية،
وظل وقتاً طويلاً منشغلاً في تحشية غليونه.

نعم، عجوز ماجدة. قال من هناك بصوت كامد الرنين بعض
الشيء. لا أدري هل سيكتب الرب لنا أن نلتقي ثانية.

وكان في هذه الكلمات البسيطة الكثير من الحب والأسى. قلت:

لماذا أنت تخدم هنا؟

رد بقناعة:

يجب أن أخدم على أية حال. ثم إن الراتب المضاعف لرجل بانس

مثلي يعني الشيء الكثير.

كان النقيب يعيش بشيء من التفتير، فلم يكن يلعب الورق، ونادراً ما يجلس إلى موائد الخمر، وكان يدخن تبغاً بسيطاً كان لسبب ما، لا يسميه «تتناً» بل تبغاً. وقد راق لي النقيب، قبل هذا الحين، فقد كانت سحته من تلك السحنات الروسية البسيطة الهادئة التي يطيب لك أن تنظر في عينيها تماماً، ودون أن تجد حرجاً في ذلك. ولكنني بعد هذا الحديث أحسست باحترام حقيقي نحوه.

٢.

في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي جاء النقيب لاصطحابي. كان يرتدي سترة عسكرية قديمة محكوكة بلا كتافيتين، وبنطالاً لزغينياً* عريضاً، وقبعة قوزاقية بيضاء لها كوربيه** مصفرة مهدلة، وسيفاً آسيوياً بئساً على كتفيه. كان «المشتاك***» الأبيض الذي يمتطيه يسير مطأطأ الرأس في مشية رهاة يقارب فيها يديه ورجليه، ويهز ذيله الهزيل باستمرار. وكان في هيئة النقيب الطيب القليل من أقدام المقاتل، بل ومن الجمال أيضاً، فقد كانت تشي بالكثير من عدم الاكتراث بكل ما يحيط به، حتى كانت تحملك على احترامه حملاً. لم أدعه ينتظر لحظة واحدة، امتطيت الفرس في الحال، وخرجنا سوية خارج بوابة القلعة.

كانت الكتيبة قد تقدمتنا بنحو من مائتي ذراع، فبدت كتلة سوداء

* اللزغينيون شعب قفقاسي .

** الكوربيه في الكلام القفقاسي الدارج يعني فروة الخروف (الملاحظة ليف تولستوي) .

*** مشتاك في الكلام القفقاسي الدارج يعني الحصان (الملاحظة ليف تولستوي) .

كثيفة متماوجة. وكان من الممكن الخدس بأنها من المشاة لمجرد أن حرايها كان تبدو مثل أبر طويلة متقاربة، ومن حين لآخر كانت تبلغ السمع نغمات أغنية الجنود وأصوات الطبل، وصوت المغنى الصاحر للسرية السادسة، الذي كنت قد أعجبت به غير مرة منذ أن كنا في القلعة. كان الطريق يسير وسط وهدة عميقة عريضة، بالقرب من نهير صغير كان في ذلك الوقت يعبث، أي يفيض على الجوانب. كان سرب من الحمام البري بالقرب منه، يحط تارة على شاطئه الصخري، ويتقلب تارة أخرى في الهواء، ويقوم بدورات سريعة، ويطيء وراء مدى البصر. لم تكن الشمس قد ظهرت بعد، إلا أن قمة الطرف الأيمن من الوهدة بدأت تتنور.

كانت الصخور الرمادية والضاربة إلى بياض، والطحلب الأخضر الأصفر، ومجاميع شجيرات الياسمين البري والقرانيا المبللة بالندى، تبدو واضحة المعالم للغاية، مجسمة، في ضوء الهواء الشفاف المذهب، إلا أن الطرف الآخر، والوهدة المغطاة بضباب كثيف متراكم طبقات غير مستوية دخانية اللون كانا رطبين موحشين، يمثلان خبطاً متشابكاً من اللون الليلكي الشاحب، والأسود تقريباً، والداكن الخضرة، والأبيض. وقبلتنا تماماً، في الزرقة الداكنة للأفق كانت الكتل الساطعة البياض، والكاملة للجبال الثلجية تلوح بوضوح مذهل بعالمها وظلالها العجيبة والأنيقة في نفس الوقت، حتى أصفر دقائقها. وقد استيقظت الجداجد، واليعاسيب، وآلاف الحشرات الأخرى على العشب العالي، وملأت الهواء بأصواتها الصافية الموصولة. فبدأ وكأن عدداً لا يحصى من الأجراس المتناهية الصغر ترن في الأذان. وكان الهواء نفسه مشبعاً برائحة الماء والعشب

والضباب، وباختصار، برائحة صباح صيفي باكر رائع، قدح النقيب ناراً، وأشعل غليونه، ويدت لي رائحة التبغ والصوفان ذات نكهة عذبة بشكل غير اعتيادي.

سرنا في جانب الطريق لنلحق بالمشاة بأسرع وقت ممكن. وبدا النقيب مشغول البال أكثر من المعتاد، لم يخرج من فمه الغليون الداغستاني، وفي كل خطوة يخز بكعبي حذائه حصانه الذي كان يترك أثراً أخضر لا يكاد يلحظ على العشب الرطب العالي، مترنحاً من جنب إلى جنب. طار دراج من تحت أقدام الحصان تماماً، بصفير ويخفق بالجناحين، ذلك الخفق الذي يجعل الصياد يجفل تلقائياً، وأخذ يصعد إلى الأعلى ببطء. لم يلق النقيب أدنى التفات للطائر.

كنا على وشك أن نلحق بالكتيبة، حين سمعنا من وراء كركبة حصاناً يعدو، وفي تلك اللحظة مر بنا شاب غض العود حلو المحيا في سترة ضباط رسمية، وقبعة قوزاقية بيضاء عالية.

وحين حاذانا ابتسم، وهز رأسه للنقيب، ولوح بسوطه... لم يتيسر لي إلا أن ألمحه جالساً على سرجه يمسك بالزمام برشاقة ملحوظة، وألمح عينيه السوداوين الجميلتين، وأنفه الدقيق، وشاربيه البارزين. وقد أعجبني فيه بشكل خاص أنه ما استطاع إلا أن يبتسم، حين لاحظ أننا نتأمله بافتتان. ومن تلك الابتسامة وحدها كان من الممكن أن نستنتج أنه ما يزال في ربيع شبابه.

- إلى أن يعدو؟ - دمدم النقيب بهيئة متبرمة، دون أن يخرج غليونه من فمه.

سألته: من هو؟

ـ الملازم آلانين، الضابط الأصفر في سريتي. جاء من المدرسة العسكرية في الشهر الماضي فقط.
قلت:

ـ يبدو أنه ذاهب للمعركة لأول مرة؟
ـ بالضبط، وفرحان، ـ أجاب النقيب، هازأً رأسه بعميق الدلالة .
شباب!

ـ ولكن لماذا يفرح؟ أنا أفهم أن هذا الأمر لا بد أن يكون ممتعاً جداً لضابط شاب.
صمت النقيب دقيقة أو دقيقتين.

ـ وهذا ما أقوله: شباب! ـ تابع القول بصوت عالي النبرة ـ وبماذا يفرح، إذا لم ير شيئاً! ولكن ما إن يتكرر خروجه، حتى لا يجد ما يفرحه. في حملتنا هذه، على سبيل المثال، بشارك عشرون ضابطاً، ولا بد أن أحداً منهم سيقتل أو يجرح، هذا مؤكد. اليوم تدور الدوائر علي، وغداً عليه، وبعد غد على ثالث. فما الذي يفرح في الأمر؟

ـ ٣ ـ

ما كادت الشمس الساطعة تطلع من وراء الجبال، وتأخذ بنشر ضوئها في الوادي، الذي كنا نسير فيه، حتى أخذت غيوم الضباب المتماوجة تنقش، ويصير الجو حاراً. كان الجنود بينادقهم والزكائب على أكتافهم يسرون ببطء في الطريق المترب، ومن حين لآخر كان يتردد في صفوفهم كلام باللغة الأوكرانية، وضحك. وكان بعض الجنود الكبار في السن في سترهم العسكرية البيضاء ـ معظمهم ضباط صف ـ يسرون

والغلايين في أفواههم، على جانب الطريق، يتبادلون الحديث برصانة. وكانت عربات الترويكاً* المحملة إلى الأعلى تسير بتساقل، وتشير غباراً كثيفاً يظل عالقاً في الجو لا يريم. وكان الضباط يسبرون على خيولهم في المقدمة، بعضهم يتوثب على حصانه، أي يضرب حصانه بسوطه، ويجعله يشب أربع وثبات، ويتوقف دفعة واحدة مديراً رأسه إلى الخلف، والبعض الآخر يتلهى بالمغنيين الذين كانوا يعزفون الأغنية بعد الأخرى دون انقطاع، رغم شدة الحر وغرة الهواء.

وعلى مسافة مائة ذراع أمام المشاة، كان يسير على حصان أبيض كبير على ثلة من التترين الخيالة ضابط وسيم طويل القامة في لباس آسيوي، معروف في الفوج كشجاع مستميت لا يخشى في الحق لومة لائم. كان يرتدي بشتاً أسود ذا أشرطة وحذاء قفقاسياً جديداً مشدوداً على ساقيه، وسترة شركسية، وقبعة قوقازية عالية مسرحة إلى الوراء. وكان على صدره وظهره تقصيبات فضية وضع عليها سير ومسدس وراء الظهر، بينما تدلى من حزامه مسدس آخر وخنجر في غمد فضي. وفوق كل ذلك كان يتقلد سيفاً في غمد السختيان أحمر ذي أشرطة، وبنادقية في غلاف أسود كان يضعها فوق كتفه. وكان لباسه، وجلسته على صهوة فرسه، ومسلكه، ومجمل حركاته يدل على أنه يسعى أن يبدو كالتتري. بل كان يقول للتترين الذين كانوا يسبرون معه شيئاً بلغة غير مفهومة لي. ولكن النظرات الحائرة الساخرة التي كان يتبادلها هؤلاء، كانت تشي بأنهم لا يفهمونه. لقد كان صاحبنا أحد الضباط الفرسان

* الترويكاً - ثلاثة أحصنة في عربة واحدة .

المغاوير الذين اتخذوا مشالهم من مارلينسكي ولورمنتوف. إن هؤلاء ينظرون إلى القفقاس بمنظار أبطال زماننا*، وأمثال ملا نوري ومن على شاكلتهم، يقتدون في كل أفعالهم بمثال هؤلاء الشخصيات، وليس بما تستوجهه ميولهم الخاصة.

لعل الضابط كان يحب، مثلاً، مجتمع النساء الفاضلات، والناس ذوي الشأن - الجنرالات، والعقدا والمراققين - بل وأنا واثق من أنه كان يحب هذا المجتمع جداً، لأنه كان على أكبر درجة من الاعتداد بالنفس - ولكنه كان يعتبر من اللازم المحتمي له أن يدير جانبه اللفظ لكل ذوي الشأن، رغم أن فظاظته معهم كانت معتدلة جداً، وحين تظهر سيدة راقية في القلعة كان يعتبر من اللازم أن يمر بنافذتها مع أصحابه وليس عليه غير قميص أحمر، وحذاء قفقاسي يلبسه على رجلين بلا جوارب، يصبح ويتشائم بأعلى صوت ممكن. ولكن كل ذلك ليس عن رغبة في إهانتها، بقدر ما هو عن الرغبة في أن يظهر أن له رجلين بيضاوين جميلتين، وأن من الممكن أن تحبه أمة امرأة، إذا كان يريد ذلك. أو أن يكمن في الطريق، في روحاته الكثيرة ليلاً في الجبال مع اثنين، أو ثلاثة من التتر المسلمين، يترصد ويقتل التتر المعادين المارين، رغم أن قلبه كان يقول له غير مرة إن ذلك خال من الشجاعة بالمرة، فقد كان يرى لزماً عليه أن يلحق الأذى بالذين خاب أملهم فيهم لشيء ما على حد زعمه، وأنه يحتقرهم ويبغضهم. وكان هناك شيان لا يخلعهما عنه قط: أيقونة كبيرة في رقبته، وخنجر فوق القميص، بل وكان ينام والخنجر معه. كان

* «بطل زماننا» رواية شهيرة للشاعر الروسي لورمنتوف تمتاز برومانطيقيتها. المترجم .

يؤمن بصدق بأن له أعداء. وكان يجد أكبر متعة في إقناع نفسه بأنه يجب أن ينتقم من أحد، ويفعل الإساءة بالدم. وكان موقناً بأن مشاعر الكراهية والانتقام واحتقار الجنس البشري هي أرفع العواطف الشاعرية. إلا أن عشيقته - وهي شركسية، بالطبع - صادف أن قابلتها فيما بعد، كانت تقول إنه كان أطيب الناس وأدملهم خلقاً، وإنه كان يكتب معها في كل مساء مذكراته الكثيرة، ويسجل الحسابات على ورقة مجدولة، ويصلي إلى الرب راکعاً على ركبتيه. وكم كان يشقى لكي يبدو، أمام نفسه فقط، ما كان يريد أن يكون، لأن رفاقه والجنود لم يتمكنوا أن يفهموه بالشكل الذي كان يريده. في إحدى حملاته الليلية على الطريق مع أصحابه صادف أن جرح أحد التشيتشينيين المعادين في قدمه، وأسرّه. وقد عاش هذا التشيتشيني، بعد الحادث مع هذا الضابط سبعة أسابيع وعالجه الضابط ورعاه كصديق حميم، وحين شفي أطلق سراحه محملاً بالهدايا. وخلال حملة أخرى بعد هذا الحادث، حين كان هذا الضابط يتراجع تخلصاً من رماية العدو، سمع بين الأعداء من يناديه باسمه، وإذا بصاحبه الذي كان جريحاً في السابق، يخرج في المقدمة، ويدعوه بالإشارات إلى أن يحذو حذوه، تقدم الضابط من صاحبه، وصافحه. وقف الجبليون على مبعده، ولم يطلقوا النار. ولكن ما إن أدار الضابط حصانه عائداً حتى أطلق عدة رجال النار عليه، وخذشت إحدى الرصاصات أسفل ظهره، وفي مرة أخرى رأيت بنفسي كيف شب حريق في القلعة ليلاً، واطفأه جنود سريتين. وفجأة رأيت وسط جمع الناس المضاء بلهب الحريق الأحمر قامة الرجل الفارعة على فرسه الأسحم، وصار الرجل يدفع الجمع، حتى وصل بفرسه إلى النار تماماً. وعندئذ قفز من حصانه، ودخل راکضاً إلى البيت الذي كان يحترق من أحد أطرافه.

وبعد خمس دقائق خرج هذا الضابط مشتعل الشعر، محترق المرفق، حاملاً في طية صدره حمامتين أنقذهما من اللهب.
كان لقبه روزنكرانتس، ولكنه كان كثيراً ما يتحدث عن نفسه، فيرجعه إلى الفارياغيين*، ويبرهن بوضوح على أن أسلافه كانوا روساً أقحاحاً.

٤٠

صعدت الشمس إلى السم، وراحت تقذف شواظ أشعتها على الأرض الجافة من خلال الهواء المحمي. كانت السماء الداكنة الزرقاء صافية تماماً، سوى أن سفوح الجبال الثلجية أخذت تتسرل بغيوم بيضاء ليلكية، وكان الهواء الراكد يبدو، وكأنه مشبع بغبار شفاف. وصارت وقدة الحر لا تطاق. توقفت القوات للاستراحة، حين وصلت إلى نهير صغير كان يجري في منتصف الطريق. وضع الجنود بنادقهم، وألقوا أنفسهم في النهير، وجلس آمر الكتيبة في الظل، على طبل، وأضفى على وجهه الممتلئ سمة رتبته العسكرية، واتخذ مجلسه مع بعض الضباط لتناول بعض الطعام. واستلقى النقيب على العشب تحت عربة السرية. واستقر الضابط الشجاع روزنكرانتس وبعض الضباط الشبان على ماطر لبادية مفروشة، وتهيأوا للشرب، كما كان ذلك واضحاً من القوارير والزجاجات الموضوعة بالقرب منهم، ومن الحيوية العاطفية الواضحة للمغنين الذين وقفوا أمامهم في نصف دائرة، وغنوا أغنية قفقاسية راقصة مصحوبة بصغير:

* تسمية تطلق على سكان اسكندنافيا. وكان لأمراء روسيا القديمة في القرون ٩ و ١٠ و ١١ الكثير منهم كحراس. وقد تعلموا لغة وثقافة السلاف الشرقيين وسرعان ما اندمجوا معهم. المترجم.

خطر ببال شامل أن يتحمر
في الأعوام الخوالي...
تراي - راي، را تا تاي...
في الأعوام الخوالي.

وكان من بين هؤلاء الضباط الملازم الثاني الشاب الذي تجاوزنا في الصباح. كان نشوان جداً، عيناه تلمعان، ولسانه يتلعثم قليلاً. وكان يود كثيراً أن يقبل الجميع، ويعلن عن حبه لهم... يا للصبي المسكين! إنه لم يعرف بعد أن من الممكن أن يكون مضحكاً وهو في هذا الوضع، وأن صراحته وتودداته التي أغدقها على الجميع لا تحمل الآخرين على الحب الذي كان يتوخاه كثيراً، بل على السخرية، كما لم يعرف أيضاً أنه كان فائق الفتنة، حين فرغ من الكلام وارتقى تلة في آخر الأمر وارتفق على يده، ودفع شعره الأسود الكثيف إلى الوراء. وجلس ضابطان تحت عربة، وعلى صندوق متاع يلعبان الورق.

كنت أصغي إلى أحاديث الجنود والضباط بفضول، وأمعن النظر في تعابير وجوههم. ولكنني لم أستطع قط أن أرى في وجه أي واحد منهم ذلك القلق الذي كان يساورني. فقد كانت النوادر والضحك والحكايات تعرب عن الأمان السائد، وعن عدم الاكتراث بالخطر المقبل. وكأن من المستحيل حتى الافتراض بأن بعضهم قد كتب له ألا يعود في هذا الطريق!

٥٠

بعد الساعة السادسة مساءً دخلنا متعبين مغبرين في البوابة العريضة المحصنة لقلعة ن. هبطت الشمس، وأرسلت أشعتها الوردية المائلة على البطاريات الصغيرة والبساتين الجميلة بأشجار الحور الباسقة.

المحيطة بالقلعة، وعلى الحقول المزروعة المصفرة وعلى الغيوم البيضاء التي كانت بتزاحمها قرب الجبال الثلجية، وكأنما تحاكبها، تكون سلسلة لا تقل عن سلسلتها عجباً وجمالاً.

وكان الهلال الفتي، مثل غمامة صغيرة شفافة، بلوح في الأفق. وفي القرية التترية الواقعة قرب البوابة، كان المؤذن التتري، يؤذن على سطح بيت داعياً المؤمنين إلى الصلاة. وكان المغنون يصدحون بحميدة جديدة وحبوية. استرحت قليلاً، وأزلت عني وعشاء الطريق، وقصدت مرافقاً من معارفي لأطلب إليه أن يرفع مرادي إلى الجنرال. في الطريق من الضاحية، التي حلت فيها، استطعت أن ألحظ في قلعة ن. ن. ما لم أتوقعه قط. جاوزتني عربة بديعة ذات مقعدين لاحت فيها قبعة على الموضة، وصدر منها كلام باللغة الفرنسية. وصدرت من نافذة بيت الناظر المفتوحة أصوات لحن «ليزانكا» أو «كاتينكا - بولكا» يعزف على بيانو رديء غير مضبوط.

ورأيت في الحانة التي مررت بها في الطريق بعض الكتبة عاكفين على أقذاح النبيذ، والسجائر في أيديهم، وسمعت أحدهم يقول لآخر: «أرجو المعذرة... ماريا غريغوريفنا السيدة الأولى عندنا فيما يخص السياسة». ورأيت يهودياً محدودب الظهر سقيم الوجه في سترة رسمية مستهلكة يحمل أورغناً يدوياً مكسوراً يرسل أصواتاً موصوفة، وقد ترامت في الضاحية كلها أصوات الختام من «ليوتشيا*». ومرت بي بانسياب على الرصيف الخشبي امرأتان في ثوبين مخشخشين، تشدان

* «ليوتشيا دي لامير مور» - أوبر للموسيقي الإيطالي دوتستي (١٧٩٧٤ - ١٨٤٨).

رأسيهما بمندبلين حريرين، وفي يديهما مظللتان زاهيتا الألوان. وكانت فتاتان، إحداهما في ثوب وردي، والأخرى في ثوب أزرق، وكلتاهما حاسرة الرأس، تقفان عند دكة بيت صغير منخفض، وترسلان ضحكة نحيلة بطريقة متكلفة، في رغبة واضحة لإثارة انتباه الضباط المارين. وكان الضباط في ستر رسمية جديدة، وقفازات بيض، وكتافيات لامعة يتخطرون في الشوارع والبولفار.

رأيت صاحبي في الطابق الأسفل لبيت الجنرال. وما كدت أبين له رغبتني، ويقول هو لي إن من الممكن جداً أن تنفذ، حتى سمعنا العربة البديعة، التي كنت قد لاحظتها من قبل، تمر مفرقة بالشباك الذي كنا نقف عنده، وتقف عند مدخل البيت. خرج من العربة شاب رشيق طويل يرتدي سترة ضباط المشاة، ويضع على كتفيه كتافيتي ضابط برتبة رائد، ومر ذاهباً إلى الجنرال.

- آه، اعذرني أرجوك - قال لي المرافق ناهضاً من مكانه - يتحتم علي أن أبلغ الجنرال.
سألته: من جاء؟
- الكونتيسة.

أجاب، وزر سترته، وركض إلى الأعلى.
وبعد بضع دقائق خرج إلى مدخل البيت رجل متوسط القامة فائق الوسامة في سترة عسكرية بلا كتافيات، على صدره صليب أبيض يتدلى من عروة. وفي أثره خرج الرائد، والمرافق، وضابطان آخران. وكان يستدل من مشية الجنرال وصوته وكل حركاته أنه رجل يعرف حق المعرفة ما له من قيمة رفيعة.

- Bonsoir, madame la comtesse * قال مقدماً يده في نافذة العربة.
صافحته يد صغيرة في قفاز من جلد الجدي، ولاح في نافذة العربة
وجه صغير حلو التقاطيع مبتسم.
ومن كل الحديث الذي استمر بضع دقائق لم أسمع إلا ما قاله
الجنرال مبتسماً، حين مررت بهما:

- Vous savez, que j'ai fait vœu de combattre les infidèles, prenez
donc garde de devoir**.

وصدر ضحك في العربة.

- Adieu donc, cher general***.

قال الجنرال صاعداً درجة من السلم:

- Non, à revoir n'oubliez pas, que je m'invite pour la soirée de de-
main****.

وتحركت العربة مواصلة قرقتها.

« هذا إنسان آخر - فكرت مع نفسي، وأنا أعود إلى البيت - يملك
كل ما يمكن أن يحزره الروس: الرتبة، والغنى، والجاهة، وهذا الإنسان
في مواجهة معركة لا يعرف إلا الله بم ستنتهي، يمازح امرأة مليحة،
وبعدها بأن يشرب عندها الشاي في اليوم التالي، وكأنما التقى بها في
حفلة راقصة! ».

* مساء الخير ، يا كوتسة (بالفرنسية) .

** أنت تعرفين أنني قطعت عهداً بمحاربة غير الأوفياء، فحاولي أن لا تكوني غير ودية (بالفرنسية) .

*** إذن ، وداعاً ، يا عزيزي الجنرال (بالفرنسية) .

**** لا . بل إلى اللقاء ، لا تنسي أنني طلبت أن تصيفيني عندك غداً مساء (بالفرنسية) .

وهنا أيضاً، عند المرافق، التقيت برجل آخر أثار دهشتي أكثر. إنه الضابط الشاب ك، المتميز بجماله النسوي تقريباً، وتهيبه، وقد جاء إلى المرافق يسكب له ضيقه وحنقه على أناس زعم أنهم كانوا يتآمرون عليه لكيلا ينسب للاشتراك في المعركة المقبلة. كان يقول إن هذا التصرف من جانبهم وضاعة، وغير رفاقي، وأنه سيتذكر ذلك إلى الأبد... وإلى آخر ذلك. ومهما دقت النظر في التعبير المرتسم على وجهه، ومهما أصغيت إلى نبرات صوته، لم أستطع أن أقتنع بأنه في سلوكه هذا بعض التصنع، بل كان متأثراً بعمق، ومفتماً من عدم سماحهم له بالخروج لرمي الشراكسة وبالتعرض لنيرانهم. وكان مفتماً ذلك الغم الذي يشعر به الطفل وقد تحمل لتوه ضرباً دون إنصاف... ولم أكن أفهم شيئاً البتة.

٦.

كان يجب أن تتحرك القوات في الساعة العاشرة مساءً. في الساعة الثامنة والنصف ركبت حصاني، وذهبت إلى الجنرال، ولكنني توقفت في الخارج مفترضاً أن الجنرال ومرافقه مشغولان، وربطت حصاني إلى السياج، وجلست على الدكة، بغية أن ألحق بالجنرال، حالما يخرج من البيت.

كان حر الشمس وألقها قد زالا لتحل محلها طراوة الليل، والضوء الهادئ للهِلال الفتي الذي أخذ يهبط، مكوناً بالقرب منه نصف دائرة مضبئة شاحبة في الزرقة الداكنة للسماء ذات النجوم. أخذت الأنوار تضيء في نوافذ البيوت وشقوق شبابيك المخايئ.

وكانت أشجار الحور الهرمية المشوقة في البساتين، والتي كانت تلوح في الأفق من وراء المخابئ المحفورة ذات السطوح من القصب، والمضأة بالقمر، تبدو أكثر ارتفاعاً من حقيقتها، وأكثر اسوداداً.

وكانت الظلال الطويلة للبيوت، والأشجار، والأسيجة ترتقي جميلة على الطريق المترب المنور... وعلى النهر كانت الضفادع تصدح*، بلا انقطاع، وفي الشوارع كانت تتردد خطوات مسرعة وكلام تارة، وكركبة خيول تارة أخرى، ومن حين لآخر كانت تصل من الضاحية أصوات الأورغن البدوي: «عويل العاصفة» مرة و Aurora-walzer** مرة أخرى.

لن أتحدث عما كان يشغل فكري. أولاً، لأن من المخجل أن أعترف بالأفكار السوداء التي كانت تتوارد على نفسي بشكل موصول، في حين لم ألحظ حولي غير المرح والفرح، وثانياً لأن ذلك لا يناسب قصتي. كنت منشغل الفكر بحيث لم ألحظ كيف قرع الناقوس مؤذناً بالساعة الحادية عشرة، ومر الجنرال بي مع حاشيته.

امتطيت حصاني على عجل، وهبطت لألحق بالفصيلة.

كان حرس المؤخرة ما يزال في بوابة القلعة. شققت طريقي بصعوبة بالغة على الجسر بين المدافع المحتشدة، والصناديق، وعربات السرايا، والضباط الذين كانوا يصدرون الأوامر بصخب. ولما خرجت من البوابة، التففت حول القوات المتحركة بصمت في الظلام والممتدة على مسافة فرسخ تقريباً، حتى لحقت بالجنرال.

ولدى مروري بالمدفعية المتصلة كبطارية واحدة، وبالضباط راكبي

* تصدر الضفادع في التفقاس أصواتاً ليس لها وجه شبه بنقيق الضفادع الروسية .

** «فالس الفجر» .

الخيول بين المدافع أذهلني، كنشاز مهين وسط إيقاع احتفالي، صوت الماني صارخ: «اختينحيست، أطلق، تبا آآآلتبك!» وصوت جندي بصيح مسرعاً: «يا شيفتشنكو! الضابط يطلب... ناراً».

كان جزء كبير من السماء مغطى بسحب طويلة رمادية داكنة، وهنا وهناك فقط كانت النجوم تومض بينها غير ساطعة. واختفى الهلال وراء الأفق القريب للجبال السوداء التي كانت ترى إلى اليمين، وألقى على قممها ضوء الباهت الواهن المرتعش، المغاير بشدة للظلام الحالك الذي يلف سفوحها. وكان الهواء دافئاً والسكون شاملاً حتى لكأن كل نصل عشب وكل غيمة قد جمدت.

وكانت الحلقة دامسة حتى كان من المستحيل تبيين الأشياء حتى من أقرب مسافة. وكان يخيل إلي أنني أرى على جانبي الطريق صخوراً تارة، وحيوانات تارة أخرى، وأناساً غريبين تارة ثالثة، ولكنني كنت أتبين أنها أجسام، فيما بعد فقط، حين كنت أسمع حفيفها، وأحس بطراوة الندى الذي كان يغطيها.

كنت أرى أمامي جداراً أسود مرصوفاً متماوجاً كانت تعقبه بعض البقع المتحركة. وكانت هذه طبيعة الخيالة والجنرال وحاشيته. وخلفنا كانت تتحرك كتلة سوداء ماثلة، ولكنها كانت أوطأ من الأولى. إنها المشاة.

وكان يسود الفصيلة كلها سكون تام حتى لكانت تسمع بوضوح كل أصوات الليل المتداخلة المفعمة بسحر غامض: عواء بنات آوى الموحش البعيد الذي كان يشبه البكاء البائس أحياناً، والقهقهة أحياناً أخرى، والترجيعات الرنانة الرتيبة لجدد ولصفدة ولساني، ودوي مقترب لم أستطع أن أوضح لنفسي مبعثه، وكل حركات الطبيعة الليلية هذه التي

لا تكاد تسمع، والتي يستحيل فهمها ولا تحديدها قد اندمجت في صوت واحد ممتلئ رانع نسيه نحن سكون الليل. وكان هذا السكون يتحطم، أو بالأحرى، يتداخل مع كركبة الحوافر الصماء، وحفيف العشب العالي، وهما ما كانت تصدره القوات المتحركة ببطء.

ومن حين لآخر فقط يسمع في الصفوف رنين مدفع ثقيل، وصوت تصادم حراب، وكلام مكتوم، وصهيل حصان. كانت الطبيعة تعبق جمالاً متسامحاً وقوة.

أبعقل أن الناس يشعرون بالاكتمال في العيش في هذه الدنيا الرائعة، وتحت هذه النجوم التي لا تسبر؟ وهل يمكن حقاً أن يبقى في نفس الإنسان شعور الحقد والانتقام ونوازع القضاء على بني جنسه؟ يبدو لي أن كل ما في قلب الإنسان من شر لا بد سيختفي في تماسه بالطبيعة، بهذا التعبير الأعظم فصاحة عن الجمال والخير.

٧.

سرنا أكثر من ساعتين. وكانت تنتابني رجفة، وأخذ النعاس يعقد أجفاني. وفي الظلام تراءت لي مطموسة المعالم نفس الأشياء غير الواضحة تلك: على مسافة بعيدة بعض الشيء الجدار الأسود، ونفس البقع المتحركة، وعلى مقربة دانية مني كفل حصان أبيض يهز ذيله، وقد أفرج قائمته الخلفيتين كثيراً، وظهر في سترة شركسية بيضاء تتأرجح عليه بندقية في غلاف أبيض، ويلوح رأس مسدس أبيض في غلاف مطرز، ورأس سيكارة مشتعلة، يضيء شاربين أشقرين، وياقة من فراء القندس، ويداً في قفاز شمو.

انحنيت على عنق الفرس، وأغمضت عيني، وهومت لبضع دقائق، ثم بهرتني فجأة كركبة مألوفة وهسهسة، أجلت بصري، وخيل إلي أنني أقف في مكاني، وأن الجدار الأسود الذي كان أمامي زحف نحوي، أو أن هذا الجدار توقف، وأني سأصطدم به بعد هنيهة. وفي إحدى هذه اللحظات بهرني، بشكل أقوى، ذلك الدوي المقترب الموصول الذي لم أستطع أن أحدد مبعثه. وكان ذلك هدير ماء. فقد كنا ندخل في مضيق جبلي عميق، ونقترب من نهر جبلي كان في ذلك الوقت في أوج فيضانه*. كان الدوي يشتد، والعشب الرطب يزداد كثافة وارتفاعاً، والأجسام تتكاثر، والأفق يضيق بالتدريج. ومن حين لآخر كانت نيران وهاجة تتقد في أماكن مختلفة على خلفية الجبال الموحشة، وتختفي في الحال.

سألت التتري الذي كان يسير على حصانه بالقرب مني:

. قل لي من فضلك: ما هذه النيران؟

أجاب: ألا تعرف؟

. لا أعرف.

. جيليون ربطوا قشاً على عصوات أشعلوها، ويروحون بها.

. ولأي شيء هذا؟

. لكي يعرف كل إنسان أن الروس قادمون والآن في القرى التترية

جلية وضوءاً، كل واحد يحمل أمتعته إلى الوهدة.

أضاف ذلك ضاحكاً.

سألت:

* فيضان الأنهار في القفقاس يحدث في شهر تموز (الملاحظة لليف تولستوي).

- هل من المعقول أنهم يعرفون أن القوات قادمة؟
- نعم، وكيف لا يعرفون! يعرفون دائماً، قومنا بهذا الشكل!
قلت:

- وشامل أيضاً يتهباً للحملة؟
ايوك*، - أجاب هازاً رأسه نفيًا - لن يخرج شامل في حملة، ولكن
ينظر هو بالمنظار، من أعلى، يرسل نائباً.
- وهل هو بسكن بعيداً؟
- لا بعيداً. الجهة اليسرى، يطلع حوالي عشرة فراسخ.
سألته:

- ولماذا أنت تعرف؟ هل معقول أنك كنت هناك؟
- كنت، الجميع في الجبال كان.
- ورأيت شاملاً؟

- بيج! شامل جماعتنا لن تراه. حوله مائة، ثلثمائة، ألف مريد،
سيكون شامل في وسط. - أضاف بلهجة الاحترام المجامل.
استطعت أن ألحظ، حين رفعت بصري إلى فوق، أن السماء الصافية
تماماً قد بدأت تتنور في الشرق، وأن بنات أطلس**، ينزلن نحو الأفق،
إلا أن الجو في المضيق الجبلي الذي كنا نسير فيه كان رطباً وموحشاً.
وفجأة التسمعت بضع نيران في الظلام على مسافة قريبة قدامنا،
وفي تلك اللحظة أزت رصاصات زاعقة، ووسط السكون المحدث ترامت
الطلقات بعيداً، وصرخة عالية مصمة. كان ذلك موقعاً أمامياً للعدو.

* تعني بالترية «لا» (الملاحظة لليف تولستوي) .

** مجموعة لجووم الثريا أو المجرة . المترجم .

فقد صرخ التتريون القائمون فيه تلك الصرخة، وراحوا يطلقون النار خبط عشواء، ويتفرقون بدداً.

سكت كل شيء. استدعى الجنرال الترجمان، فتقدم منه تتري في سترة شركسية بيضاء، وراح يهمس له عن شيء ما وبالإشارات، ولوقت طويل جداً.

قال الجنرال بصوت هادئ محدود، ولكنه آمر:

يا عقيد حسنوف، أوعز بنشر القوات.

تقدمت القوات من النهر. وبقيت جبال المضيق السوداء إلى الخلف.

وبدأت الدنيا تتنور. ولاحت القبة السماوية التي كانت تتراعى فيها بالكاد نجوم شاحبة بلا لمعان، أعلى من ذي قبل، وبدأ البرق الخلب يلمع ساطعاً في الشرق، وتهب ريح طرية قارصة من الغرب، وتتصاعد ضباب منور، كالبخار، فوق النهر الهادر.

٨.

أشار الدليل إلى مخاضة العبور، فأخذت مقدمة الخيال تعبر، وفي أثرها الجنرال وحاشيته. كان الماء يصل إلى صدور الخيل، ويندفع بقوة غير اعتيادية بين صخور بيضاء كانت في بعض الأماكن تبدو في مستوى الماء، وتشكل عند أقدام الخيل مسابيل مزيدة هادرة. كانت الخيول تندهش من صخب الماء، فترفع رؤوسها، وتوتر آذانها، ولكنها كانت تسير بهدوء وحذر ضد التيار، على القاع المتعرج. وكان راكبوها يرفعون أرجلهم وينادقهم. والجنود المشاة يجاهدون بقوة. وهذا ما كان يبدو من وجوههم المتوترة لاقتحام التيار، وقد تجردوا إلا من قمصانهم،

رافعين فوق الماء بنادقهم التي علقوا عليها صرر ملابسهم، في جماعات من عشرين رجلاً يمسك أحدهم بيد الآخر. وكان سائقو عربات المدافع ينزلون الخيول إلى الماء عدواً، وكانت المدافع والصناديق الخضراء التي كان الماء يرشقتها من حين لآخر ترن على القاع الصخري، ولكن خيول البحر الأسود الطيبة هذه كانت تجر حمولتها بتألف، وتشير الزيد في الماء، وتخرج على الشاطئ الآخر مبللة الذبول والأعراف.

وما كاه العبور ينتهي حتى أضفى الجنرال على وجهه فجأة مسحة انشغال البال والجدية، واستدار بفروسه، وانطلق مع كوكبة الفرسان إلى فرجة عريضة تكشفت أمامنا محفوفة بغابة. وتوزعت صفوف الفرسان القوزاق على طول حافات الغابة.

ويظهر في الغابة رجل ماش في سترة شركسية وقبعة فرائية، ثم ثان، وثالث... ويقول أحد الضباط: «هؤلاء تتر». وإذا بدخان قد ظهر من وراء شجرة... طلقة، وتصم طلقاتنا المتتابعة طلقات العدو. ومن حين لآخر فقط تدل رصاصة تمر بنا بصوت بطيء شبيه بحفيف نحلة في طيرانها على أن الطلقات ليست كلها من جانبنا. ويمر صف المشاة بخطوات سريعة، والمدافع تعدو بها الخيول. وتتردد إطلاقات المدافع المدوية، والصوت المعدني لطيران القذائف، وهسيس السهام النارية، وقرقعة البنادق. ويظهر الفرسان والمشاة والمدفعية من كل الجهات في الفرجة العريضة.

ويندمج دخان المدافع والسهام النارية والبنادق بالخضرة المخضلة بالندى وبالضباب، ويأتي العقيد حسنوف إلى الجنرال منطلقاً على فروسه، ويوقفه بحدة، وهو في ذروة انطلاقه.

ويقول، وهو يرفع يده إلى قبعته بالتحية:

. يا صاحب الفخامة: أصدرت أمرم بأن يهاجم الفرسان. فقد ظهرت
الشارات* - ويشير بسوطه إلى التثر الخيالة الذين يسير في مقدمتهم
رجلان على فرسين أبيضين، يرفعان قطعتين حمراء وزرقاء من القماش
على عودين. فيقول الجنرال:

. في حفظ الله، يا أيفان ميخائيليتش!

ويستدير العقيد بفرسه وهو في مكانه، ويستل سيفه، ويصيح:
«هورا!».

فتتردد في الصفوف صيحة الحرب هذه «هورا! هورا! هورا!».
وينطلق الفرسان خلفه.

وينظر الجميع بتعاطف. وتظهر شارة، وأخرى، وثالثة، ورابعة...
ويختفي العدو في الغابة، دون أن ينتظر الهجوم، ويطلق من هناك
نيران بنادقه. ويتطاير الرصاص بتتابع مطرد.

- **Quel charmant coup d'oeil!

يقول الجنرال وهو ينط قليلاً وعلى طريقة الإنجليز على فرسه الأسحم
الدقيق القوائم.

- Charmant!

يجيب الرائد لاثغاً، ويقترب من الجنرال، وقد ساط حصانه بضربة ويقول:

- ***C'est un vrai plaisir, que la guerre dans un aussi beau pays

* الشارات عند الجبلين تعني الرايات على وجه التقريب ، مع فاروق واحد هو أن كل فارس
جبلي يستطيع أن يتخذ له شارة ، ويحملها (الملاحظة لليف تولستوي) .

** يا له من مشهد رائع! (بالفرنسية) .

*** مدهش! متعة حقيقية أن تحارب في بلاد جميلة كهذه (بالفرنسية) .

فيضيف الجنرال بابتسامة لطيفة:

- *Et surtout en bonne compagnie .

وينحني الرائد رداً للجميل.

وفي تلك اللحظة تمر قذيفة معادية بهسيس سريع منفر، وتصطدم بشيء ما، فيصدر أنين جريح من الخلف. ويذهلني هذا الأنين بشكل محير، حتى ليفقد مشهد الحرب كل فتنة عندي على الفور، ولكن لا يبدو أن أحداً غيري يلاحظ ذلك. فالرائد يضحك باستغراق شديد، على ما يبدو، وضابط آخر يكرر، بهدوء تام، الكلمات التي استهل بها الكلام، والجنرال ينظر في الجانب المقابل، ويأهدأ ابتسامة بقول شيئاً ما بالفرنسية. ويتقدم آمر المدفعية على فرسه، ويسأل:

- هل تأمرون بالرد على طلقاتهم؟

فيقول الجنرال بلا مبالاة، وهو يشعل سيفاراً:

- نعم، ارفعهم قليلاً.

وتصطف مدافع البطارية، ويبدأ القصف. وتثن الأرض من الإطلاقات، وتتوهج النيران باستمرار، ويغشي العيون دخان يكاد يتعذر من خلاله تبين الطاقم المتحرك قرب المدافع.

تقصف القرية المتترة. ويتقدم العقيد حسنوف على فرسه مرة أخرى، وينطلق إلى القرية بإيعاز من الجنرال. وتصدر صيحة الحرب مرة أخرى، وتختفي الخيالة في سحابة الغبار التي أثارتها.

كان المشهد مهيباً حقاً. إلا أن شيئاً واحداً قد أفسد الانطباع العام بالنسبة لي كرجل لم يشترك في القتال وغير متعود عليه.

* لا سيما في صحبة طيبة (بالفرنسية) .

وقد بدا لي شيئاً زائداً، إنه الحركة والهياج والصياح. ودون أن أدري عن لي أن أشبه ذلك برجل يقطع الهواء بضربة قاضية من فأس.

٩.

احتلت قواتنا القرية، ولم يبق فيها أي شخص معاد، حين تقدم منها الجنرال مع الحاشية التي اختلطت بها أنا أيضاً. كانت بيوت القرية الطويلة النظيفة ذات السطوح الطينية المسطحة، والمداخن الجميلة تقع على رواب حجرية متعرجة يجري بينها نهر صغير. كانت ترى من أحد الجانبين يساتين خضراء مضاءة بنور الشمس الساطع وتشمخ فيها أشجار الكشمري والبرقوق الضخمة، ومن الجانب الآخر تبرز ظلال غريبة، وأحجار ومقبرة عالية منتصبة عمودياً، وأعواد خشبية طويلة ثبتت في نهاياتها كرات، وأعلام مختلفة الألوان. (تلك هي قبور الشجعان). وقفت القوات وراء البوابة بانتظام.

وبعد دقيقة توزع الفرسان والقوزاق والمشاة، بابتهاج ظاهر، في الأزقة الملتوية، وسرت الحياة في القرية الخاوية في الحال. هناك تنهار سقوف، وتضرب فأس بشجرة قوية، ويكسر باب خشبي، وهنا تحترق كومة درس، وسياج، وبيت، ويرتفع عمود الدخان في الهواء الصافي. وهذا قوزاقي يخطف كيس طحين وساطاً، وجندي مبتهج الوجه يخرج من بيت طستاً من التنك، وسماً من الأسمال، وآخر يبسط ذراعيه يحاول أن يلتقط دجاجتين ترفرفان قرب سياج في قاقاة، وثالث وجد في مكان ما جفنة حليب، فيشرب منها، ثم يرميها على الأرض في ضحكة صاخبة.

وكانت الكتيبة التي جنت معها من القلعة «ن» في القرية أيضاً.
كان النقيب يجلس على سطح بيت، ويطلق من غليونه القصير
خطوط دخان تبغ السمبراتالي، بعدم اكتراث شديد حتى إنني، حيث
رأيت، نسيت أنني في قرية تربية معادية، بل بدا لي وكأنني في بيتي
تماماً.

ولما لحظني قال:

ها! وأنت أيضاً هنا؟

كانت قامة الملازم الأول روزنكرانتس الطويلة تلوح في القرية تارة
هنا، وتارة هناك، وكان يصدر الأوامر بلا انقطاع، ويتخذ مظهر رجل
مشغول للغاية، وقد رأيت يخرج من بيت بهيئة منتصر، وخرج عقبه
جنديان يسوقان تترياً عجوزاً مشدود الوثاق. كان هذا العجوز الذي لا
يرتدي غير بشفة مهلهل صارخ اللون، وينطلون من الخرق، نحيفاً جداً،
حتى لبدت ذراعاه العظمتان الموثقتان بقوة وراء ظهره على وشك أن
تنخلعا عن كتفيه، ورجلاه الحافيتان الموجتان تتحركان بالإكراه. وكان
وجهه بل وجانب من رأسه الحليق مخددين بأخاديد عميقة، وفمه المعوج
الحالي من الأسنان، المؤطر بشارين مشذبين أشبيين، ولحية شائبة يتحرك
بلا انقطاع، وكأنه يمضغ شيئاً، ولكن البريق ما يزال يلمع في عينيه
الحمراوين المجردتين من الأهداب، واستهانة الشيخوخة بالحياة تلوح
ظاهرة عليه بوضوح.

سأله روزنكرانتس عن طريق الترجمان، لماذا لم يرحل مع الآخرين،
فقال وهو ينظر إلى جانب بهدوء:
- وإلى أين أذهب؟

فذكر أحدهم:

- إلى حيث ذهب الآخرون.

- الفتيان ذوو البأس ذهبوا ليقاتلوا الروس، بينما أنا عجوز.

- وهل من المعقول أنك لا تخاف الروس؟

- وماذا سيفعل بي الروس؟ فأنا عجوز.

قال ثانية، وأجال بصره في استهانة بالحلقة التي أحاطت به.

وعندما عدت شاهدت هذا العجوز حاسر الرأس، موثوق اليدين

ينظر حوله بنفس التعبير اللا مبالي، وهو يترنح وراء سرج قوزاقي من

القوات النظامية. فقد كان العجوز ضرورياً عند مبادلة الأسرى.

صعدت على سطح، واتخذت مجلسي قرب النقيب. وقلت له، وأنا

أريد أن اعرف رأيه في القتال الذي جرى:

- يبدو أن العدو كان قليل العدد.

- العدو؟ - كرر بدهشة - لم يكن له وجود على الإطلاق.

وهل هذا يسمى عدواً؟.. سترى في المساء ما إن نراجع؛ حتى

تراهم يشيعوننا، ويتناثرون في كل مكان! - أضاف مشيراً بغليونه إلى

الغابة الصغيرة التي اجتزناها صباحاً.

- ما هذا؟ - سألت بقلقي، مقاطعاً النقيب، ومشيراً إلى قوزاق الدون

الذين اجتمعوا قرب شيء ما غير بعيد عنا.

وتردد بينهم ما يشبه بكاء طفل، وهذه الكلمات:

- لا، لا تطعنوه... قفوا... سيرون... يوجد سكين، يا

يفستيغيتش!... هات السكين.

قال النقيب بهدوء:

• الأوغاد، يقسمون شيئاً ما.

إلا أن الملازم الثاني الوسيم خرج فجأة في تلك اللحظة من وراء منعطف ملتهب الوجه مذعوراً، واندفع نحو القوزاق مشمراً ذراعيه وصاح بصوت طفولي: لا تسوه، لا تقتلوه!!

ولما رأى القوزاق الضابط انفرج جمعهم، وأطلقوا من أيديهم جدياً أبيض. كان الملازم الثاني الشاب مذهولاً تماماً، يتمتم بشيء ما، وقد توقف أمام الجدي مصعوق السحنة. وحين رأي على السطح مع النقيب، اشتد احمرار وجهه، وركض نحونا ناطاً، وقال وهو يبتسم ابتسامة حيية: ظننت أنهم يريدون قتل طفل.

١٠٠.

سار الجنرال والخيالة في المقدمة. بينما بقيت في المؤخرة الكتيبة التي جنت معها من القلعة «ن». وتراجعت سريتا خلويوف والملازم الأول روزنكرانتس سوية.

وتحقق تكهن النقيب تماماً. فما كدنا ندخل الغابة الصغيرة الضيقة التي ذكرها، حتى راح الجيليون خيالة ومشاة يترامون من كلا الجانبين بلا انقطاع، وعلى مقربة شديدة حتى إنني كنت أرى بشكل جيد أفراداً منهم ينحنون والبنادق في أيديهم، ويتراكضون من شجرة إلى أخرى.

خلع النقيب قبعته، ورسم علامة الصليب بتقوى، وفعل بعض الجنود كبار السن مثله. وتردت في الغابة جمجمة وكلمات «إياي غياورا أوريوس إياي!». وتتابع طلقات جافة قصيرة من بنادق واحدة تلو الأخرى، وأز الرصاص من كلا الجانبين. كان رجالنا يردون صامتين

بنار خاطفة، ومن حين لآخر فقط كانت تردد في صفوفهم ملاحظات من مثل « هو الأبعد*، يضرب من مكان ما . يستفيد من الغاية. أحسن لو كانت المدفعية تطلق... » إلى غير ذلك.

كانت المدافع تدخل في القتال، وبعد عدة قذائف، بدا وكأن العدو أخذ بالضعف. ولكن بعد برهة عادت النار والصيحات والجمجمة تشد مع كل خطوة تخطوها القوات.

وما كدنا نتراجع حوالي ثلثمائة ذراع عن القرية، حتى أخذت قذائف العدو تتطاير فوقنا مرسلة صفيراً، وقد شاهدت قذيفة تقتل جندياً... ولكن ما الحاجة إلى رواية تفاصيل هذه اللوحة الرهيبة، إذا كنت أنا نفسي أتمنى لو أنساها!

كان الملازم الأول روزنكرانتس نفسه يطلق النار من بندقية، وبصرخ بالجنود بصوت مبحوح، ودون انقطاع، وينطلق بأقصى سرعة فرسه من طرف الصف إلى طرفه الآخر. كان ممتقاً قليلاً، وكان ذلك يناسب جداً مسحة وجهه المعارك.

كان الملازم الثاني الوسيم في غاية النشوة، عيناه السرداوان الجميلتان تتألقان جراً، وفمه يفتقر عن ابتسامة خفيفة، وكان يتردد على النقيب باستمرار، ويطلب منه الإذن بالهجوم. وكان يقول بقناعة:

ـ سنصدهم، سنصدهم بالتأكيد.

فكان النقيب يجيب باقتضاب:

ـ لا حاجة. يجب التراجع.

* المقصود في « الأبعد » العدو. المترجم .

كانت سرية النقيب تحتل حافة الغابة، وتتناوش مع العدو متخذة وضع الاستلقاء. وكان النقيب يقف صامتاً في مكان واحد في سترته المستهلكة، وقبعته المحكوك، وقد أرخى عنان فرسه الأبيض، وعكف رجليه على الركابين القصيرين (كان الجنود يعرفون ويقومون بعملهم بشكل جيد لا يدع له حاجة لأن يصدر الأوامر لهم) سوى أنه من حين لآخر يرفع صوته، وهو يصيح على الذين يرفعون رؤوسهم.

لم يكن في شخص النقيب إلا القليل جداً من مظهر المقاتل الميال للحرب، ولكنه كان، بالمقابل، ينطوي على الكثير جداً من الصدق والبساطة، إلى حد أثار في انبهاراً غير اعتيادي، حتى وجدت نفسي أردد في سري «هذا هو الشجاع حقاً».

كان تماماً على مثل ما كنت أراه دائماً: نفس الحركات الهادئة، نفس الصوت المبسط، نفس مسحة الصفاء المرتسمة على وجهه العاطل عن الجمال، والبسيط في نفس الوقت، إلا أن نظرتة الواضحة أكثر من المعتاد كانت وحدها يمكن أن تريك فيه اهتمام رجل يمارس عمله بهدوء. من البساطة القول: كان على مثل ما هو دائماً. ولكن ما أكثر ما كنت ألحظ في الآخرين من مختلف أوجه التباين: أحدهم يريد أن يظهر أكثر هدوءاً مما هو عليه في العادة، وآخر أكثر صرامة، وثالث أكثر مرحاً. ومن وجه النقيب تلاحظ أنه لا يفهم لم هذا التظاهر.

إن الفرنسي الذي قال في واترلو La garde meurt, mais ne se rend pas* والآخرين، ولا سيما الأبطال الفرنسيين الذين كانوا ينطقون بأقوال

* «الفارس يموت ولا يستسلم» (بالفرنسية).

مأثورة جذيرة بالحفظ كانوا شجعاناً، وكانوا، بالفعل، ينطقون بأقوال مأثورة جذيرة بالحفظ، إلا أن هناك فارقاً بين شجاعتهم وشجاعة النقيب، وهذا الفارق هو أن بطلي لا يمكن أن ينطق، وأنا واثق من ذلك، بأية كلمة عظيمة، مهما تكن المناسبة، وحتى لو حركت لواعج نفسه. ذلك، أولاً، لأنه لو نطق بهذه الكلمة العظيمة فإنه سيخاف أن يفسد بها قضيته العظيمة، وثانياً لأن الإنسان، حين يشعر في نفسه القوة على الإتيان بعمل عظيم، فليس من حاجة إلى أية كلمة مهما تكن. وهذه، حسب رأيي، خصلة رفيعة منفردة للشجاعة الروسية، فكيف لا يتألم قلب الروسي، بعد هذا، حين تتردد بين مقاتلينا الشبان عبارات فرنسية وضیعة تدعي محاكاة الفروسية الفرنسية القديمة؟...

فجأة ترددت «هورا» خافطة غير منتظمة في الجانب الذي كان يقف فيه الملازم الثاني الوسيم مع مفترزه. التفت على هذه الصيحة، فرأيت حوالي ثلاثين جندياً يتراکضون بصعوبة شديدة في حقل محروث والبنادق في أيديهم، والأكياس على أكتافهم. كانوا يتعشرون، ولكنهم كانوا يواصلون الزحف إلى الأمام، ويصيحون.

وكان الملازم الثاني الشاب يعدو على فرسه في مقدمتهم، وقد جرد سيفه.

واختفى كل شيء في الغابة...

وبعد بضع دقائق من الجمجمة والقرقعة، خرج من الغابة حصان مذعور، وظهر في طرف الغابة جنود يحملون قتلى وجرحى، وكان الملازم الثاني الشاب بين الآخرين، كان جنديان يسندان من تحت إبطيه. كان شاحباً كالقماشة البيضاء، ورأسه الجميل قد غار بين كتفيه بشكل

غريب، وتدلّ على صدره، ولم يبق غير ظل من تلك النشوة القتالية التي كانت تشيع فيه الحماس قبل لحظة. كانت لطفة دم صغيرة تلوح على قميصه الأبيض تحت السترة المحلولة الأزرار.
- آوه، يا خسارة!

وجدت نفسي أقول ذلك، وأشحت بوجهي عن هذا المنظر المحزن.
- خسارة، بالطبع. قال جندي عجوز كان يقف بالقرب مني جهم المحيا، يسند مرفقه على بندقيته. لا يخاف شيئاً، وكيف يجوز هذا! -
أضاف وهو يتفرس في الجريح. ثم إنه أحمق، فدفع الثمن.
سألته: وهل أنت تخاف حقاً؟
- وكيف لا!

- ١١ -

حمل أربعة جنود الملازم الثاني على نقالة، وخلفهم ساق جندي حصاناً أعجف محطماً يزرع تحت ثقل صندوقين أخضرين يحتويان على لوازم مساعد طبيب. وكانوا في انتظار مجيء الطبيب. وكان الضباط يقتربون من النقالة، ويحاولون التسرية عن الجريح.
اقترب الملازم الأول روزنكرانتس، وقال بابتسامة:
- حسناً، يا أخ الأثنين، أماننا متسع من الوقت لنعود إلى الرقص على نقر الملاعق الخشبية.

ولعله افترض أن كلماته هذه ترفع همة الملازم الثاني الجريح، إلا أنها لم تحقق المرجى منها، على قدر ما كان من الممكن ملاحظته من التعبير الحزين البارد في نظرة الجريح.

وأقبل النقيب أيضاً على فرسه. تفرس في الجريح، ولاح أسف صادق على وجهه الرصين غير المكترث على الدوام.

- ما هذا، يا عزيزي أناتولي ابفانوفيتش؟ - قال بصوت يفيض بمشاركة عاطفية رقيقة لم أتوقعها - يبدو أنها مشيئة الله.

التفت الجريح، وانتعش وجهه الشاحب بابتسامة آسية :
- نعم، لم أسمع كلامك.

فكرر النقيب قائلاً:

- الأفضل أن تقول: هذه مشيئة الله.

وصل الطبيب، وتناول من مساعدته الضمادات والمسبر واللوازم الأخرى، وتقدم من الجريح بابتسامة مشجعة، وهو بطوي كميته. وقال بلهجة مازحة مهونة:

- يعني أنت أيضاً صنعوا لك ثقباً في موضع سليم. هيا، أرني.

وامتثل الملازم الثاني، ولكنه نظر إلى الطبيب المرح نظرة انطوت على دهشة وعتاب لم يلحظهما هذا الأخير. وبدأ الطبيب يسبر الجرح، ويفحصه من جميع الجهات، إلا أن الجريح دفع يده بأنيث ثقیل، وقد فقد قدرته على التحمل. وقال بصوت لا يكاد يسمع:
- اتركني، سأموت على أية حال.

وبهذه الكلمات سقط على ظهره، وبعد خمس دقائق، حين تقدمت من الجماعة التي التفت بالقرب منه، وسألت أحد الجنود «كيف الملازم الثاني؟» أجابني بأنه «يحتضر».

كان الوقت متأخراً، حين اقتربت الفصيلة من القلعة في طابور عريض، وهي تنشد الأغاني.

اختفت الشمس وراء الجبال الثلجية، تلقي أشعتها الوردية الأخيرة على غيمة خفيفة طويلة ظلت على الأفق الصافي الشفاف. وأخذت الجبال الثلجية تتوارى في ضباب ليلكي، وخطها الأعلى وحده كان يرتسم بوضوح شديد في ضوء الشفق الأرجواني. وأخذ الهلال الشفاف الذي طلع منذ وقت طويل يلوح أبيض على زرقة السماء الداكنة. خضرة العشب والأشجار تبدو سوداء، متسريلة بالندى. كانت كتل القروات المعتمنة تضج ضجيجاً مسالماً، وتتحرك في مرجة أثينة، وترددت أصوات الدفوف والطبول والأغاني المرحية من مختلف الجهات. وكان منشد السرية السادسة يصدح بأعلى صوته، ورنات صوته الصدري الصافي تنداح بعيداً في الهواء المسائي الشفاف مفعمة بالعاطفة والقوة.

١٨٥٢

الفارسان رواية قصيرة

مهداة إلى الكونتيسة م . ن . تولستايا

« . . . جوميني ، جوميني ،
لا تأت على الفودكا بذكر . . . »
د . دافيدوف

في الثمانينات من القرن الثامن عشر، حين لم تكن هناك سكك حديدية ولا طرق عامة، ولا ضوء غاز، ولا شموع الستيارين، ولا أرائك واطئة لها نوابض، ولا أثاث بدون ورنيش، ولا شبان خائبو الأمل ذوو نظارات أنفية، ولا فيلسوفات ليبراليات، ولا غادات كاميليا رقيبكات ممن تكاثرن هذه الكثرة في زمننا، في تلك الأوقات الساذجة، حيث كان يستغرق السفر من موسكو إلى بطرسبورغ ثمانية أيام بلياليها في عربة خاصة أو عامة مثقلة بمطبخ كامل من الزاد البيتي، في طريق مترب ناعم أو موحل، حيث يسلم المسافر أمره إلى الكفتة المقلية، وأجراس فلداي والكعك المدور، وحين توقد الشموع الشحمية في الأمسيات الخريفية

الطويلة، مضئة الحلقات العائلية المؤلفة من عشرين وثلاثين في الحفلات الراقصة المضاء بالشمعدانات من قناديل الشمع أو زيت الحوت العنبري، حين كانت الأثاث توزع هندسياً، وآباؤنا ما زالوا شباناً ليس فقط بخلوهم من التجاعيد والشعر الأشيب، بل وتبارزهم من أجل النساء، ووثوبهم من ركن في الغرفة إلى الآخر ليرفعوا مناديل سقطت مصادفة أو تعمداً، وأمهاتنا يلبسن ثياباً عالية الخصر عريضة الأكمام، ويحسمن كل شؤون العائلة بكشف الورق، وحين كانت غادات الكاميليا الفاتنات يتخفين من نور النهار. في تلك الأوقات الساذجة، أوقات المقاصر الماسونية، وأتباع سان مارتن وتوغندبون، في زمن ميلورادوفيتش، ودافيدوف وبوشكين انعقد في مدينة ك... حاضرة الولاية مؤتمر لأصحاب الأطيان انتهى بانتخابات الأشراف.

١٠.

طبيب، لا بأس، وليكن في الصالة، قال ضابط شاب في معطف فرائي، وقبعة فرسان نزل لتوه من زلاجة سفر، وهو يدخل أحسن فندق في مدينة ك.

المؤتمر، يا مولاي، يا صاحب اللياقة، ضخم، كان الخادم موزع الغرف يقول وقد عرف من المرافق أن الفارس يدعى الكونت تورين، ولهذا كرمه بلقب «صاحب اللياقة». وقد وعدت صاحبة ضيعة أفرموفسكوي أن ترحل مع بناتها عند المساء.

ولكم أن تتفضلوا بالنزول في الغرفة رقم ١١، حالما تفرغ، وكان يتكلم برقة متراجعا في المر أمام الكونت، داتم التلفت.

وفي الصالة العامة كان بضعة أشخاص، هم في أغلب الظن نبلاء من أهل هذه الأنحاء يجلسون إلى مائدة صغيرة أمام زجاجة شمبانيا، على مقربة من صورة مسودة تمثل الإمبراطور الكسندر بطول قامته، بينما جلس في ناحية عنهم تجار مسافرون في معاطف فرائية زرقاء.

وحين دخل الكونت الصالة دعا «بليوخر»، وهو كلب صيد ضخّم رمادي كان يرافقه في سفره، وألقى معطفه الذي ما يزال الجمد عالقاً في ياقته وطلب شيئاً من الفودكا، وبقي في صدره الأطلسي الأزرق، وجلس إلى المائدة، ودخل في حديث مع السادة الجالسين هناك، والذين جذبهم على الفور مظهر القادم الجميل المكشوف، فعرضوا عليه قدح شمبانيا. شرب الكونت قدح الفودكا في البداية، ثم طلب أيضاً زجاجة ليستضيف معارفه الجدد. جاء الحوذي يطلب نقوداً لشراء الفودكا. صاح الكونت: . ساشكا، أعطه!

خرج الحوذي مع ساشكا، وعاد من جديد، يضع النقود على يده. . ما هذا، يا مولاي، أظنني خدمتك حسب الأصول! فوعدتني بنصف روبل، ولكنهم أعطوني الربع. . ساشكا! أعطه نصف روبل.

أطرق ساشكا ببصره، ونظر إلى قدمي الحوذي، وقال بصوت خشن: . يكفيه هذا. كما لا توجد فلوس عندي. تناول الكونت من محفظة نقوده ورقتين زرقاوين كانتا الوحيدتين فيه، وأعطى واحدة للحوذي الذي قبل يده، وخرج. قال الكونت: . إلى هذا الحد وصلت. آخر خمسة روبلات. . على طريقة الفرسان، يا كونت، . قال أحد النبلاء مبتسماً وكان

يبدو من سلاح الفرسان المتقاعدين بما توحى به شارباه وصوته، وطلاقة قدميه الحيويتين. - أنتوي البقاء طويلاً هنا، يا كونت؟

- يجب الحصول على نقود، وإلا لن أبقى. كما لا توجد غرف شاغرة هنا. تخطفهم الشيطان في هذه الحانة الملعونة...

فيبادر الفارس المتقاعد يقول:

- ألا تحب، يا كونت، أن تفضل عندي؟ هنا، في الغرفة رقم ٧. اقض ليلتك عندي مؤقتاً، إذا كنت لا تستنكف. ستمكث عندنا ثلاثة أيام. واليوم ستقام حفلة راقصة في بيت عميد الأشراف. وسيكون العميد مسروراً بك!

فأيده أحد المسامرين، وهو شاب وسيم، إذ قال:

- بالفعل، يا كونت، أقم عندنا. فما حاجتك إلى العجالة؟ فالانتخابات تحصل مرة كل ثلاث سنوات. على الأقل لو تمتعت نظرك في أوانسنا، يا كونت؟ قال الكونت ناهضاً:

- ساشكا! قدم البياضات، سأغتسل في الحمام. وبعد ذلك سنرى، قد أذهب بالفعل إلى عميد الأشراف.

ثم استدعى النادل، وتكلم معه عن شيء ما، فكشر النادل، وأجاب - «بالطبع، كل شيء تطوله بد الإنسان»، وخرج.

وصاح الكونت من وراء الباب:

- إذن، يا عزيزي، لقد طلبت نقل حقيبتني إلى غرفتك.

- تفضل، ستسعدني، غرفة رقم ٧! لا تنس.

ولما تلاشى وقع خطاه عن السماع عاد الفارس إلى مكانه وجلس بالقرب من الموظف، ونظر إلى وجهه بعينين باسمتين، وقال:

• إنه ذلك الرجل بعينه.

• صحيح؟

• خذها كلمة مني. إنه نفس الفارس المبارز، تورين، الشهير. وقد عرفني، أراهن على أنه عرفني. وكيف وقد تنادنا سوية في ليبديان ثلاثة أسابيع دون انقطاع، حين كنت في مهمة شراء الخيول. وقد حصل لنا حادث، وقعنا فيه سوية. ولهذا تراه يتغاضى عني فلا يعرفني. ولكنه فتى شاطر، ها؟

أجاب الشاب الوسيم:

• شاطر. وكم هو لطيف المعشر! لا يظهر عليه شيء، وتآلفتما بسرعة... أظنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

• لا، هذا ما يبدو للعيان، ولكنه أكبر سناً. ثم يجب أن تعرف من هو؟ من اختطف ميغنوفا؟ هو. وهو الذي قتل سابلين. وأنزل ماتنيف ماسكاً برجله من النافذة. وهو الذي ربح من نيستروف ثلاثمئة ألف روبل. ذلك هو، طائش نزقاً مقامر، مبارز، غاو. ولكنه فارس في معدنه، معدن أصيل. الناس تعرفنا بالاسم فقط، فليت أحداً منهم يفهم ما يعني الفارس الأصيل، آه، يا لذلك العهد القديم!

وحكى ضابط الخيالة لمحدثه كيف قضى مع الكونت في ليبديان مجلس شرب وقصف لبس فقط لم يكن له مثيل، بل ولا يمكن أن يكون. ولا يمكن أن يكون أولاً لأنه لم يكن قد رأى الكونت من قبل، واستقال من الجيش، قبل دخول الكونت إليه بسنتين، وثانياً لأن ضابط الخيالة لم يخدم قط في سلاح الفرسان، بل خدم أربعة أعوام طالب عسكرية متواضعاً في فوج بيلفسكي، وما كان يترقى إلى ضابط برتبة ملازم ثان

حتى تقاعد. ولكنه حين حصل على ميراث، قبل عشرة أعوام سافر، بالفعل، إلى ليبديان، ودد على الشراب والملاذات سبعمانه روبل مع الضباط المكلفين بشراء الخيول، وفصل لنفسه بزة أولان، بطية ردن برتقالية ليدخل سلاح الأولان. وبقيت في نفسه الرغبة في الانضمام إلى سلاح الخيالة، والأسابيع الثلاثة التي قضاها مع مشتري الخيول في ليبديان أبهج وأسعد فترة في حياته، حتى إن هذه الرغبة حولها، في البداية، إلى واقع، حتى صار يؤمن إيماناً قوياً بماضيه الفروسي، وهو شيء لم يعقه عن أن يكون في رقة القلب والنزاهة رجلاً معترفاً عن حق.

نعم، من لم يخدم في سلاح الفرسان لن يفهم جماعتنا. - وامتنطي المقعد كما يمتطي حصاناً، ودفع فكه الأسفل، وأخذ يقول بصوت عالي النبرة. أحياناً أسير أمام الكوكبة، ممتطياً شيطاناً قفازاً لا فرساً، أجلس، كالشيطان نفسه. فيتقدم أمر الكوكبة في التفتيش. ويقول: «يا ضابط، أرجوك، اعتمادنا عليك. سر بالكوكبة للاستعراض». فأقول: حسناً، وأصعد بالأمر! وأدور، وأصيح، على رجالي المشوريين. آه، اللعنة، أي زمن كان!

عاد الكونت من الحمام محمراً بكليته، مبلل الشعر، واتجه قدماً إلى الغرفة رقم ٧، حيث رأى ضابط الخيالة جالساً في رويه البيتي، يدخن غليون، ويفكر باستمتاع وبشيء من الفزع أي مصادفة حسنة تلك التي دفعت به إلى أن يعيش مع توربين الشهير في غرفة واحدة، وكان يفكر في سره: «طيب، ماذا لو يسكنني فجأة، ويعرني ويأخذني إلى ما وراء السدة، ويجلسني على الثلج، أو يطينني بالقطران أو مجرد ... لا. - كان يسري عن نفسه. لن يفعل احتراماً للرفقة».

صاح الكونت:

- ساشكا، اطعم بليوخر!

ظهر ساشكا، وكان قد شرب في الطريق قذح فودكا، وثمل بشكل

معتبر.

- لم تصطبر، وشريت، يا رذيل!... اطعم بليوخر!

أجاب ساشكا، وهو يمسد الكلب:

- لا يموت جوعاً خلال هذه الفترة. أنظر، كيف هو سلس.

- اسكت، ولا ترد! اذهب وأطعمه.

- أنت لا يهمك إلا أن يكون الكلب شبعان. أما إذا شرب الإنسان

قدحاً وقعت عليه باللوم والتقريع.

- إش، سأضريك! - صاح الكونت بصوت جعل زجاج النوافذ يرن، بل

وأدخل بعض الرعب في قلب ضابط الخيالة.

- كان الأخرى بك أن تسأل هل أكل ساشكا اليوم شيئاً.

تفضل، اضريني، إذا كان الكلب أعز عليك من الإنسان، - قال

ساشكا ذلك، إلا أنه تلقى في الحال ضربة رهيبة على وجهه بجمع اليد،

أوقعته أرضاً، وارتنطم رأسه بقائمة السرير. وثب ساشكا إلى الباب

ماسكاً أنفه بيده، وانهد على صندوق في الممر.

- حطم أسناني، - تتم ساشكا، ماسحاً أنفه المدمى بيد، حاكاً

بالأخرى ظهر بليوخر الذي كان يلعقه، - حطم أسناني. ومع ذلك فهو

سيدي الكونت. وفي سبيله أرمي نفسي في النار لأنه سيدي الكونت،

أتفهم، يا بليوخر؟ هل أنت جوعان؟

استلقى قليلاً، ونهض، وأطعم الكلب، وذهب صاحياً تقريباً، يخدم

سيده الكونت، ويعرض عليه الشاي.

قال ضابط الخيالة بتهيب، وهو واقف أمام الكونت الذي كان مستلقياً على فراش الضباط، واضعاً قدميه على قائمة السرير:

. أنت تخرجني حقاً. فأنا أيضاً، كما يمكن أن أقول، محارب قديم ورفيق. ومستعد أن أقدم لك مائتي روبل بسرور بدلاً من أن تستدين من أحد ما. ولكن ليس في حوزتي هذا المبلغ الآن. عندي مائة روبل إلا أنني سأحصل عليه اليوم. أنت تخرجني حقاً، يا كونت!

. شكراً، شكراً. قال الكونت، وقد حدس على الفور نوع العلاقة الذي كان يجب أن ينشأ بينهما، مرتباً على كتف الضابط، . شكراً، إذا كان الأمر كذلك فسنذهب إلى الحفلة الراقصة أيضاً. أما الآن فماذا سنفعل؟ حدثني ماذا عندكم في المدينة: هل هناك جميلات؟ هل هناك من يشرب ويمرح؟ ومن يلعب الورق؟

أوضح ضابط الخيالة أن الحفلة الراقصة ستكون غاصة بالجميلات، وأن أمر الشرطة كولكوف المنتخب مجدداً أكثر الناس ولعاً بالشرب والمرح، ولكنه يفتقر إلى جرأة الفارس الأصيل، سوى أنه لطيف طيب، وأن فرقة إليوشكا الفجرية للغناء تغني هنا منذ بداية الانتخابات، وأن ستشكا ستغني، وأن الجميع سيذهبون إليها اليوم بعد حفلة العميد.

ثم راح يقول:

. أما لعب الورق ففي حالة معتبرة. لوخونوف الزائر يلعب بالنقود، أما إيلين الذي يسكن الغرفة رقم ٨، وهو ضابط أولاني*، فيخسر الكثير أيضاً. وقد بدأ الدورة بالفعل. في كل مساء يلعب، وما أروعه، وأطفه، خذها كلمة صدق مني يا كونت.

* أولان : سلاح خيالة كان في الجيش القيصري ، وبعض الجيوش الأخرى كان أفرادها في بادئ الأمر مسلحين بالرماح . المترجم .

وإيلين هذا لا يبخل بشيء، يعطي آخر قميص له.

قال الكونت:

- إذن، لنذهب إليه. ولنر أي إنسان هو.

- لنذهب، لنذهب! سيكون في غاية السرور.

٢٠.

كان الضابط الأولاني إيلين قد استيقظ منذ وقت قصير. وكان في عشية البارحة قد جلس إلى طاولة اللعب في الساعة الثامنة مساءً، وظل يلعب طوال خمس عشرة ساعة متوالية، حتى الحادية عشرة صباحاً. وقد خسر كثيراً، ولكنه لا يعرف كم على وجه التحديد، فقد كان لديه حوالي ثلاثة آلاف من نقوده الخاصة، وخمسة عشر ألف روبل حكومية كان قد خلطها مع نقوده منذ زمان، وكان يخاف أن يجرد الحساب خشية أن يتيقن مما كان يهجمه، فيعرف كم خسر من نقود الحكومة أيضاً، وغط، عند الظهر، في نوم ثقيل بلا أحلام، ولا ينامه إلا شاب في مقتبل العمر، وبعد خسارة جسيمة. استيقظ في الساعة السادسة، في نفس الوقت الذي وصل فيه الكونت توربين إلى الفندق، ورأى حوله على الأرض ورق لعب وطبشوراً، وطاولات ملطخة في وسط الغرفة، فتذكر بذعر لعب البارحة، والورقة الأخيرة - الولد الذي جعله يخسر خمسمائة روبل، ولكنه، وهو ما يزال لا يعي الواقع جيداً، أخرج النقود من تحت الوسادة، وأخذ يعدّها. وعرف الأوراق النقدية التي تداولتها الأيدي مرات عديدة وتذكر سير اللعب كله. آلاف الثلاثة لم تعد في الوجود، كما أن الأموال الحكومية نقصت ألفين وخمسمائة روبل.

فقد ظل الضابط الأولاني يلعب القمار أربع ليال متتالية. وكان قد قدم من موسكو، حيث تسلم النقود الحكومية. وفي مدينة ك. أخره ناظر محطة الخيول متحججاً بأن ليس لديه خيول يستبدلها بخيوله، ولكنه في حقيقة الأمر، بناء على تواطؤ مع صاحب الفندق لتأخير المسافرين يوماً واحداً. وقد سر الأولاني بأن يمكث بضعة أيام في مدينة ك. أثناء الانتخابات، وهو الفتى البافع، الممرح الذي تسلم لتوه من والديه في موسكو ثلاثة آلاف روبل لسد احتياجاته في الفوج، فقد كان يأمل بأن ينال من المرحلة مبتغاه. وكان له صاحب هو مالك أراض ورب عائلة، فتهياً للذهاب إليه، ومغازلة بناته، وإذا بضابط الخيالة يظهر، وتعارف مع الأولاني في نفس المساء وبدون أية نية سيئة قاده إلى الصالة العامة وعرفه على لوخنوف والمقامرين الآخرين من معارفه. ومنذ ذلك المساء جلس الأولاني إلى مائدة القمار، ولم يذهب لزيارة صاحبه مالك الأراضي، بل ولم يعد يسأل عن تزويده بالخيول، ولازم الغرفة أربعة أيام.

لبس الأولاني ملابسه، وشرب الشاي، ودنا من النافذة. كان يود لو يتمشى حتى يطرد ذكريات اللعب الدوارة في ذهنه. لبس معطفه، وخرج إلى الشارع. كانت الشمس قد احتجبت وراء الببوت البيضاء ذات السقوف الحمراء، وهبط الغسق. وكان الجو دافئاً.

وكانت ندف الثلج الرخو تسقط بهدوء على الشوارع الموحلة. وفجأة شعر الأولاني بكآبة لا نطاق من التفكير بأنه نام طيلة هذا النهار الآفل. وفكر في نفسه: «هذا اليوم الذي انتهى لن يعود أبداً».

وقال لنفسه فجأة: «أتلقت شبابي». - لا لأنه كان يعتقد فعلاً بأنه

أُتلفت شبابه - فهو منذ زمن بعيد لم يفكر في ذلك قط - بل لأن هذه العبارة خطرت في ذهنه.

وأخذ يفكر: «ماذا سأفعل الآن؟ أن أستدين من أحد وأرحل» - مرت عادة على الرصيف. وفكر بدون أي سبب: «هذه عادة بلهاء، ليس لي من أستدين منه. لقد أُتلفت شبابي». تقدم من صفوف الدكاكين. كان أحد التجار في معطف من فراء الثعلب يقف عند دكانه، يدعو المشتري إليه.. «لو لم أسحب ورقة الثمانية لأسترجعت خسارتي». ولولت متسولة عجوز متعقبة إياه. «ليس لي من أستدين منه». مر سيد في معطف من فراء الدب. شرطي الحراسة واقف في كشكه. «علام أقدم لأثير الانتباه؟ أطلق النار على الناس؟ لا، شيء مضجر! أُتلفت شبابي. آه، أي مشدات رائعة وعدة خيول تعرض للبيع. ليتني أركب عربية ثلاثية الحبول وأقول لها يا أعزائي! أعود إلى البيت. بعد قليل سيأتي لوخنوف، وسنلعب». عاد إلى البيت، وعد النقود مرة أخرى. لا، إنه لم يخطئ في عدها أول مرة. تبقت أن الناقص ألفان وخمسمائة روبل من أموال الدولة في هذه المرة أيضاً. «سأراهن بخمسة وعشرين روبلاً أولاً، ثم زاوية في الرهان الثاني... على سبعة مكاسب، على خمسة عشر، على ثلاثين، على ستين... ثلاثة آلاف. وأشتري المشدات، وأرحل. ولكن الوغد لن يدعني! أُتلفت شبابي». كان ذلك ما يدور في رأسه حين جاء لوخنوف إليه فعلاً:

- هل استيقظت منذ زمان، يا ميخايلو فاسيليتش؟

سأله لوخنوف، وهو يرفع النظارة الذهبية من أنفه اليباس بتباطؤ، ويمسحها في عناية بمندبل حريري أحمر.

.. لا ، الآن فقط . نمت نوماً ممتازاً .

.. جاء ضابط من سلاح الفرسان ، ونزل عند زافا لشيفسكي ... ألم تسمع بذلك ؟

.. لا ، لم أسمع ... ماذا ؟ لم يأت أحد بعد ؟

.. ذهبوا إلى برياخين ، على ما يبدو . سيأتون حالاً .

وبالفعل سرعان ما دخل الغرفة ضابط الحامية الذي كان يلزم لوخنوف دائماً ، وتاجر يوناني ذو أنف ضخمة محدب بني اللون ، وعينين سوداوين غائبتين ، ومالك أراض بدين مترهل ، صاحب مصنع ، ويقامر لنيالي بطولها ، وبراكن بنصف رويل دائماً . كان الجميع يودون أن يبدأ اللعب بأسرع وقت ، إلا أن اللاعبين الرئيسيين لم يشيروا بشيء إلى هذا الموضوع ، لا سيما لوخنوف الذي كان يتحدث بهدوء بالغ عن الاحتيال في موسكو . فكان يقول :

.. تصوروا موسكو حاضرة العرش الأولى ، العاصمة ، بينما يجوب فيها النصابون في الليالي مسلحين بالكلاليب ، متزيين بزّي العقاريت ، ويرعبون الرعا ، ويسلبون المارة ولا شيء يحصل . فماذا تراقب الشرطة ؟ هذا الذي يصعب على الفهم .

استمع الأولاني إلى الحديث عن المحتالين بانتباه ، ولكنه نهض في نهايته ، وطلب أوراق اللعب خلسة . وكان مالك الأراضي البدين أول المبادرين ، إذ قال :

.. بالطبع ، يا سادة . لماذا نضيع الوقت الذهبي هدرًا ، إلى العمل ، إلى

قال اليوناني :

هذا يعجبك طبعاً، ما دمت يوم أمس كنت تبحر الفلوس أنصاف رويلا.

قال ضابط الحامية:

حان الوقت حقاً.

نظر إيلين إلى لوخوف. فتابع هذا، وهو ينظر إليه، يحكي بهدوء عن المحتالين في زي عفاريت لها مخالب. سأل الأولاني: ألا نبداً؟

أليس مبكراً؟

بيلوف! - صاح الأولاني وقد احمر لسبب ما، اجلب لي غدائي... لم أكل شيئاً حتى الآن، يا سادة... واجلب شمبانيا، وقدم شدة ورق. في تلك اللحظة دخل الغرفة الكونت وزافا لشيفسكي. وتبين أن تورين وإيلين في فرقة واحدة. وتصاحبا في الحال، وقرعا كأسيهما وشربا الشمبانيا، وبعد خمسة دقائق رفعاً بينهما الكلفة، وتخطبا بضمير المفرد وأعجب الكونت بإيلين إعجاباً شديداً كما يبدو. فكان دائم الابتسام، وهو ينظر إليه، ويمارحه بشبابه. وكان يقول:

أي أولاني في غضارة الصبا! وأي شارين، شارين!

وحتى زغب الشعر البارض على شفة إيلين العليا كان أبيض تماماً. قال الكونت:

أظنك تستعد لأن تقامر؟ أوه، أرجو أن تريح، يا إيلين!

وأضاف مبتسماً: أظنك ماهراً!

أجاب لوخوف، وهو يمزق شدة الورق:

نعم، يستعدون. وأنت، ألا تتلطف بالانضمام إلينا؟

لا، لا أريد اليوم. وإلا لجعلتكم جميعاً تتحسرون. ما إن أُلعب حتى تمتلئ الحزنة لي! ليس لي ما أُلعب به، فقد خسرت في المحطة قرب فولوتشوك. التقيت هناك بواحد من مشاتي بزين أصابعه بخواتم، أظنه، صاحب أحييل في اللعب.

سأل إيلين:

ـ وهل مكثت وقتاً طويلاً في المحطة؟

ـ مكثت اثنتين وعشرين ساعة. ستنحفر في ذاكرتي هذه المحطة، كما أن ناظرها لا ينساني أيضاً.

ـ وما الذي حصل؟

ـ أصل إليها، فيشب ناظر المحطة طالعاً بوجه وغد نصاب ويقول: لا خيول عندي، بينما، يجب أن أقول لك إن لي قانوني.

وهو إذا لم تكن هناك خيول أتوجه دون أن أدخل فروتي، إلى غرفة ناظر المحطة، لا إلى غرفة مكتبه، بل إلى غرفته الخاصة، وأمره بأن يفتح جميع مصاريع الأبواب والنوافذ، وكأنا في الغرفة غاز الفحم المحترق. وهذا ما فعلته في هذه المرة أيضاً. وأنت تذكر شدة البرودة التي كانت في الشهر الماضي، عشرين درجة تحت الصفر. وأخذ ناظر المحطة يحتج، ولكنني أوقفته عند حده بضربة على أسنانه. وجاءت عجوز، وفتيات، وأخذت النسوة بصوصثن، والتقطن القذور وهولن إلى القرية... فوقفت في طريقهن على الباب، وأقول: هاتوا خيولاً، وسأذهب، وإلا فلن أدع أحداً، وستتجمدون جميعاً.

قال مالك الأراضي المترهل، وقد انفجر ضاحكاً:

ـ هذه هي الطريقة الممتازة. وبهذا الشكل تجمد الصراير.

- ولكنني لم ألزم حراسة عليهم، وخرجت، فهرب الناظر مني مع نسوانه. وبقيت العجوز وحدها رهينة عندي. ظلت تسعل على سطح الموقد، وتصلي للرب. وبعد ذلك أجرينا مفاوضات. جاء ناظر المحطة، وراح يتوسل من بعيد أن أطلق سراح العجوز، فكنت أستعدي عليه كلبى بليوخر الذي كان ينفر من ناظر المحطة تماماً.

وهكذا لم يعطني الوغد الخيول إلا في صباح اليوم التالي. وفي هذه الأثناء، جاء ضابط المشاة هذا. ذهبت إلى الغرفة الثانية، وأخذنا نلعب. هل رأيتم بليوخر، بليوخر.. تعال.

جاء بليوخر راكضاً. وتحمس اللاعبون له، وإن كان يبدو أنهم كانوا يريدون التحمس لشيء مختلف تماماً. قال توربين:

- على أي حال، لماذا لا تلعبون، يا سادة؟ أرجو أن لا أعيقكم عن اللعب. فأنا مهذار. «أحبك، ما أحبك». - لعبة جميلة.

٣.

قرب لوخنوف شمعتين منه، وأخرج محفظة ورقية بنية ضخمة مملوءة بأوراق النقد، وفتحها على الطاولة ببطء وكأنما يمارس إحدى الشعائر الغامضة، وأخرج منها ورقتين نقديتين من فئة المائة روبل، ووضعها تحت شدة ورق اللعب. وقال وهو يعدل نظارته، ويفض شدة الورق الجديدة:

- الرهان الأول بمائتي روبل، كما في يوم أمس.

- طيب، قال إيلين دون أن ينظر إليه، أثناء حديثه مع توربين.

وجرى اللعب. كان لوخنوف يفرق الورق بوضوح، كالماكينة، ويتوقف من حين لآخر، مسجلاً بتؤدة، أو يتطلع بحدة من فوق نظارته، ويقول

بصوت خافت: «سلموا». كان مالك الأراضي البدين يتحدث أعلى من الجميع، ويلطخ أصابعه المنتفخة، وهو يعكف زوايا الورق. وكان ضابط الحامية يسجل النقاط تحت أوراقه بصمت وجمال، ويعكف زوايا صغيرة منها تحت الطاولة. وكان اليوناني يجلس جنب مدير اللعبة، ويتابع بعينيه السوداوين الغائصتين اللعبة بعناية، منتظراً شيئاً ما. وكان زافا لشفيسكي واقفاً عند الطاولة فإذا بحركة فجائية تعثره بكليته، ويخرج من جيب بنطلونه ورقة نقدية حمراء أو زرقاء ويضع فوقها ورقة، ويرت عليها بكفه، ويقول: «أنقذيني، يا سبعة!» وبعض شاربه، ويقف على رجل بعد أخرى، ويحمر وتشيع الحركة في جسمه كله حتى تخرج تلك الورقة. وكان إيلين يأكل صحن لحم عجول مع الخباز، وضعه قربه على الأريكة المحشوة بشعر الخيل. مسح يديه بسترته على عجول ووضع ورقة وراء أخرى. وكان تورين جالساً على الأريكة، في البداية، ففطن إلى الأمر فوراً. كان لوخنوف لا ينظر إلى الأولاني مطلقاً، ولا يتكلم معه بشيء. سوى أنه كان يصوب نظارته أحياناً، وللمحظة، إلى يدي الأولاني، فكانت أوراق هذا تخسر في الغالب.

- ليتني أسقط هذه الورقة! - قال لوخنوف عن ورقة مالك الأراضي

السمين، الذي كان يراهن بنصف رويل.

وكان صاحب الأطيان يقول:

- اضرب أنت ورق إيلين، فما دخلي أنا في ذلك؟

وبالفعل، كانت أوراق إيلين تضرب أكثر من أوراق الآخرين.

فكان يمزق الورقة الخاسرة تحت الطاولة بعصبية، ويختار أخرى

بيدين مرتجفتين. نهض تورين من الأريكة، وطلب من اليوناني أن يدعه

يجلس قرب مدير اللعب. جلس اليوناني في مكان آخر، وجلس الكونت في مكانه، وراح يراقب يدي لوخنوف دون أن يصرف بصره عنهما.
إيلين! قال فجأة بصوته الاعتيادي الذي غطى على أصوات الآخرين تماماً دون أن يتقصد ذلك. لماذا تستعمل ورقة واحدة دائماً؟ أنت لا تعرف كيف تلعب.

سيان عندي الآن مهما لعبت.
بهذه الطريقة ستخسر في أغلب الظن. دعني ألعب معك قليلاً.
لا، وأرجو المعذرة. أنا دائماً ألعب بنفسني. اللعب لنفسك، إذا شئت.
قلت لك لن ألعب لنفسني، ولكن أريد أن ألعب لك. يزعجني أنك تخسر.

هكذا شاء القدر، كما يبدو!
صمت الكونت، واتكأ على مرفقيه، وعاد يحدق ثانية في يدي مدير اللعبة.

لؤم! قال بصوت عال ممطوط.
نظر لوخنوف إليه:
لؤم، لؤم! قال بصوت أعلى وهو ينظر في عيني لوخنوف.
واستمر اللعب:
قد... يا... حة! عاد تورين يقول، حالما أصاب لوخنوف ورقة كبيرة لايلين.

سأل مدير اللعبة باحترام ولا اكتراث:
ما الذي لا يعجبك، يا كونت؟

. الطريقة التي تريح بها وتخسر. ذلك هو اللزم بعينه.
 حرك لوخنوف كتفيه وحاجبيه حركة خفيفة، وكأنه يقول . القدر
 يتحكم بكل شيء وتابع اللعب.
 صاح الكونت وهو ينهض:
 . بليوخر، تعال . وأضف بسرعة . إليك به!
 ارتطم الكلب بالأريكة بظهره، وكاد يوقع ضابط الحامية، وقفز من
 هناك، وركض إلى صاحبه، وراح يهر، وينظر إلى الجميع محركاً ذيله،
 وكأنه يقول: «من المسمى هنا؟ ها؟»
 وضع لوخنوف ورق اللعب، وأزاح كرسيه جانباً. وقال:
 . لا يمكن اللعب بهذا الشكل. أنا لا أحب الكلاب كلياً. وأي لعب
 إذا كانت في الغرفة مجموعة كاملة من الكلاب؟
 فأردف ضابط الحامية يقول:
 . لا سيما مثل هذه الكلاب التي تسمى العلق، على ما أظن.
 قال لوخنوف للمضيف:
 . هل سنلعب، يا ميخايلو فاسيليتش، أم لا؟
 فخطب إيلين الكونت تورين قائلاً:
 . لا تتدخل يا كونت، من فضلك.
 . تعال هنا، دقيقة، . قال تورين، وقد أمسك إيلين من يده، وسار
 به وراء الحاجز.
 وكانت كلمات الكونت مسموعة تماماً من هناك، وهو يتكلم بصوته
 الاعتيادي، وكان له صوت يسمع دائماً من خلال ثلاث حجرات.
 . ما هذا التهور منك؟ هل معقول أنت لا ترى أن هذا السيد ذا
 النظارات لاعب غشاش من الدرجة الأولى.

- أوه، دعني! ما هذا الذي تقول!

- لا، لا أدعك! وأترك اللعب، اسمع كلامي. ما كان سيهمني الأمر،

لو أن الأمر ليس بهذا الشكل، ولربحت أنا كل فلوسك، ولكنني أحس بالغبن وأنت تخسر بهذه الطريقة. ثم أليست هذه نقود حكومية؟

- لا، وماذا جعلك تتصور ذلك؟

- أنا، يا أخ، سلكت هذا الطريق نفسه، وأعرف كل طرائق الغشاشين.

وأقول لك إن ذا النظارات غشاش في اللعب. فاترك اللعب، من فضلك. أنا أرجوك كرفيق.

- طيب، ألعب دورة واحدة، وأكف.

- أنا أعرف الدورة الواحدة هذه، طيب، سنرى.

عادة. وفي دورة واحدة كان إيلين يخسر كل ورقة بطرحها، فخسر الكثير.

وضع توربين يده وسط الطاولة.

- طيب، كفى. ولنذهب.

- لا، لا أقدر، اتركني، أرجوك.

قال إيلين بضيق، ممشطاً الأوراق المعكوفة، ودون أن ينظر إلى

توربين.

- طيب، ليتخطفك الشيطان! اخسر بالتأكيد، إذا كان ذلك يروق

لك، أما بالنسبة لي فقد حان الأوان! يا زافا لشيفسكي، لنذهب إلى العميد.

وخرجا. وصمت الجميع، ولم يفرق لوخوف الورق على اللاعبين، إلا

بعد أن تلاشى وقع الخطوات.

قال مالك الأراضي ضاحكاً:

- أي دماغاً

فأضاف ضابط الحامية، وبهمس أيضاً:

- ولن يعيقنا الآن.

واستمر اللعب.

- ٤ -

كان الموسيقيون، خدم العميد الواقفون في المشرب الذي نظف لهذه المناسبة، قد عكفوا أكمام سترهم، وراحوا، حسب إشارة أعطيت لهم، يعزفون اللحن البولوني القديم: «الكسندر، ابلسافيتا»، وعلى ضوء الشموع الساطع الناعم بدأ ينزل إلى الصالة الكبيرة للماعة بأرضيتها الخشبية، وبحركات مناسبة: كل من حاكم الولاية وهو جنرال من جنرالات يكاترينا يحلي صدره بوسام، متأبطاً ذراع زوجة عميد الأشراف النحيلة، وعميد الأشراف متأبطاً ذراع زوجة حاكم الولاية، ويعددهم أهل السلطة في الولاية في مختلف المراتب والأصناف. وبعد ذلك دخل الصالة زافالشفسكي في بدلته الفراك الزرقاء، والياقة الضخمة والشراشيب على الكتفين، والجوارب والحذاء المعد لمثل هذه الحفلات، ورائحة الياسمين تفوح حوله في هالة، وقد ضمخ بها شاريبه وطيتي سترته ومنديله ببذخ يصحبه الضابط الفارس الجميل بينطال الركوب الأزرق المشدود، والصدار الأحمر المطرز بالذهب يتدلى منه وسام فلاديمير، وميدالية عام ١٨١٢. كان الكونت هذا غبر طويل القامة، ولكنه ذو بنيان محتاز جميل. وكانت عيناه الزرقاوان الصافيتان اللامعتان إلى حد

كبير، وشعره الكتاني الداكن الطويل جداً، الملفت حلقات كثيفة تضفي على جماله طابعاً ملفتاً للنظر. كان وصول الكونت متوقعاً: رآه شاب جميل في حجرة الجلوس فأبلغ العميد بذلك. وكان الانتطباع الذي خلفه هذا الخبر يختلف من أحد لآخر، ولكنه ليس مريحاً تماماً بشكل عام. فكان رأي العجائز والرجال: «سيثير الضحك هذا الغلام». وكان رأي النساء الشابات والأوانس أكثر تساهلاً إلى هذا الحد أو ذاك: «وماذا لو اختطفني؟».

وما أن انتهت الرقصة البولونية، وتبادل أزواج الراقصين والراقصات الانحناءات، حتى انفصلت النساء وسرن إلى مجمعهن وسار الرجال إلى مجمعهن. وقاد زافا لشفيسكي السعيد الفخور صديقه الكونت إلى ربة البيت. وكانت زوجة العميد تتوجس خيفة في دخيلة نفسها من أن يقوم هذا الضابط الفارس بما يجعلها أضحوكة أمام الجميع، فأدارت رأسها بفخر وازدراء وقالت: «مسرورة جداً! أمل أنك سترقص؟»، ونظرت إليه متشككة، وعلى سحنتها ما يقول: «لو كدرت امرأة حقاً، فأنت وغد حقيقي». إلا أن الكونت سرعان ما بدد هذا الهاجس بلطفه، وعنايته، ومظهره المرح الجميل، حتى إن التعبير المرتسم على وجه زوجة العميد كان، بعد خمس دقائق، يقول لكل المحيطين بها «أنا أعرف كيف أمسك بزمام هؤلاء السادة، فقد أدرك في الحال مع من يتكلم، وسيكون لطيفاً معي طوال الأمسية». إلا أن حاكم الولاية تقدم بعد لحظة من الكونت، وكان يعرف أباه، وتنحى به جانباً في أدب جم، وتكلم معه مما جعل جمهور الحاضرين في بيت العميد أكثر طمأنينة، وارتفع الكونت في نظرهم. ثم أخذه زافا لشفيسكي ليعرفه بأخته الأرملة الشابة المتلكئة التي

ثبتت به عينيها السوداوين الواسعتين منذ ظهوره. دعا الكونت الأرملة الشابة إلى رقصة الفالس التي كان الموسيقيون يعزفونها في تلك الأثناء، وبدد بفته في الرقص كل ما تبقى لدى الجمهور من تحامل عليه. - أستاذ في الرقص! - قالت زوجة مالك أراض بدينه، وهي تتابع ساقبه في بنطال الركوب الأزرق، وهما تتوامضان في الصالة، وهي تعد في ذهنها: واحد، اثنان، ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة... - أستاذ! - كأنه يحوك، كأنه يحوك، - قالت أخرى زائرة كانت تعتبر سيئة الذوق في مجتمع الولاية، - كيف لا يؤذي مراقصته بمهمازه! مدهش، بارع جداً.

وغطى الكونت بفته في الرقص على ثلاثة هم أحسن الراقصين في الولاية: مرافق الحاكم الطويل الأشقر الذي كان يتميز بسرعة في الرقص، وإمساكه مراقصته على مقربة شديدة منه، وضابط خيالة يتميز بفهفة رشيقة في رقص الفالس، وقرقعة متسارعة وخفيفة في الوقت ذاته بكعب حذائه؛ أما الثالث فهو مدني يقول الجميع عنه إنه، وإن كان غير بعيد البصيرة، إلا أنه راقص فاخر وروح كل الحفلات الراقصة. وبالفعل كان هذا المدني منذ بداية الحفلة يدعو جميع السيدات إلى الرقص بالتوالي حسب مكان جلوسهن، ولم يتوقف عن الرقص دقيقة واحدة، إلا حين كان يتوقف من حين لآخر ليمسح وجهه الجميل والمتعب بمنديل من القماش الرقيق تبلل تماماً. لقد غطى الكونت عليهم جميعاً، ورقص مع ثلاث سيدات رئيسيات؛ مع سيدة كبيرة غنية وجميلة وبلهاء، ومع وسطى نحيلة غير جميلة جداً، ولكنها فاخرة الملبس، ومع سيدة صغيرة عاطلة عن الجمال، ولكنها ذكية جداً. ورقص مع أخريات، مع جميع

الحلوات، والحلوات كن كثيراً. ولكن الأرملة الشابة، أخت زافا لشيفسكي كانت أقربهن جميعاً إلى نفس الكونت، فرقص معها رقصة «الكادريل» ورقصة «ايكوسيس» و«المازوركا». وقد بدأ حين أخذاً برقصان الكادريل، بغدق عليها الغزل، مشبهاً إياها بفينوس وديانا، وبالوردة، وبزهرة أخرى. فكانت الأرملة الشابة لا ترد على كل هذا اللطف إلا بأن تحني رقبتها البيضاء، وتغض بصرها، ناظرة إلى ثوبها الموسلين الأبيض، أو ناقلة مروحتها من يد إلى أخرى. وحين كانت تقول: «كفاك، يا كونت، أنت تمزح» إلى غير ذلك، وكان صوتها الحلقي قليلاً يشي بسماحة ساذجة، وبلاهة مضحكة، فلو نظرت إليها لخطر لك بالفعل أنها ليست امرأة، بل زهرة، وليست وردة، بل زهرة برية بيضاء وردية منتفشة، بلا رائحة، طلعت وحيدة من كثيب ثلج لم تطأه قدم في أرض نائية جداً.

كان اقتران جمالها بسذاجتها، وغياب كل تصنع فيها قد خلف في نفس الكونت وقعاً غريباً جداً، حتى دار في خلده، عدة مرات، عند التوقف عن الكلام، وحين كان ينظر صامتاً في عينيها، أو إلى المخطوط البديعة ليديها ورقبتها، أن رغبة عارمة تجتاحه ليأخذها بين يديه، ويقبلها، مما كان يجد عسراً جدياً في كبح جماح نفسه.

وكانت الأرملة الشابة تلاحظ بارتياح ذلك الوقع الذي أثارته في نفسه، ولكن شيئاً في سلوك الكونت أخذ يقلقها ويفزعها، رغم أن هذا الفارس الشاب كان إلى جانب لطفه المتردد، يتمادى في مراعاة الأعراف السائدة. هرع ليحلب لها شراب اللوز، ورفع منديلها حين وقع، وانتزع مقعداً من يد مالك أراض شاب عليل المظهر كان يريد أيضاً أن يخدمها، ويقدمه أسرع، وما إلى ذلك.

ولما لاحظ أن آداب المجتمع الراقي لذلك العصر لم تؤثر في صاحبه كثيراً، حاول إضحاكها برواية حكايات مسلية، وأكد لها أنه مستعد، إذا أمرته أن يقف على رأسه فوراً، وبصبح صباح الديك، ويقفز من النافذة إلى الخارج أو يرمي نفسه في فتحة في جليد النهر. ونجح ذلك تماماً. فقد بدا المرح على الأرملة الشابة، وراحت تضحك ضحكات صداحة، كاشفة عن أسنان بيض بدیعة، وكانت مرتاحة تماماً من مراقصها. بينما ظلت تحلو في عيني الكونت أكثر فأكثر من دقيقة إلى أخرى، وفي نهاية رقصة الكادريل كان قد وقع في غرامها عن صدق.

وبعد الرقصة، حين جاء إلى الأرملة فتى في الثامنة عشرة، هو ابن متبطل لأغنى مالك أراض في المنطقة، نفس ذلك الشاب العليل المظهر الذي انتزع توربين المقعد من يده، كان متيحاً بها منذ زمان، استقبلته ببرود شديد، ولم يظهر عليها حتى عشر الارتباك التي كانت قد شعرت به مع الكونت.

- يا للطفك، - قالت له، وهي تنظر في ذات الوقت، إلى ظهر توربين، وتحسب لا إرادياً كم ذراعاً من الخيوط الذهبية استخدمت في سترته كلها. - يا للطفك، لقد وعدتني بأن تأتي إلي بعريتك، وتجلب لي الحلوى.

- ولكنني جئت، يا آنا فيدروفتا، ولم أجذك. أما الحلوى فقد أبقيت أحسنها لك، - قال الشاب بصوت نحيل جداً، رغم طول قامته. - أنت دائماً تجد ما ترد به! لست بحاجة إلى حلواك. أرجوك لا تظن...

- ها أنا أرى، يا آنا فيدروفتا، كيف تغيرت نحوي، وأعرف

السبب. إلا أن ذلك لا يصح... أضاف ذلك، ولكنه لم يتم كلامه، على ما يبدو، لأن انفعالاً شديداً داخل نفسه جعل شفتيه ترتجفان بسرعة شديدة وبطريقة غريبة.

لم تستمع أنا فيدروفا إليه، ومضت تتابع تورين بعينيها. تقدم من الكونت العميد صاحب البيت، وهو شيخ بدين مهيب بلا أسنان، وأمسكه من ذراعه، ودعاه إلى غرفة مكتبه للتدخين والشرب، إذا شاء. وما أن خرج تورين، حتى شعرت أنا فيدروفا بأن الصالة خوت تماماً، فتناولت يد سيدة عجوز نحيلة، هي صاحبها، وخرجت معها إلى حجرة الزينة.

كيف هو؟ لطيف؟ - سألت السيدة.

- إلا الطريقة الفظيعة التي يتردد بها. - أجابت أنا فيدروفا، وهي تقترب من المرأة، وتنتظر فيها.

وتألق وجهها، وضحكت عيناها، بل وتوردت، وفجأة استدارت على قدم واحدة مقلدة راقصات الباليه اللواتي رأتهن في هذه الانتخابات، واتبعت ذلك بضحكتها الحلقية واللطيفة، رغم ذلك، بل وقفزت، بعد أن ضمت ركبتيها.

وقالت لصاحبها:

- هل تتصورين؟ إنه طلب مني تذكراً. ولكن لن يح... ص... ل على شيء. وترغت بكلمة «يحصل»، ورفعت إصبعاً في قفاها الجلدي الذي كان يصل إلى مرفقها...

في غرفة المكتب التي قاد العميد الكونت تورين إليها كانت أصناف مختلفة من الفودكا والليكور والمشهيات والشمبانيا. وكان

النبلاء يجلسون أو يتمشون في الجو المشحون بدخان التبغ يتحدثون عن الانتخابات.

كان رئيس الشرطة المعاد انتخابه يقول وقد ثمل كثيراً:
- إذا كان جميع النبلاء الأشراف في قضائنا قد كرموه بانتخابه، فما كان يصح منه أن يتسبب أمام المجتمع كله، ولا يحق له قط...
وقطع الحديث دخول الكونت. أخذ الجميع يقدرّون أنفسهم إليه ورئيس الشرطة بشكل خاص صافحه طويلاً بكلتا يديه، وطلب إليه عدة مرات أن لا يرفض الذهاب بصحبته، بعد الحفلة الراقصة، إلى حانة جديدة سيدعو النبلاء إليها، وسيغني فيها الغجر. وعده الكونت بالذهاب حتماً، وشرب معه عدة أقداح من الشمبانيا.

وسأل قبل أن يخرج من الغرفة:

لماذا لا ترقصون، يا سادة؟

أجاب رئيس الشرطة ضاحكاً:

- ولعنا بالشراب، يا كونت، أكثر من ولعنا بالرقص... وعلى العموم كل هؤلاء السيدات الصغيرات كبرن أمام بصري، يا كونت؛ أحياناً أدخل في رقصة الأكوبيس أيضاً، أقدر عليها، يا كونت...

قال تورين:

- هيا الآن نحرك أقدامنا. نرفه عن أنفسنا قبل سماع الغجر.

- طيب، لنذهب، يا سادة! نسلي رب البيت.

وبينما كان النبلاء الثلاثة الحمر الوجوه، الذين كانوا يحتسون الشراب منذ بداية الحفلة الراقصة يلبسون قفازاتهم ما بين سوداء من جلد الماعز وحريرية محاكة، ويهمون بالخروج إلى الصالة مع الكونت، دخل

الشاب العليل المظهر وأوقفهم: كان شاحباً لا يكاد يحبس الدموع في عينيه. تقدم من توربين، وقال ملتقطاً أنفاسه بعسر:
- لأنك كونت تظن، أنك تستطيع أن تتدافع كما في السوق. هذا
عدم احترام...

ومرة أخرى ارتجفت شفتاه رغم إرادته، فأوقفنا سيل الكلام من فمه.

- ماذا؟ - صاح توربين، وقد تعبس فجأة. - ماذا؟ يا ولدا! - وأمسكه من يديه، وشدهما شداً جعل الدم يتدفق إلى رأس الشاب، خوفاً أكثر منه ضيقاً. - أتريد أن تتبارز؟ أنا تحت أمرك.

وما كاد توربين يطلق يدي الشاب اللتين ضغطهما ضغطاً قوياً، حتى أمسك نبيلان الشاب من إبطيه: ودفعاه إلى باب خلفي، وهما يقولان له:

- هل جننت؟ لا بد أنك قد شربت كثيراً. سنخبر والدك، ماذا بك؟
- لست سكراناً. بينما هو يتدافع دون أن يعتذر. إنه خنزير! هذا هو!
- ولول الشاب، وقد انفجر باكياً.

ومع ذلك لم يستمعوا إليه، وأخذوه إلى البيت.
- دعك، يا كونت! - قال رئيس الشرطة وزافالشيفسكي لمصالحة توربين. - إنه طفل، وسيعاقبونه أيضاً. ما يزال في السادسة عشرة. ولا يمكن فهم ما جرى له. وماذا أغضبه؟ وأبوه أيضاً رجل محترم، مرشحنا.
- طيب، عفا الله عنه، إذا لا يريد...

وعاد الكونت إلى الصالة، وبمرحه السابق رقص الأكوسيس مع الأرملة الشابة الحلوة، وضحك من كل قلبه، وهو ينظر إلى الحركات

الراقصة التي كان يؤديها السادة الذين خرجوا معه من غرفة المكتب، وانفجر في ضحكة رنت في أرجاء الصالة كلها، حين انزلق رئيس الشرطة، وانهب بكل طوله وسط الراقصين والراقصات.

٥.

حين دخل الكونت إلى غرفة المكتب أقبلت أنا فيدروفنا على أخيها، ولسبب ما تصورت أن عليها أن تتظاهر بأنها قليلة الاكتراث جداً بالكونت، وراحت تسأل: «أي فارس هذا الذي راقصني؟ قل لي من فضلك، يا أخي». أوضح ضابط الخيالة لأخته قدر مستطاعه أي إنسان عظيم هو هذا الفارس، وأخبرها إلى جانب ذلك أن الكونت لم يبق هنا إلا لأن نقوده سرقت أثناء سفره، وأنه هو نفسه أقرضه مائة روبل، ولكن ذلك مبلغ قليل، فهل تستطيع أخته أن تقرضه مائتي روبل أخرى، ورجاها زافا لشففسكي ألا تخبر أحداً بشيء عن هذا، ولا سيما الكونت. وعدت أنا فيدروفنا أن ترسل المبلغ في نفس اليوم، وأن تحتفظ بالسر، ولكنها أثناء رقصة الاكوسيس تملكته، لسبب ما، رغبة قوية في أن تعرض للكونت كم يريد من النقود. ظلت تدور طويلاً، واحمرت، وأخيراً ضغطت على نفسها، وبادرت بالأمر على هذا النحو:

«أخبرني أخي أن حادثة مؤسفة قد وقعت لك في الطريق، يا كونت، وأنت الآن بلا نقود. ألا تحب أن تستدين مني، إذا كنت بحاجة إليها؟ سأكون مسرورة للغاية.

ولكن أنا فيدروفنا فزعت من شيء ما، حين نطقت بذلك، واحمرت، فقد غاض المرح كلية من وجه الكونت بلمح البصر، وقال بحدة:

• أخوك أحمق؛ أنت تعرفين أن رجلاً حين يهين آخر يتبارزان، ولكن
ألا تعرفين ماذا يفعل الرجل إذا أهانت امرأة؟
واحمرت رقبة أنا فيدرونا المسكينة وأذناها من الارتباك. أطرقت
ببصرها، ولم تجيب.

قال الكونت بخفوت منحنياً على أذنها:
• يقبلها أمام الجميع. • ثم أضاف خافت الصوت، بعد صمت طويل،
وقد أشفق على ارتباك مراقصته: • فاسمحي لي على الأقل أن أقبل
يدك.

قالت أنا فيدرونا ثقيلة الأنفاس:
• آه، ولكن ليس الآن.
• متى إذن؟ غداً سأسافر في وقت مبكر... بينما أنت مدينة لي
بذلك.

قالت أنا فيدرونا باسمة:
• طيب، يعني، غير ممكن.
• اسمحي لي فقط أن أجد فرصة لأن أراك اليوم على انفراد، لأقبل
يدك. وسأجدها.

• ولكن كيف ستجدها؟
• هذا ليس من شأنك، سأبذل كل ما هو ممكن لأن أراك... حسناً؟
• حسناً.

انتهت رقصة الاكوسبس. ورقصا المازوركا أيضاً، وفيها قام
الكونت بالأعاجيب، ملتقطاً المناديل، واقفاً على ركبة واحدة، صافقاً
مهمازيه بطريقة خاصة، فرصوفية، حتى إن جميع الشيوخ خرجوا من

وراء مائدة القمار لينظروا ما يجري في الصالة، واعترف ضابط
الفرسان، وهو أحسن الراقصين، بأنه قد هزم. تعشى الحضور، وعادوا
فرقصوا رقصة «الجد»، وأخذوا ينصرفون.

وطوال هذا الوقت لم يصرف الكونت بصره عن الأرملة الشابة، ولم
يكن يتصنع حين قال لها إنه مستعد، من أجلها، أن يلقي نفسه في حفرة
في جليد النهر. وسواء أكان ذلك نزوة أو حباً أو عناداً، إلا أن كل قواه
الروحانية كانت متركزة، في ذلك المساء، في رغبة واحدة: أن يراها
ويحبها. وما أن لاحظ أن آنا فيدروفنا أخذت تتوابع مع ربة البيت،
حتى هرع إلى حجرة الخدم، ومن هناك، ودون أن يرتدي معطفه الفرائي،
خرج إلى الفناء، حيث تقف العربات. وصاح:
- عربة آنا فيدروفنا زائتسفا.

فتحركت عربة عالية ذات أربعة مقاعد ومصابيح، وتقدمت إلى
مدخل البيت. وصاح الكونت على الخوذي: قف! وركض نحو العربة
غائصاً في الثلج إلى ركبتيه. قال الخوذي:
- ماذا تريد؟

- الجلوس في العربة، - أجاب الكونت وهو يفتح الباب أثناء سير
العربة، ويحاول الصعود إليها. - قف، يا شيطان! أبله!
- فاسكا! قف! - صاح الخوذي على زميله الذي يمتطي أحد خيول
العربة، وأوقف الخيول. - لماذا تصعد إلى عربة الآخرين؟
هذه عربة السيدة آنا فيدروفنا، وليست عربة جنابك.
قال الكونت:

- أوه، اصمت، يا بليد! هذا روبل لك، فانزل وأغلق الباب!

ولكن الحوذي لم يتحرك، فرفع الكونت المرقاة بنفسه، وفتح النافذة، وأغلق الباب على نحو ما. كانت العربة، مثل كل العربات القديمة، ولا سيما المغلفة بالصفائر الصفراء، تفوح عفونة ووبراً محروقاً. كانت ساقا الكونت مغلفتين حتى الركبتين بالثلج الذائب، ترتجفان بشدة، وهما في حذائين رقيقين عاليين وينطال ركوب.

كما أن زمهرير الشتاء كان يحتاج جسده كله. كان الحوذي يدمدم من فوق مقعده، وبدا وكأنه يتهيأ للنزول. إلا أن الكونت لم يكن يسمع شيئاً، ولا يحس بشيء. كان وجهه يلتهب، وقلبه يدق بشدة، أمسك الحزام الأصفر بتوتر، وأطل من النافذة الجانبية، وتركزت حياته كلها بشيء واحد: الانتظار. ولم يستمر هذا الانتظار طويلاً.

صاح صوت من على مدخل البيت «عربة زابتسفا!» وحرك الحوذي الأعنة، وأخذ حوض العربة يتماوج على نوابضها العالية، وتراكضت نوافذ البيت المضاعة واحدة إثر الأخرى من خلال نافذة العربة.

قال الكونت، وقد طلع بجسده من النافذة الأمامية المظلة على الحوذي:

- إياك أن تقول شيئاً للخادم، أيها النصاب. فسأوسعك ضرباً. أما إذا أمسكت لسانك فسأعطيك عشرة روبلات أخرى.

وما كاد ينزل النافذة، حتى اهتز حوض العربة من جديد بقوة، وتوقفت العربة. انكمش الكونت في الزاوية، وحبس أنفاسه، بل وقلص عينيه، فقد كان خائفاً جداً من أن تخيب آماله لسبب ما. فتح باب العربة، ونزلت درجات المرقاة واحدة بعد الأخرى صاحبة، وهسهس ثوب نسائي، ونفذ عطر الياسمين إلى جو العربة العفن، وركضت أقدام سريعة

على الدرجات، وجلست أنا فيدروفا على المقعد قرب الكونت صامتة
ثقيلة الأنفاس، بعد أن مست قدم الكونت بذيل معطفها المحلول.
ولا أحد يعلم علم اليقين، وحتى أنا فيدروفا نفسها، هل رآته أم
لا، ولكنه حين أمسك يدها، وقال: «طيب، والآن سأقبل يدك».
لم تبد إلا القليل جداً من الفزع، ولم تحب بشيء، إلا أنها أعطته
يدها التي غطاها بالقبلات أعلى بكثير من طرف القفاز. وتحركت
العربة. قال لها:

ـ قللي شيئاً. لست غاضبة؟

انكمشت في ركنها صامتة، ولكنها أخذت تبكي فجأة، لسبب ما،
وأوقعت رأسها على صدره.

٦٠

كان رئيس الشرطة المنتخب مجدداً وصحبه، وضابط الخيالة والنبلاء
الآخرون قد قضوا وقتاً طويلاً يستمعون إلى غناء الفجر، ويشربون في
الحانة الجديدة، حين انضم إليهم الكونت، وهو في معطف من الجوخ
الأزرق بطانته من قراء الدب يعود إلى زوج أنا فيدروفا.

ـ يا سيدي، يا صاحب اللياقة! كدنا نفقد الأمل في مجيئك!

ـ قال غجري أسود أحول، كاشفاً عن أسنانه اللامعة، وقد التقاه في
الرواق، واندفع يخلع المعطف عنه. ـ لم ترك منذ زمن ليبيديان... ستيشا
أتلقت نفسها شوقاً إليك...

كما خرجت ستيشا للقاءه، وهي غجرية هيفاء فتية صغيرة الجسم
ذات وجنتين محمرتين حمرة الفخار، في وجه بني ذي عيني سوداوين

عميقتين لامعتين تظللهم رموش طويلة. قالت من خلال أسنانها
بابتسامة مرحة.

.. آ يا كونتنا العزيز! المحبوب! من ذهب! أية فرحة!

وايليوشكا نفسه خرج للقاءه متظاهراً بأنه مبتهج جداً.

ووثبت العجائز والنسوة والفتيان من أماكنهن، وأحطن بالضيف.

بعضهن كن يعتبرنه قريباً لهن بعرايته لأولادهن، والبعض الآخر بأخوة
الصليب.

قبل توربين جميع الفجريات الصغيرات من شفاهن، وقبلته
العجائز والرجال من كتفه ومن يده. كما سر النبلاء كثيراً بقدوم الضيف،
لا سيما وأن القصف واللهو قد أخذوا يفتران بعد أن بلغا الذروة. وبدأ كل
واحد يشعر بالشبع. ولم يبق للنبيذ إلا ثقل في المعدة، بعد أن فقد تأثيره
المؤجج للأعصاب. وصار القوم ينظر بعضهم إلى بعض، بعد أن أطلق كل
واحد منهم كل ما في نفسه من مكنون اللهو والعبث. وغنيت كل
الأغاني، واختلطت في رأس كل واحد منهم تاركة انطباعاتاً عن صخب
وانفلات. ومهما يكن ما أتوا به من غرابية وجراءة، فقد بدأ الجميع
يفكرون في أن كل ما فعلوه خلوا من الموانسة والفكاهة. كان رئيس
الشرطة يرقد على الأرض في مظهر بشع عند قدمي إحدى العجائز
يؤرجع ساقه، ويصيح:

.. شمبانيا!.. الكونت وصل!.. شمبانيا... وصل... هاتوا

شمبانيا!... سأصنع حوض حمام من الشمبانيا، وأسبح فيه... أيها

السادة النبلاء! أهيم بمجتمع النبلاء الشهم... ستبشا، غن أغنية

«الطريق».

وكان ضابط الخيالة سكران أيضاً، ولكن بطريقة أخرى. كان يجلس على أريكة في ركن، على مقربة شديدة من الفجرية الطويلة الجميلة ليوباشا، شاعراً بالسكر يغشي على عينيه، فكان يرمش بهما، ويدير رأسه، ويكرر كلمات لا تتغير، ويهمس للفجرية ليقنعها بالهروب معه إلى مكان ما. وكانت ليوباشا تستمع إليه باسمة، وكأن ما كان يقوله لها مرح جداً، وفي ذات الوقت محزن بعض الشيء، ومن حين لآخر كانت ترمق زوجها ساشكا الأحول، الذي كان واقفاً على الطاولة قبالتها، وللدرد على اعتراف ضابط الخيالة بحبه لها كانت تنحني على أذنه، وتطلب منه أن يشتري لها شيئاً من العطر والشرائط، خفية حتى لا يراها الآخرون.

- هورا! - صاح ضابط الخيالة حين دخل الكونت.

وكان ثمة شاب وسيم مغموم المظهر يذرع الحجرة بعناية ويخطوات ثابتة جيئة وذهاباً، ويترنم بأنغام من «انتفاضة في جناح الحرم». كان أبو العائلة العجوز يرقد على الأريكة، دون أن يلتفت أحد إليه، باقياً على حاله منذ أن انهده عليها فور مجيئه، وقد أغراه بالفجريات السادة النبلاء بطلباتهم الملحاحة، ويقولهم له بدونك سيفسد كل شيء، وسيكون من الأفضل لو بقينا في بيوتنا.

وكان أحد الموظفين الذي كان في الحانة من قبل، قد خلع سترته الفراك، وقعد على المائدة متربعا، منفوش الشعر، مبرهنأ بذلك على أنه مخمور جداً. وما أن دخل الكونت حتى فك زر ياقة قميصه، وزحف متوغلاً عميقاً في جلسته على المائدة. وشكل عام انتعش القصف واللهو بمجيء الكونت.

والغجريات اللواتي كن يطوفن في الحجرات عدن، فجلسن في حلقة. أجلس الكونت ستيشكا، المغنية على ركبتيه، وأمر بتقديم المزيد من الشبانيا.

وقف البوشكا أمام المغنية ومعه قبشارة، وبدأ الرقص، أي، أغان غجرية: «أطوف في الشارع»، «هاي، يا فرسان...»، «تسمع، وتفهم...» إلى غير ذلك، في نسق معلوم. غنت ستيشكا غناء عذياً، وصوتها الكونترالتو المطواع الصداح، الخارج من الصدر، وبسماتها أثناء الغناء، وعيناها الضاحكتان العاطفتان، وقدمها الصغيرة التي تتحرك لا إرادياً مع إيقاع الأغنية، وصياحها الهائم عند بداية الإنشاد الجماعي، كل ذلك كان يحرك وترأ رناناً يندر أن يتحرك. وكان يبدو أنها بكليتها تضع كل روحها في الأغنية التي كانت تغنيها. وكان البوشكا بابتسامته وبظهره وقدميه وبكل كيانه يعبر، وهو بصاحبها بقبشاره، عن تعاطفه مع الأغنية، ويبدو، وهو يفرس عينيه فيها، كأنه يسمع الأغنية لأول مرة، بانتباه واستغراق، وكان يميل رأسه ويرفعه على إيقاع الأغنية، وبعد ذلك انتصب بجذعه فجأة عند الترنيمة الأخيرة. ودفع القيثارة برجله في شمم وعزيمة، وتركه يدور وكأنما يشعر بأنه أرفع من كل الناس في العالم، وراح يرقص، وينفش شعره، ويلتفت إلى المنشدين مقطب الحاجبين. وبدأ جسمه كله من رقبتة حتى أخمص قدميه يرقص بكل عرق فيه... وتماوج في الهواء عشرون صوتاً قوياً يحاول كل واحد منها بكل ما لديه من قوة أن يردد الآخر على نحو أغرب وأبعد عن المألوف. وأخذت العجائز تقفن على المقاعد ملوحات بالماناديل، كاشفات عن أسنانهن، ويصحن في ونام وانسجام متباريات في رفع أصواتهن.

والرجال من ذوي النبرات الوطيثة يهدرون بأصواتهم واقفين على الكراسي وقد لووا رؤوسهم جانباً، وتوترت أوداجهم.

وحين كانت ستيشا تغني بنبرات رقيقة، كان اليوشكا يقرب منها قبشاره، وكأنما يريد أن يساعدها، بينما كان الشاب الوسيم يصيح في نشوة الطرب جاءت الآن أنصاف الأنغام.

وحين غنوا اللحن الراقص، ومرت دونياشا مرعشة كتفها وصدرها، ودارت أمام الكونت، ومضت مناسبة قفز الكونت تورين من مكانه، وطرح سترته، وبقي في قميصه الأحمر، وصاحبها جسوراً على إيقاع رقصتها محركاً قدميه حركات جعلت الفجر يتبادلون النظرات مبتسمين باستحسان.

جلس رئيس الشرطة مترعاً على الطريقة التركية، وضرب صدره بقبضته، وصاح «مرحى!»، ثم أمسك الكونت من قدمه، وراح يقول كان معه ألفا رويل، أما الآن فلم يبق إلا خمسمائة، وهو يستطيع أن يفعل كل ما يريد، شرط أن يسمح الكونت بذلك.

استيقظ رب العائلة العجوز، وأراد أن ينصرف، ولكنهم أوقفوه. وكان الشاب الوسيم يتوسل إلى غجرية بأن ترقص معه الفالس. ونهض ضابط الخيالة من ركنه راغباً في التباهي بصداقته للكونت، وعانق تورين، وقال:

«آه، يا عزيزي! ولكن لماذا غادرتنا؟ ها؟ - صمت الكونت، مفكراً، على ما يبدو، في شيء آخر. - أين غبت؟ آه، يا كونت يا محتال، أنا أعرف أين كنت.

ولسبب ما لم يرق للكونت رفع الكلفة هذا، نظر في وجه ضابط

الخيالة صامتاً دون أن يبتسم، وفجأة قذف في وجهه بشتائم فظيعة فظة جعلت ضابط الخيالة يعتم، وظل وقتاً طويلاً لا يعرف ماذا يعتبر هذه المهانة: مزاحاً أم جدلاً. وأخيراً استقر على أنها مزاح، فابتسم، وعاد ثانية إلى صاحبه الفجرية، وراح يؤكد لها أنه سيتزوجها حتماً، بعد عيد الفصح. وغنى القوم أغنية أخرى، وثالثة، وعادوا إلى الرقص من جديد، وتغنى بعضهم ببعض، واستمر الجميع يستشعرون المرح. ولم تنقطع الشمبانبا. شرب الكونت كثيراً، وبدت عيناه في غشاوة من الندى، ولكنه لم يكن يترنح وكان يرقص أفضل، ويتكلم بلسان ثابت، بل غنى مع المجموعة بعذوبة، وصاحب ستيشا، حين غنت «توجس الصداقة الناعم». وفي وسط الرقصة جاء التاجر صاحب الحانة يطلب من الضيوف العودة إلى بيوتهم، لأن الساعة جاوزت الثانية صباحاً.

أمسك الكونت التاجر من تلابيه، وأمره أن يرقص مقرصاً. رفض التاجر، فاختطف الكونت زجاجة شمبانبا، وقلب التاجر على رأسه، وأمر بأن يمسه بهذا الوضع، وسكب عليه ببطء زجاجة الشمبانبا كلها، وسط ضحك الجميع.

وطلع الفجر. وكان الجميع شاحبين متعبين ما خلا الكونت. قال فجأة وهو ينهض:

«على أية حال حان وقت سفري إلى موسكو. يا أولاد، تعالوا إلى مسكني جميعاً... رافقوني... سنشرب الشاي».

ووافق الجميع ما عدا مالك الأراضي الذي أخذته الغفوة، فبقي حيث هو، واكتظت بهم ثلاث زلاجات كانت واقفة عند المدخل، وسارت بهم إلى الفندق.

شدوا الخيول! - صاح الكونت، وهو يدخل الصالة العامة في الفندق بصحبة جميع ضيوفه والفجر. - يا ساشكا! لا أقصد ساشكا الفجري، بل خادمي، قل لناظر المحطة إنني سأوسع ضريباً إن يعطينا خيولاً سيئة. وقدم الشاي لنا! زافالشيفسكي! أشرف على الشاي، فأنا ذاهب إلى إيلين لأرى كيف هو. - أضاف توربين، وخرج إلى الممر، متجهاً إلى غرفة الضابط الأولاني.

كان إيلين قد فرغ لتوه من اللعب، وخسر جميع نقوده إلى آخر كوبيك، وكان ينبطح على وجهه على أريكة من القماش الوري الممزق، ناتفاً الوبر منه هلبة بعد أخرى، ليضعها في فمه، ويعضها ويبصقها. وكانت شمعتان من شموع الشحم احترقت إحداها إلى الورق، تصارعان بوهن ضوء الصباح المتسلل من النوافذ، وهما على طاولة لعب تناثر عليها ورق اللعب. كان ذهن الأولاني خالياً من أية فكرة؛ فقد كان الضباب الكثيف لهوس اللعب يغلف كل مداركه الروحية، وحتى الندم لم يكن يحس به. حاول مرة أن يفكر ماذا عليه أن يفعل الآن، وكيف يغادر خاوي الجيب من أي كوبيك، وكيف سيدفع الخمسة عشر ألفاً من الأموال الحكومية التي خسرها، وماذا سيقول أمر فوجه، وماذا ستقول أمه، وماذا سيقول رفاقه، فتملكه رعب ونفور من نفسه جعلاه ينهض، رغبة في نسيان ذلك، ويروح ويجيء في حجرته، مجاهداً أن بطلاً الفواصل بين ألواح الأرضية فقط، وعاد من جديد يسترجع مع نفسه أدق ملابسات اللعب الذي جرى. وراح يتصور بشكل حي كيف كاد يسترد خسارته، وكيف سحب تسعة، ووضع ملك البستوني على ألفي روبل، وإلى اليمين

ملكة، وإلى اليسار آس، وإلى اليمين ملك الديناري، وانهار كل شيء. فلو كانت ستة إلى اليمين، وملك الديناري إلى اليسار، لرددت خسارتي كلياً، ولو راهنت برهانين مرة أخرى، ولربحت خمسة عشر ألفاً صافية، ولأشترت نفسي، آنذاك، فرساً سريعاً من أمر الفرج، وحصانين آخرين، ولأشترت عربة صغيرة أيضاً. طيب، ثم ماذا بعد؟ سيكون ذلك روعة، روعة!

استلقى على الأريكة من جديد، وأخذ يقضم الوبر. راح يفكر: «لم هذه الأغاني في الغرفة رقم ٧؟ أعتقد أنهم يرحلون عند توربين. فماذا لو ذهبت هناك، وشربت بشكل طيب».

وفي تلك اللحظة دخل الكونت، وصاح:

«ماذا يا أخ، أفرغت جيوبك؟»

ففكر إيلين: «لأتظاهر بأنني نائم، وإلا فسيكون علي أن أتحدث معه، بينما أنا نعسان».

إلا أن توربين اقترب منه، ومسد على رأسه.

«ماذا، يا صديقي الفاضل، فرغت جيوبك؟ خسرت؟ تكلم».

لم يجب إيلين.

جذبه الكونت من يده.

«خسرت. فماذا يهمك؟» قتم إيلين بصوت ناعم مستاء بغير اكتراث، ولكن دون أن يغير وضعه.

«كل شيء؟»

«أي، نعم. وأي مصيبة في ذلك. كل شيء. وماذا يهمك؟»

«اسمع، قل الحقيقة، كرفيق، قال الكونت الذي كان يجنح إلى

الرقعة تحت تأثير الخمرة، ماضياً في تمسيد شعره. - لقد أحبيتك حقاً. قل الحقيقة: فإذا كنت قد خسرت أموالاً حكومية أسعفتك، وإلا فستفوت الفرصة... هل كانت أموالاً حكومية؟
قفز إبلين من الأريكة.

- إذا كنت تريد أن أقول لك لا تتحدث معي بهذا الشكل... لأنه... أرجوك لا تتكلم معي إطلاقاً... لم يبق أمامي إلا أن أطلق رصاصة على رأسي! - قال ذلك بقنوط صادق، وقد أوقع رأسه على يديه، وسالت دموعه، رغم أنه قبل دقيقة كان يفكر بالخيول هادئ النفس تماماً.

- آوه، يا لك من فتاة حلوة! ولكن من لم يحدث له ذلك؟ ليس هذا بالطامة الكبرى. أعتقد أننا سنصلح الأمر. انتظري هنا قليلاً.
وخرج الكونت من الحجرة. وسأل الحاجب.
- أين يسكن مالك الأراضي لوخوف؟

عرض الحاجب مرافقة الكونت إلى مبيتفاه. ودخل الكونت الحجرة رغم تنبيه الخادم بأن سيده قد تفضل فدخل حجرتة لتوه، وأنه يتكرم بأن يخلع صلابسه. كان لوخوف يجلس في رويه المنزلي إلى الطاولة يعد بعض الحزم من أوراق النقد الموضوعة أمامه.

وعلى الطاولة زجاجة من خمرة الراين التي كان يحبها جداً. فقد سمح لنفسه هذه المتعة بعد أن ربح. نظر لوخوف إلى الكونت ببرود وحدة من خلال نظارته، وكأنما لا يعرفه. قال الكونت، وهو يتقدم من الطاولة بخطى حازمة:

- يبدو كأنك لا تعرفني؟

عرف لوخنوف الكونت، وسأل:

ـ هل تود شيئاً؟

قال تورين، وهو يجلس على الأريكة:

ـ أحب أن ألعب معك قليلاً.

ـ الآن؟

ـ نعم.

ـ في وقت آخر، بكل سرور، يا كونت! أما الآن فأنا تعب، وأريد

أن أنام. ألا تحب شيئاً من النبيذ؟ نبيذ جيد.

ـ ولكنني الآن أريد أن ألعب قليلاً.

ـ لا أود أن ألعب اليوم أكثر. ربما سيلعب أحد السادة معك، أما أنا

فلا، يا كونت! أعذرني، من فضلك.

ـ إذن، لا تريد؟

أشار لوخنوف بكتفيه إشارة تعبر عن أسفه على عدم إمكانية تلبية

رغبة الكونت.

ـ لا تريد، في كل الأحوال؟

وصدرت من لوخنوف نفس الإشارة.

ـ ولكنني أرجوك جداً... فهل ستلعب؟...

صمت.

وسأل الكونت للمرة الثانية.

ـ هل ستلعب؟ تبصر بالأمر!

نفس الصمت، ونظرة سريعة من فوق النظارة إلى وجه الكونت الذي

بدأ يتجههم.

هل ستلعب؟ - صاح الكونت بصوت عال، وقد ضرب الطاولة بيده ضربة جعلت زجاجة خمرة الراين تسقط، وتندلق. - أنت لم تريح بطريقة نزهة؟ هل ستلعب؟ أسألك للمرة الثالثة.

- قلت: لا. هذا شيء غريب حقاً، يا كونت! ومن غير اللائق كلياً أن يأتي إنسان إلى إنسان موجهاً السكين إلى حلقومه. - لاحظ لوخنوف ذلك دون أن يرفع بصره.

وتبع ذلك صمت قصير صار فيه وجه الكونت يزداد امتقاعاً. وفجأة صعدت لوخنوف ضربة رهيبة صوت إلى رأسه، فوقع على الأريكة محاولاً أن يمسك بالنقود، وصرخ بصوت مصمم مستميت لم يكن متوقفاً أبداً من شخصه الهادئ دائماً، والوقور باستمرار. جمع توربين ما تبقى من النقود التي كانت على الطاولة، ودفع الخادم الذي دخل راكضاً لنجدة سيده، وخرج من الحجرة بخطوات سريعة.

وأضاف الكونت، وقد عاد إلى باب لوخنوف: - إذا أردت رد اعتبار، فأنا في خدمتك، سأظل في الغرفة نصف ساعة أخرى.

وتردد صوت من داخل الحجرة:

- محتال! نشال!... سأقدمك إلى محكمة.

كان إبلين ما يزال راقدًا على الأريكة في غرفته، دون أن يعير التفاتاً لوعد الكونت في أن ينجده، وكانت عبرات القنوط تخنقه.

فإن وعي الواقع الذي أثارته رقة تعاطف الكونت معه من خلال ذلك الخليط الغريب من المشاعر والأفكار والذكريات التي كانت تفعم نفسه لم يتركه. وضاع إلى الأبد الشباب الغني بالأمان، والشرف

واحترام المجتمع، والآمال في الحب والصداقة. وأخذ ينبوع الدموع يجف، وصار شعور مطمئن للغاية باليأس يستحوذ عليه أكثر فأكثر، وأخذت فكرة الانتحار تراهه بإطراد متزايد، وقد كفت عن إثارة الاشمئزاز والرعب في نفسه. وفي هذا الوقت بالذات ترددت خطوات الكونت القوية. كانت آثار الحنق ما تزال مرتسمة على وجه الكونت، وكانت يدها ترتجفان قليلاً، ولكن عينيه كانتا تشعان بالمرح الكريم والرضى بنفسه.

قال، وهو يلقي بعض حزم النقود على المنضدة:

خذ، لقد استرددتها! احسب، هل هي كاملة؟ ثم أسرع إلى الصالة العامة، فأنا مغادر بعد قليل، - أضاف، وكأنه لم يلحظ ما ارتسم على وجه الأولاني من الانفعال الفظيع بالفرح والامتنان، وخرج من الحجرة، وهو بصفر بلحن أغنية غجرية.

٨.

أعلن ساشكا، وقد أحكم شد النطاق على بطنه أن الخبول جاهزة، ولكنه طلب أن يذهب أولاً لكي يسترد معطف الكونت الذي زعم أنه يساوي مع ياقته ثلاثمائة روبل، ويعيد المعطف الأزرق الزائف إلى الرضيع الذي استبدله بالمعطف الأصلي، في بيت العميد. ولكن توربين قال لا ضرورة للبحث عن المعطف، وذهب إلى حجراته لتغيير ملابسه.

كان ضابط الخيالة يرسل فواقاً، وهو جالس بصمت قرب غجريته. طلب رئيس الشرطة فودكا، ودعا جميع الأسباد للذهاب إلى بيته لتناول الفطور واعدأ بأن زوجته نفسها سترقص حتماً مع الغجر. وكان الشاب الوسيم يحاول إقناع البوشكا بأن العزف على البيانو أكثر روحية، وأن

القيثار لا يستخرج أنصاف النغمات. وكان الموظف يحتمي الشاي في زاوية بادي الحزن، وكان يبدو في ضوء النهار خجولاً من فسوقه. وكان الفجر يتناقشون فيما بينهم، باللغة الفجرية، ويصرون على أن يغنوا على شرف الأسباد أكثر، فكانت ستيشا تعترض قائلة بأن باروراي (وهو، باللغة الفجرية، الكونت أو الأمير أو بدقة أكثر سيد القوم) سيفضب. وعلى العموم انطفأت في الجميع شرارة العريضة الأخيرة. قال الكونت وهو يدخل القاعة في ثياب السفر غصاً بهيجاً أجمل من أي وقت مضى:

هيا، أغنية أخرى للوداع، وتفرقوا بعدها إلى بيوتكم.

وتحلق الفجر مرة أخرى، وما أن هموا بالغناء، حتى دخل إيلين، وفي يده حزمة من أوراق النقد، ودعا الكونت إلى ناحية، وقال: كان كل ما معي من النقود الحكومية خمسة عشر ألفاً، بينما أعطيتني ستة عشر ألفاً وثلاثمائة، يعني هذه لك. جميل! هات!

أعطاه إيلين النقود ناظراً إليه بتهيب، وفتح فمه يريد أن يقول شيئاً، إلا أنه احمر فقط، حمرة جعلت الدموع تترقرق في عينيه، ثم أمسك يد الكونت وأخذ يشد عليها.

سحقاً لك! يا اليوشكا!.. اسمعني... هذه النقود لك، شرط أن تودعني بالأغاني إلى بوابة المدينة. وألقى على قيسشاره الألف والثلاثمائة روبل التي جلبها إيلين له، ولكن الكونت نسي تماماً أن يرد المائة روبل التي استدانها من ضابط الخيالة يوم أمس. وحين خرجت إلى مدخل الفندق جماعة الفجر، ورئيس الشرطة،

وضابط الخيالة، والشاب الوسيم، وإيلين، والكونت في معطفه الأزرق من فراء الدب، كانت الساعة العاشرة صباحاً، والشمس مرتفعة فوق السطوح، والشوارع تموج بحركة الناس، والباعة قد فتحو دكاكينهم منذ وقت طويل، والنبلاء والموظفون يقطعون الشوارع راكبين، والسيدات يتنقلن بين صفوف الحوانيت. كان النهار مشمساً ودافئاً. وتقدمت من مدخل الفندق ثلاث زلاجات مبرية تجر كل واحدة منها ثلاثة خيول معكوفة الذبول. وبدأت الصحبة المرحّة تحتل أماكنها. فجلس الكونت وإيلين وستيشكا واليوشكا، وساشكا الخادم في الزلاجة الأولى وجن جنون يليوخر، وراح ينبع على الحصان الرئيس مبصباً بذيله، وجلس الأسياد الآخرون في الزلاجتين الأخريين بصحبة الفجريات والفجر أيضاً. ومنذ الانطلاق من الفندق تحاذت الزلاجات، وانخرط الفجر في أغنية جماعية.

قطعت الزلاجات الثلاث المدينة كلها حتى البوابة بالأغاني ورنين الأجراس دافعة جميع المارة الذين صادفوها إلى حافات الأرصفة. وكانت الدهشة كبيرة على وجوه الباعة والمارة، الغريباء والمعارف بشكل خاص، وهم يرون الأشراف النبلاء يقطعون الشوارع في وضع النهار بالأغاني وبصحبة الفجريات والفجر السكاري. وحين خرجت الزلاجات من بوابة المدينة توقفت، وصار الجميع يودعون الكونت.

وفجأة علا الحزن وجه إيلين الذي كان قد شرب كثيراً أثناء التوديع، وكان يسوق الخيول طوال الوقت، وأخذ يحث الكونت على أن يمكث يوماً آخر، ولكنه حين أيقن أن ذلك غير ممكن، اندفع يقبل صديقه الجديد

بشكل مفاجئ تماماً، والدموع تترقق في عينيه، ووعد بأنه، حالما يصل إلى معسكره، سيطلب نقله إلى سلاح الفرسان، وإلى فوج الكونت بالذات. كان توربين كثير المرح، أوقع على تل ثلجي ضابط الخيالة الذي كان قد رفع الكلفة معه نهائياً منذ الصباح، فكان يخاطبه بضمير المفرد، وحرص بليوخر على ضابط الشرطة، واختطف ستيشكا على يديه، وأراد أن يحملها إلى موسكو، وأخيراً قفز إلى الزلاجة، وأجلس بليوخر إلى جنبه، وكان الكلب يريد طوال الوقت أن يقف في الوسط. ومرة أخرى طلب الخادم ساشكا من ضابط الخيالة أن يسترد معطف الكونت منهم وإرساله، وقفز أيضاً إلى مقعد الحوذي. صاح الكونت: «تحرك!» وخلع طاقبته، ولوح بها فوق رأسه، وصفر على الخيول على طريقة الحوذية. وتحركت الزلاجات كل واحدة إلى طيتها.

إلى مدى بعيد إلى الأمام كان يمتد سهل ثلجي رتيب يتلوى فيه شريط الطريق الأصفر الموحد، وكانت الشمس الساطعة تلمع متواضعة على القشرة المتجمدة اللامعة لثلج ذائب، تدفئ الوجه والظهر دفناً مريحاً. وكان البخار يتصاعد من الخيول العرقة، وجرس يرن. تنحى فلاح عن طريق زلاجة الكونت، وكان يركض مطرطشاً في الطريق الثلجي الذائب بنعليه اللبفيين البلليين، وراء زلاجة محملة، جاذباً الجبال. وكانت فلاحه بدينة حمراء الوجه تجلس في زلاجة أخرى حائكة كديش الزلاجة الأبيض المتهافت بأطراف العنان، وقد دثرت طفلاً عند صدرها، تحت معطف من فراء الغنم. وفجأة تذكر الكونت أنا فيدروفنا. صاح:

ارجع!

لم يفهم الحوذي رأساً.

استدر في طريق العودة! إلى المدينة! أسرع!

ومرت الزلاجة ببوابة المدينة ثانية، وانزلت خفيفة إلى المدخل المصنوع من الألواح الخشبية لبیت السيدة زایتسفا. ركض الكونت نشيطاً على درجات السلم، ومر بالرواق، وحجرة الضيوف، ووجد الأرملة الشابة ما تزال نائمة، فحملها على يديه، ورفعها عن السرير، وقبلها من عينيها الناعستين، وخرج عائداً بخطوات نشيطة. تلمظت أنا فيدروفنا دون أن تعي، وهي ما تزال بين اليقظة والنمام، وسألت: «ماذا حصل؟» قفز الكونت إلى الزلاجة، وصاح بالحوذي أن انطلق، وخرج من مدينة ك، إلى الأبد، دون أن يتوقف، بل ولا يخطر في باله لوخوف، ولا الأرملة الشابة، ولا ستيشكا، ولا يفكر إلا فيما كان ينتظره في موسكو.

٩.

مر زهاء عشرين عاماً. وسالت مياه كثيرة خلال ذلك، توفي الكثيرون، وولد الكثيرون، وكبر الكثيرون وشاخوا، وأكثر من ذلك ولدت أفكار وماتت. واندثر الكثير من الحسن، والكثير من القبيح الشائخ ونضج الكثير من الأشياء الجميلة، والشابة والأكثر منها من الأشياء الفتية المتسرة والمشوهة ظهر في أرض الله الواسعة.

وكان الكونت فيدور توربين قد قتل منذ زمان في مبارزة مع أجنبي كان قد ساطه بمقرعة الصيد في الشارع. وكان ابنه الذي كان يشبهه مثلما تشبه قطرة ماء قطرة أخرى، قد صار شاباً فاتناً في الثالثة والعشرين، يخدم ضابطاً في سلاح خيالة الحرس. وكان الكونت توربين الفتى لا يشبه أباه خلقياً على الإطلاق، بل لم يكن عليه أي ظل لتلك

الأهواء الهوجاء العارمة، والفاسقة، إذا قلنا الحق، لذلك الجليل الفائت. فبالى جانب الذهن الوقاد والثقافة، والطبيعة الموهوبة الموروثة، كان يتمتع بخصال حميدة أخرى: حب الحشمة والراحة في الحياة، والنظرة الواقعية إلى الناس والظروف، والتبصر والتزام جانب الحذر. وكان الكونت الشاب في الخدمة يسير سيراً مرموقاً، إنه برتبة ملازم وهو في الثالثة والعشرين... وعند بدء العمليات العسكرية استقر رأيه على أن الانتقال إلى الجيش العامل أنفع في الارتقاء إلى مراتب أعلى، فانتقل إلى فوج الفرسان برتبة نقيب، وبعدها بقليل رقي إلى منصب آمر كوكبة.

في أيار ١٨٤٨ كان فوج س. للفرسان يمر في ولاية ك، وكان على الكوكبة التي يقودها الكونت تورين الشاب أن تقضي ليلتها في موروزوفكا، قرية أنا فيدروفنا. كانت أنا فيدروفنا ما تزال على قيد الحياة، ولكنها قد فارقت الشباب إلى حد أنها هي أيضاً كانت لا تعتبر نفسها شابة، وهذا يعني الكثير بالنسبة للمرأة. وقد سمعت سمعة يقال إنها تعبد امرأة إلى شبابها. ولكن غضوناً كبيرة وناعمة كانت تتبدى للعين على هذه البدنة البيضاء. ولم تعد تنزل في عربتها إلى المدينة قط، بل كان يصعب عليها الصعود إلى العربة، ولكنها ظلت على طيبة نفسها، وبلاحتها الأولى. ويمكن قول الحق الآن بأنها لم تعد تغري الناس بجمالها. وكانت تعيش معها ابنتها ليزا، الحسناء الريفية الروسية ابنة الثالثة والعشرين من العمر، وأخوها ضابط الخيالة الذي عرفناه، والذي بدد، لصفاء سريره، كل ضيعته، فلجأ إلى بيت أنا فيدروفنا شيخاً عجوزاً. كان شعر رأسه أشيب تماماً، وشفته العليا مخسوفة، ولكن الشاربين فوقها كانا قد صبغا تماماً بالصبغة السوداء. وكانت الغضون لا

تتنفّس في جبينه وخديه فقط، بل وعلى أنفه ورقبته، وتقوس ظهره.
ومع ذلك فقد كان في رجليه الواهنتين المعوجتين شيء يذكر بقيافة
ضابط الخيالة القديم.

كانت عائلة أنا فيدروفنا كلها وخدمها جالسين في حجرة الجلوس
الصغيرة لذلك البيت القديم المطل بباب شرفته والنوافذ على حديقة
زيزفون عتيقة نجمية الشكل. كانت أنا فيدروفنا بشعرها الأشيب
وسترتها المبطنة الليلكية تجلس على الأريكة أمام طاولة مستديرة من
الخشب الأحمر تستخير الورق. وأخوها العجوز الجالس عند النافذة في
بنطال أبيض نظيف، وسترة زرقاء، يحوك بخيط من القطن الأبيض، وهو
عمل علمته إياه ابنة أخته، فشغف به، لأن عينيه الضعيفتين لم تعودا
قادرتين على مطالعة الجرائد، هوايته المحببة. وكانت بيموتشكا الصبية
التي تبنتها أنا فيدروفنا تعيد الدروس تحت إشراف ليزا التي كانت في
الوقت ذاته تحوك بابر خشبية جوارب لخالها من شعر الماعز.

وكانت أشعة الشمس الغارية الأخيرة تسقط، كما هي دائماً في مثل
هذا الوقت، على النافذة في الطرف القصي، والرف المائل قريبها مائلة
متقطعة من خلل عمر الزيزفون المعروش. وكان السكون في الحديقة وفي
الحجرة تاماً بحيث كان يسمع صوت خطاف يصفق جناحيه بسرعة وراء
النافذة، أو أنفاس أنا فيدروفنا الهادئة في الحجرة، أو تأوه العجوز، وهو
يضع ساقاً على ساق.

كفت أنا فيدروفنا عن صف الأوراق، وقالت:

«أين أضع هذه الورقة؟ ليزانكا، أرني، أكاد أنسى كل شيء».

تقدمت ليزا من أمها، دون أن تترك عملها، ونظرت إلى أوراق
اللعب. وقالت، وهي تغير وضع الأوراق:

. آه، خلطت كل شيء، يا أمي العزيزة! هكذا كان يجب. على كل حال سيتحقق ما أضمرته، . أضافت ورفعت ورقة دون أن تلاحظ.
. أوه، أنت دائماً تخدعيني بقولك سيتحقق.
. أقول لك الحق. سيتحقق. ها أنت ترين أن فألك موفق.
. حسناً، حسناً، يا مشاكسة! ألم يحن وقت الشاي؟
. طلبت، بالفعل، أن يسخن السماور. أنا ذاهبة الآن. هل يجلب إليك هنا؟ طيب، يا بيموتشكا، أنهي الدرس بسرعة، ولنذهب لنتنزه.
وخرجت ليزا إلى الفناء.

قال خالها، وهو يتفرس في حياكته:
. ليزانكا، ليزانكا! يبدو أنني أضعت العقدة مرة أخرى. التقطها يا عزيزتي!

. الآن، الآن، حالما أعطي السكر لكي يكسر.
وبالفعل دخلت الحجرة بعد ثلاث دقائق، وتقدمت من خالها،
وأمسكته من أذنه، وقالت ضاحكة:
. هذا جزء لك حتى لا تضيع العقدة. أنت لم تحك حتى ما كلفت به من واجب.

. طيب، كفى، كفى، عدليه. كانت هناك عقدة ما.
استلت ليزا الكلاب، وأخرجت دبوساً من منديلها، الذي عبثت به قليلاً نسمة هبت من النافذة، وأخرجت العقدة بالدبوس، على نحو ما، وسحبها مرتين، وأعطت الكلاب لخالها.
قالت، وهي تقدم له خدها المورد، وتضع الدبوس في موضعه من منديلها.

طبيب، قبلني على ما فعلته لك. هل تريد الشاي مع الروم اليوم؟
فاليوم جمعة.

وذهبت إلى حجرة الشاي مرة أخرى.

ترامى من هناك صوت صдах:

يا خال، تعال أنظر. فرسان قادمون إلينا!

ودخلت أنا فيدروفنا مع أخيها حجرة الشاي التي كانت نوافذها
تواجه القرية لتشاهد الفرسان. كان مجال الرؤية من النافذة صغيراً جداً،
فلم تر إلا جمهوراً يتحرك من خلال الغبار.
قال الخال لأخته:

مؤسف، يا أختي، مؤسف أن المكان ضيق، والجناح لم يتم بناؤه
بعد. وإلا لأسكنا بعض الضباط عندنا. فإن ضباط سلاح الفرسان فتية
أماجد مرحون. وكنا سنمتع أنظارنا بهم على الأقل.

بالطبع، كنت سأكون مسرورة من كل قلبي، ولكنك تعرف بنفسك يا
أخي، أن لا مكان عندنا غير غرفة نومي، وغرفة ليزا الصغيرة، وحجرة
الجلوس، وحجرتك هذه، وهذا كل شيء. فأين نسكنهم؟ احكم بنفسك.
نظف لهم ميخايلو ماتفييف كوخ العمدة، وهو يقول. نظيف أيضاً.
قال الخال:

حبذا لو بحثنا لك، يا ليزوتشكا، على عريس من بينهم، ضابط
فرسان ماجداً.

لا أريد ضابط فرسان، بل أريد ضابطاً أولانياً، ألم تخدم أنت، يا
خالي، في سلاح الأولان؟ أما هؤلاء فلا أريد أن أعرفهم. يقولون إنهم
متهورون جميعاً.

واحمرت ليزا قليلاً، ولكنها ضحكت من جديد ضحكتها الصداقة،
وقالت:

• ها هي أوستيوشكا تجري راكضة. يجب أن نسألها ماذا رأت.
طلبت أنا فيدروفنا استدعاء أوستيوشكا. وقالت حين جاءت:
• أنت لم تقعي للعمل، وكأنما هناك حاجة لأن تجري وتتفرج على
الجنود. طيب، أين أسكنوا الضباط؟
• في بيت آل بيريومكين، يا سيدتي. ضابطان جميلان جداً!
أحدهما كونت، كما يقولون.
• وما اسم عائلته؟
• ربما كازاروف أو توربينوف. اعذروني، لا أتذكر.
• أوه، حمقاء لا تعرف كيف تتحدث. على الأقل لو عرفت اسم
العائلة.

• طيب، سأخطف رجلي.
• آها، أنا أعرف أنك شاطرة في ذلك. لا، لا تذهبي، ودعي دانيلو
يذهب. أبلغه، يا أخي، أن يذهب، ويسأل عما إذا كان الضابطان بحاجة
إلى شيء، يجب أن نجامل في كلامك، وليقل إن السيدة أمرت بذلك.
جلس العجوزان في غرفة الشاي مرة أخرى، بينما ذهبت ليزا إلى
غرفة الخدم لتضع السكر المكسر في صندوق. وكانت أوستيوشا تتحدث
في تلك الغرفة عن الفرسان. كانت تقول:
• يا آنستي، يا عزيزتي، أية وسامة لذلك الكونت، ملاك مجسد
تماماً، أسود الحاجبين، مثل هذا العروس صالح لك خير زوج لخبر زوجة.
ابتسمت الخادومات الأخريات باستحسان، وزفرت المريية العجوز

التي كانت تجلس عند النافذة تحوك جورياً، بل وتلت دعاء مألوفة صدرها بالهواء. قالت ليزا:

«إذن، بهذا الشكل أعجبك الفرسان! ولكنك شاطرة في الكلام. اجلسي شراب الفاكهة، أستيوشا، أرجوك. سنضيف الفرسان على شراب حامض.

وخرجت ليزا من الغرفة ضاحكة تحمل سكرية.

وراحت تفكر: «وددت لو أرى أي فارس هذا. فاحم الشعر أم أشقر؟ أظنه سيكون مسروراً بالتعرف علينا. ولكنه سيذهب من هنا، دون أن يدري أنني كنت أفكر فيه في هذه الساعة. وكم من هؤلاء مروا بي بهذه الطريقة. لا يراني أحد ما عدا خالي وأوستيوشا.

لا أحد يتمتع بمراي مهما مشطت شعري، وأي رذن لبست. فكرت، وقد زفرت، ناظرة إلى يدها البيضاء الممتلئة. لا بد أنه طويل القامة، ذو عينين واسعتين، ولربما له شاربان أسودان صغيران. أوه انقضي اثنان وعشرون عاماً، ولم يتعشقني أحد، غير ايفان ايباتيتش المجذور، وقبل أربعة أعوام كنت أحلى من الآن. وهكذا انقضى شبابي دون أن يجلب مسرة لأحد. آه، أنا تعيسة، تعيسة، أنسة ريفية».

وأخرج الأنسة الريفية من لحظة التفكير هذه صوت أمها يدعوها إلى أن تصب الشاي. نفضت رأسها، ودخلت غرفة الشاي.

إن خير الأشياء ما يأتي بالمصادفة، فأنت مهما تحاول ستزيد النتيجة سوءاً. وفي الريف نادراً ما يجتهد الناس في تربية أولادهم. ولهذا تتوفر لهم بالمصادفة وفي معظم الأحوال، تربية ممتازة. وهذا ما حصل، مع ليزا، على وجه الخصوص. فإن أنا فيدروفنا، لضيق ذهنها،

وطبعها الغائر لم تقدم لليزا أية تربية، فلم تعلمها الموسيقى، ولا اللغة الفرنسية المفيدة للغاية، لكن المصادفة جعلتها تنجب من زوجها المرحوم ابنة موهوبة حلوة، فأعطتها إلى مرضعة ومربية، ووفرت لها الغذاء والملابس القطنية، والأحذية من جلد الماعز، وأرسلتها لتتنزه وتجمع الفطر والأعشاب البرية، وعلمتها القراءة والكتابة والحساب عن طريق طالب لاهوت استأجرته، وبالمصادفة رأت في ليزا، بعد ستة عشر عاماً، صديقة ومديرة بيت مريحة دائماً، طيبة القلب، ذات همّة. وكانت أنا فيدروفا، لنقاء سريرتها، تتبنى دائماً البنات من عوائل الأبقار أو المنبوذات.

وصارت ليزا، وهي في العاشرة، ترعاهن بتعليمهن، وإكسائهن، والذهاب معهن إلى الكنيسة، وتكف حين يتمادين في المشاكسة. ثم جاء الخال الهزيل الطيب، فكان عليها أن تداريه، كما تداري طفلاً. ثم الخدم والفلاحون الذين كانوا يتوجهون للسيدة الشابة بطلباتهم، وعلمهم التي كانت تعالجها باللسان، والنعناع، ومحلل الكافور الأثيري، ثم إدارة البيت، التي انتقلت كلها إلى يديها بالمصادفة. ثم الحاجة غير المشبعة إلى الحب التي لم تجد ما تنعكس عليه إلا الطبيعة والدين. وهكذا نشأت من ليزا، بالمصادفة، امرأة نشيطة، مريحة بصفاة قلب، مستقلة، نقية، متدينة بعمق. وفي الحق كانت هناك لحظات معاناة صغيرة من حب النفس، عندما كانت ترى جاراتها الواقفات على جانبها في الكنيسة في قبعات على الموضة جلبت من ك. وكما كانت هناك لحظات ضيق شديد إلى حد الدموع من نزوات أمها العجوز المتذمرة، وآمال في الحب تتخذ أشكالاً غاية في السخف، وأحياناً فظة ولكن

النشاط النافع الذي صار ضرورة، كان يبدها، وفي سن الثانية والعشرين لم تشب ضمير نفسها الصافية المطمئنة أية شائبة ولا أي تفرع، وهي الفتاة المتطورة المفعمة بالجمال الجسدي والروحي. كانت ليزا متوسطة القامة، أميل إلى البدانة منها إلى النحافة. وكانت عيناها بنيتين غير واسعتين، مع مسحة داكنة خفيفة على الجفنين تحت عينيها، وكانت لها ضفيرة كثانية طويلة. وكانت مشيتها واسعة الخطو، مع تمايل خفيف، مشية البطة، كما يقولون. وكان تعبير وجهها، حين تكون مستغرقة بعمل، ولا شيء يقلقها على وجه الخصوص يقول لكل من نظر إليها: الحياة حلوة ومرحة لمن له من يهدي في هذه الدنيا، وضمير نقي. وحتى في لحظات الضيق، والارتباك، والتوجس أو الحزن، حين كانت الدموع تترقرق في عينيها، ويتقوس حاجبها الأيسر وتنطبق شفثاها، كان قلبها الطيب الصريح الذي لم يفسده التفكير الزائد يفتح - رغم إرادتها - على نقرتي خديها، وعلى طرفي شفثيها، وعلى عينيها اللامعتين المتعودتين على الابتسام، والفرح بالحياة.

١٠٠ -

حين دخلت كوكبة الفرسان قرية موروزوفكا كان الهواء ما يزال حاراً، رغم غروب الشمس. كانت بقرة مبقعة تخلت عن القطيع، تركض إلى الأمام من شارع القرية المترب في عدو سريع متلفسة وهي تجأر متوقفة من حين لآخر دون أن يتحدث بأن كل ما كان عليها أن تفعله هو أن تحيد جانباً. كان شيوخ القرية ونسوتها والأطفال والخدم ينظرون إلى الفرسان بنهم، محتشدين على جانبي الطريق. وكان الفرسان يتقدمون في

سحابة كثيفة من الغبار قارعين الأرض بحوافر خيولهم السحم المشكومة الصاهلة من حين لآخر.

وإلى الجانب الأيمن من الكوكبة كان ضابطان يرقلان مسترخين على صهوتي فرسين أسحمين جميلين. كان أحدهما آمر الكوكبة الكونت تورين، والآخر بولوزوف، وهو فتى في ريعان الشباب، رقى إلى رتبة ملازم ثان قبل وقت قصير.

خرج فارس في صدار أبيض من أحسن كوخ، وخلع قبعته، وتقدم من الضابطين. سأل الكونت:

- أين المسكن المخصص لنا؟

- للياقتكم؟ - أجاب معتمد الإسكان هذا مرتجفاً بكل جسده.

- هنا، في بيت العمدة، نظفوه. طلبت أن يسكنوكم في بيت السيدة، ولكنهم يقولون: لا. فهي مالكة أراض سيئة.

- وليكن، حسناً! - قال الكونت، ونزل من فرسه عطياً رجليه عند

كوخ العمدة، - وهل وصلت عرثتي؟

- نعم، يا صاحب اللبابة، وصلت! - أجاب معتمد الإسكان، مشيراً

بطاقبته إلى حوض عربية جلدي يلوح عند الباب الخارجي، واندفع إلى رواق الكوخ المكتظ بعائلة فلاحية اجتمع أفرادها لرؤية الضابطين. حتى إنه أوقع عجوزاً حينما فتح باب الكوخ المنظف بحركة نشيطة، وتنحى أمام الكونت.

كان المسكن كبيراً إلى حد ما، ورحيباً، ولكنه غير نظيف تماماً. وكان الخادم الألماني يقف هناك بملابس السادة، وقد نصب سريراً حديدياً، وراح يخرج البياضات من الحقيبة. قال الكونت بانزعاج:

- فو! مسكن وضيع! ديدادينكو! ألم يكن من الأفضل تخصيص مكان ما في بيت السيدة؟
أجاب ديدادينكو:

- إذا شئتم، يا صاحب اللياقة، ذهبت وأخرجت أحداً من بيت السيدة. ولكن بيتها قبيح، ولا يبدو أفضل من هذا الكوخ.
- الآن، لم تعد هناك حاجة. اذهب.

واستلقى الكونت على الفراش، ووضعاً يديه وراء رأسه.
- يوحنا! - صاح على خادمه. - مرة أخرى جعلت للفراش حذبة في الوسط! آه، أنت لا تحسن تسوية الفراش مطلقاً.
أراد يوحنا تعديل الفراش.

- لا، لا حاجة الآن... وأين الروب؟ - مضى الكونت يقول بصوت مستاء.

أعطاه الخادم الروب.
نظر الكونت إلى أحد الجناحين قبل أن يلبس الروب.
- كما توقعت. لم تزل البقع. لا أدري هل هناك أسوأ منك خدمة! -
ثم أضاف، وهو ينتزع الروب من يديه، ويلبسه - قل لي: هل تفعل ذلك تعمداً؟... هل الشاي حاضر؟...
أجاب يوحنا:

- الوقت لا يسعني.
- أحمق!

ويعد هذا تناول الكونت رواية فرنسية كان قد جلبها معه، وأخذ يقرأ فيها وقتاً طويلاً بصمت، بينما خرج يوحنا إلى الرواق يشعل

السماور. وكان يبدو أن الكونت في مزاج كدر، فلربما من تأثير التعب،
واغبرار الوجه، وضيق الملابس، وخواء المعدة. صاح مرة أخرى:
- يوحنا! هات حساب الروبلات العشرة التي أعطيتها لك.

ماذا اشتريت في المدينة؟

قدم يوحنا الحساب، فنظر الكونت فيه، وأبدى ملاحظات مستعانة
بخصوص غلاء المشتريات.

- قدم الروم مع الشاي.

قال يوحنا:

- لم أشتري الروم.

- ممتاز! كم مرة قلت لك يجب أن يكون الروم دائماً عندنا.

- لم تكف النقود.

- ولماذا لم يشتري بولوزوف؟ كان يمكن أن تأخذ من خادمه.

- الملائم الثاني بولوزوف؟ لا أدري. اشتري شايًا وسكرًا.

- بهيمة!.. أخرج... أنت وحدك تقدر أن تخرجني عن أطواري...

أنت تعرف أنني دائماً أشرب الشاي مع الروم أثناء المسيرة.

قال الخادم:

- هذه رسالتان لك من هيئة الأركان.

فض الكونت الرسالتين، وهو مستلق، وأخذ يقرأ. دخل الملائم
الثاني بوجه مرح، بعد أن أسكن الكوكبة.

- إذن، كيف، يا توربين؟ يبدو المسكن جيداً. ولكنني متعب

بصراحة. كان الجو حاراً.

- جيد جداً! كوخ تافه عفن، كما لا يوجد روم، بسببك. فإن خادمك

التعبس لم يشتره، وكذلك هذا. على الأقل لو قلت له.

ومضى يقرأ. قرأ الرسالة إلى آخرها، ودعكها، ورمها على الأرض.

وخلال ذلك كان الملازم الثاني يسأل مراسله الجندي في الرواق:

- لماذا لم تشتري الروم؟ فقد كانت معك نقود؟

- يعني وحدنا سنشتري كل شيء! بدون هذا أنا أتحمل كل النفقات،

بينما خادمه الألماني لا يفعل سوى تدخين غليونيه.

لم تكن الرسالة الثانية غير سارة، على ما يبدو، لأن الكونت راح

يقرأها، وهو باسم.

- من أين هذه؟ - سأل بولوزوف، وقد عاد إلى الحجرة، مهيناً له

مضجعاً على ألواح خشبية قرب الموقد.

- من مينا، - أجاب الكونت، وهو يناوله الرسالة. - هل تريد أن

تقرأها؟ أي فتنة في هذه المرأة! حقاً، إنها أفضل من أوانسنا

الكريمات... أنظر كم من الذكاء والعواطف في هذه الرسالة... شيء

واحد سيء أنها تطلب نقوداً.

قال الملازم الثاني:

- نعم، هذا سيء.

- في الحقيقة كنت قد وعدتها، فإذا بهذه الحملة تأتي ثم أن... على

كل حال لو أبقى على رأس الكوكبة ثلاثة أشهر أخرى فسأرسل لها. ليس

في ذلك خسارة، حقاً! أية فتنة هي!... ها؟ - كان يقول مبتسماً، مراقباً

بعينه التعبير المرتسم على وجه بولوزوف، الذي كان يقرأ الرسالة.

أجاب الملازم الثاني:

- كتابة رديئة جداً، ولكنها لطيفة. والظاهر أنها تحبك حقاً.

أحم! بالطبع! ولكن مثل هؤلاء النساء لا يحببن، إلا حين يحببن
عن صدق.

وتلك الرسالة من أين؟ - سأل الملازم الثاني وهو يعيد الرسالة التي
كان يقرأها.

- لا شيء... من سيد، قذر جداً، مدين له في لعب الورق، وها هو
للمرة الثالثة يذكرني، ويسأل هل أستطيع أن أرد له دينه الآن... رسالة
بليها! - رد الكونت منزعجاً، على ما يبدو، من هذه الذكرى.

صمت الضابطان كلاهما لوقت طويل، بعد هذا الحديث. راح الملازم
الثاني الذي كان واقعاً تحت تأثير الكونت، على ما يبدو، يشرب الشاي
صامتاً، محدقاً، من حين لآخر، بمظهر توربين الجميل المغيش، والكونت
يحدق متفرساً في النافذة، غير عازم على أن يبادر بالحديث.

وفجأة قال الكونت، وهو يلتفت إلى بولوزوف، وقد هز رأسه بمرح:
- ربما سيكون الأمر على ما يرام. فإذا كانت هناك ترقيات في خطنا
في هذه السنة، وانشغلنا في عمليات إضافية إلى ذلك، استطعت أن
أسبق أصحابي من رؤساء الحرس.

واستمر الحديث في هذه الموضوع عند شرب القدرح الثاني من الشاي
أيضاً، حين دخل دانيلو، ونقل ما أمرت به أنا فيدروفنا.

- كما طلبت أن أسأل عما إذا كنت، سيادتكم، ابن الكونت فيدور
ايفانبيتش توربين؟ - أضاف دانيلو من عنده، وكان يعرف اسم عائلة
الضابط، وما يزال يتذكر قدوم الكونت الراحل إلى مدينة ك. - كانت
سيدتنا، أنا فيدروفنا، تعرفه جيداً.

- كان هذا أبي. ثم قل للسيدة إننا ممتنون جداً، ولسنا بحاجة إلا لأن
تأمر بأن تخصص لنا حجرة أنظف في البيت، أو في مكان آخر.

وعندما خرج دانييلو قال بولوزوف:

- ولم قلت هذا؟ وما الفرق؟ ما هي إلا ليلة واحدة نقضيها هنا أو هناك، ولا فرق. أما هم فسنضايقهم.

- كلام زائداً كفانا مبيتاً في البيوت الداخنة! منذ الآن يظهر أنك لست بالرجل الواقعي. ولماذا لا تنتهز الفرصة لو سنحت لنا أن ننام مثل الناس ليلة واحدة على الأقل؟ وهم، على العكس، سيكونون مرتاحين جداً. شيء واحد مزعج، إذا كانت هذه السيدة تعرف والذي بالفعل، - مضى الكونت يقول كاشفاً بابتسامة عن أسنانه البيض اللامعة - فأنا أحس دائماً بالخجل من المرحوم أبي فقد كانت هناك دائماً قصة فاضحة أو دين. ولهذا لا أطيق الالتقاء بمعارف أبي. على العموم كان ذلك جيلاً آخر، - أضاف ويجدية هذه المرة.

قال بولوزوف:

- ألم أخبرك بأنني التقيت ذات مرة بأمر اللواء الأولاني إيلين. وكان بود كثيراً أن يراك، فقد كان يحب والدك عظيم الحب.

- يبدو أن إيلين هذا تافه للغاية. والمهم أن كل هؤلاء السادة كانوا يؤكدون بأنهم كانوا يعرفون أبي ليكسبروا حظوتي، فيقصون عن أبي حكايات يخجل المرء من سماعها، ولكنهم يقصونها وكأنها أشياء لطيفة. في الحقيقة - وأنا لا أبالغ وأنظر إلى الأشياء نظرة محايدة - إنه كان رجلاً مشبوب العاطفة للغاية، وأحياناً كان يأتي أشياء غير محمودة. وعلى كل حال، كان ذلك بسبب زمانه، ولو عاش في زماننا لربما كان رجلاً كفوءاً للغاية، لأن قابلياته كانت ضخمة، ويجب أن ينصف.

بعد ربع ساعة عاد الخادم، ونقل رجاء مالكة الأراضي بالتفضل والمبيت عندها.

بدا الاهتمام على أنا فيدروفنا، حين علمت أن ضابط الفرسان هو ابن الكونت فيدور تورين، وقالت:

- أوه، يا أوليائي! إنه حمامتي!... يا دانيلو، أسرع وقل له إن السيدة تدعوك إليها، - وخفت إلى حجرة الخدم بخطوات سريعة.
- ليزانكا! أوستيوشكا! يجب أن تهيني حجرتك، يا ليزا. انتقلي إلى حيث يعيش خالك، وأنت، يا أخ... يا أخي، نم في حجرة الجلوس. لا يهم لليلة واحدة.

- لا يهم، يا أختي. سأضطجع على الأرض.
- أظنه جميلاً، إذا كان طالعاً على أبيه. على الأقل لو أنظر إليه، إلى محبوبي... فقط أن يكون في علمك أن أباه كان وسيماً، يا ليزا. إلى أين ننقل هذه الطاولة؟ ضعها هنا، - قالت أنا فيدروفنا منشغلة، - اجلبي سريرين. خذي واحداً من القهرمان.

ثم خذي من الصوان الشمعدان البلور الذي أهده لي أخي في عيد قديسي الشفيع، وضعي شمعة ذهبية فيه.

وأخيراً تهيأ كل شيء. وأعدت ليزا غرفتها للضابطين على ذوقها الخاص، رغم تدخل أمها. وأخرجت بياضات للسريير نظيفة معطرة بعطر الخزامى، وهبأت السريرين. وأمرت بوضع دورق للماء وشموعاً على طاولة قرب السرير، وأحرقت بعض أوراق البخور في حجرة الخادومات، وسوت فراشها في غرفة خالها. هدأت أنا فيدروفنا قليلاً، وجلست في مكانها ثانية، بل وتناولت شدة الورق، ولكنها لم تستخرها، واتكأت على مرفقها الممتلئ، واستغرقت تفكر. وهمست في سرها مؤكدة: «آه،

الزمن، الزمن، كيف ينقضي بسرعة. وهل انقضى وقت طويل؟ كأنني أراه الآن. آه، كم كان عابثاً! - وتندت عينها بالدموع. - الآن ليزانكا... ولكنها ليست هي كما كنت أنا في سنها... فتاة حلوة، ولكنها ليست كما كنت...».

- ليزانكا، حبذا لو ارتديت ثوبك الموسلين دولين للمساء.

- ولكن هل ستستضيفينهما، يا ماما؟ الأفضل لا، - أجابت ليزا،

شاعرة بانفعال قاهر، لدى تفكيرها بأنها سترى الضابطين - الأفضل أن لا تفعل، يا ماما!

وبالفعل كانت لا تشعر بالرغبة في رؤيتهما، بقدر ما كانت تخاف من سعادة مثيرة كانت تتخيل أنها في انتظارها.

- ربما سيرغبان هما في التعرف، ليزانكا! - قالت أنا فيدروفنا، وهي

تمسد على شعرها، وتفكر في الوقت ذاته: «لا، ليس كذلك الشعر الذي كان لي في تلك السنين... أوه، يا ليزانكا، كأنني أتمنى لك...» وبالفعل كانت تتمنى لابنتها شيئاً وشدة، ولكن ما كان في ميسورها أن تتصور زواج ابنتها بالكونت؛ كما ليس من الممكن لها أن ترغب في علاقات من تلك التي كانت لها مع أبيه، ولكنها كانت ترغب جداً، جداً في شيء لابنتها، فلعلها كانت تود أن تعيش مرة أخرى في شخص ابنتها تلك الحياة التي عاشتها مع الراحل.

كما كان ضابط الخيالة العجوز قلقاً بعض الشيء من قدوم الكونت. دخل حجرته، وأغلق بابها عليه. وبعد ربع ساعة خرج منها في صدار خيالة مقصب، وينطال أزرق، ودخل إلى الحجرة التي أعدت للضيفين، وقد ارتسم على وجهه رضى مرتبك، كذلك الذي يرتسم على وجه فتاة ترتدي ثوباً للرقص لأول مرة.

- لأنظر أي فرسان هم فرسان اليوم، يا أختي! لقد كان الكونت الراحل فارساً حقاً. لأنظر، لأنظر.

وكان الضابطان قد دخلا إلى الحجرة المخصصة لهما من المدخل الخلفي.

- هاك أنظر، - قال الكونت، وهو يستلقي على الفراش المعد له، كما هو، في حذائه المترب الطويل العنق. - أليس هذا أفضل من كوخ الصراصير ذاك؟

- أفضل، أفضل، ولكننا سنكون مدينين لأهل البيت...

- هراء! يجب أن تكون واقعياً في كل شيء. أظنهم مرتاحين تماماً... ثم صاح: - يا خادم! أطلب شيئاً نسد له على هذه النافذة وإلا فسيحصل تيار في الليل.

وفي ذلك الحين دخل العجوز ليتعارف مع الضابطين. وطبعي أنه رغم احمراره قليلاً، لم يحجم عن القول بأنه كان رقيقاً للكونت الراحل، وبأنه كان يتمتع بالحظوة عنده، بل وقال إنه صاحب أفضال على المرحوم. وطبعي أن العجوز لم يوضح فيما إذا كان يشير بهذه الأفضال على المرحوم إلى المانة رويل التي استدانها الكونت منه ولم يردّها، أو إلى إلقاء الكونت له على تل الثلج، أو إلى شتمه له. أبدى الكونت الشاب احترامه الشديد لضابط الخيالة العجوز، وشكره على إيوائه.

- أعذرونا على تواضع مسكننا، يا كونت (وكاد يقول يا صاحب السيادة، فقد نسي الآن كيف يخاطب الناس ذوي الأهمية) بيت أختي صغير. وسنعلق الآن شيئاً على النافذة، وسيكون مريحاً. أضاف العجوز ذلك وخرج من الغرفة شاحطاً بقدميه متذرعاً بالستارة، فالأهم أن يتحدث أسرع ما يمكن عن الضابطين.

جاءت أوستيوشكا الحلوة ومعها شال السيدة لتعلقه على النافذة بدل الستارة. وفضلاً عن ذلك أمرتها السيدة بأن تسأل فيما إذا كان السيدين يحببان أن يشربا الشاي.

والظاهر أن السكن المريح أثر تأثيراً طيباً في مزاج الكونت. فقد أخذ يتمازح مع أوستيوشكا مبتسماً بمرح، حتى إن أوستيوشكا نعتته بالعابث، وسألها هل سيدتهم الصغيرة مليحة، وأجاب على عرضها الشاي بأن الشاي لا بأس لو قدم، ولكن الأهم منه - ما دام عشاؤه لم يحضر بعد - أن يقدم شيء من الفودكا، وبعض المشروبات وليكيور الخيرس، إن وجدت.

كان الحال مغتبطاً من احترام الكونت الشاب له، رفع إلى السماء الجليل الفتي من الضباط، قائلاً إن رجال اليوم أكثر تقدماً من رجال الجليل السابق بما لا يقاس.

ولم توافقه أنا فيدروفنا - فليس هناك من يفضل الكونت فيدور ايفانيتش - وأخيراً غضبت عن جد، واكتفت بالقول في جفاف: «بالنسبة لك، يا أخي، آخر من أطرى عليك هو الأفضل. من المعروف، بالطبع، أن الناس الآن صاروا أكثر ذكاءً، ومع ذلك فإن الكونت فيدور ايفانيتش كان يجيد رقصة الايكوسيس ويتلطف مع الناس، حتى كانوا يجنون به جنوناً، إذا أمكن القول. سوى أنه لم يتعرف إلا علي. ومعنى ذلك كان هناك أناس طيبون، حتى في الماضي».

وفي تلك اللحظة وصل الخبر بأن الكونت يريد فودكا ومشهيات وليكيور الخيرس. فبادرت أنا فيدروفنا تقول:

- طيب، ما رأيك، يا أخي! دائماً لا تفعل ما ينبغي عليك أن

تفعله. كان يجب أن يؤمر بتهيئة العشاء. ليزا، تصرفي، يا صديقتي العزيزة!

هرعت ليزا إلى حجرة المؤنة لجلب الفطر والزبدة الطازجة، وطلبت من الطباخ أن يهيئ كفتة محمصة.

. لا أدري هل بقيت عندك خيرس، يا أخي؟

. لا، يا أختي. ولم تكن عندي.

. كيف لا! أنت تشرب شيئاً مع الشاي؟

. هذا روم، يا آنا فيدروفتا.

. وهل هناك فرق؟ قدم الروم، على أية حال. ثم أليس من

المستحسن دعوتهما إلى هنا، يا أخي؟ أنت تعرف كل شيء. أظنهما لا يتكدران من ذلك.

وأعلن ضابط الخيالة أنه يتعهد بأن الكونت لما له من طيبة لن يرفض، وأنه سيأتي بهما حتماً. وذهبت آنا فيدروفتا لتلبس ثوبها من الحرير السميك للمناسبة. وقلنسوتها الجديدة. وكانت ليزا مشغولة جداً، بحيث لم يتسن لها الوقت لشغل ثوبها القطني الوردي الذي كانت تلبسه بردنيه العريضين. كما أنها كانت منفعلة بشكل مريع، فقد كانت تتخيل أن في انتظارها شيئاً مذهلاً، وكأن سحابة سوداء واطئة تخيم على قلبها. فقد تصورت هذا الكونت الفارس، الجميل، مخلوقاً جديداً عليها تماماً، غير مفهوم، ولكنه بديع. وتخيلت أن خلقه وعاداته وكلامه لا بد أن تكون غير اعتيادية كلها لم تصادفها من قبل. وكل ما يفكر فيه ويقول لا بد أن يكون ذكياً وصادقاً. وكل ما يفعله أو يأتيه لا بد أن يكون نقياً، وكل مظهره لا بد أن يكون رائعاً. ولم يراودها شك في ذلك.

فلو كان قد طلب حماماً من العطور، لا المشهيات وليكيور الخيرس،
لما اندهشت، ولما اتهمته بشيء، ولظلت شديدة الوثوق بأن ذلك ضروري
ولازم للغاية.

وافق الكونت على الفور حين أعرب الضابط الخيالة عن رغبة أخته،
فمشط شعره، ولبس معطفه، وأخذ علبة سكاثره. وقال لبولوزوف:
- لنذهب.

- الأفضل أن لا نذهب، حقاً، - أجاب الملازم الثاني، -

*. Ils feront des frais pour nous recevoir

قال الكونت بالفرنسية:

- هراء. سيسعدهم ذلك. كما أنني استطلعت بالفعل، وعرفت أن

لهم ابنة حلوة... لنذهب.

le vous en prie, messieurs. ** قال الضابط ذلك لمجرد أن يشعر

صاحبه بأنه هو الآخر يعرف الفرنسية، وفهم ما قاله الكونت.

- ١٢ -

احمرت ليزا، وغضت بصرها، وتظاهرت بأنها مشغولة بصب
الشاي، خائفة من النظر إلى الضابطين، حين دخلا الغرفة. وعلى العكس
من ذلك هبت أنا فيدروفنا عجل، وانحنيت، وأخذت تتحدث للكونت
دون أن تصرف بصرها عن وجهه، عن الشبه الشديد التي تجده بينه وبين
أبيه، ثم تقدم له ابنتها، ثم تعرض عليه الشاي والمربى أو معجنات

* سيذرون لكي يستقبلونا (بالفرنسية) .

** تفضلوا ، يا سادة (بالفرنسية) .

الفاكهة الريفية. ولم يلق أحد التفاتاً إلى الملازم الثاني لمظهره المتواضع مما سره كثيراً، لأنه ظل، بقدر ما تسمح اللياقة، يتمتع وينفذ إلى الدقائق في جمال ليزا التي بهرته بشكل مبالغت، على ما يظهر. وكان الحال، وهو يستمع إلى حديث أخته مع الكونت، ينتهز الفرصة السانحة، وقد هباً الكلام على لسانه، ليتحدث عن ذكرياته، وهو ضابط خيالة.

أشعل الكونت على الشاي سيغاره القوي الذي كانت ليزا بسببه تجدد صعوبة في كبح سعالها، وصار أكثر ميلاً إلى الحديث، وحلاوة المعشر، في البداية كان يدخل حكاياته في فترات الانقطاع التي كانت تنشأ في أحاديث آنا فيدروفنا المتواصلة ثم سيطر على الحديث كلياً في آخر الأمر. شيء واحد غريب بعض الشيء أذهل المستمعين إليه. وهو أنه في حكاياته كان غالباً ما ينطق بكلمات جريئة نوعاً ما، وإن كانت لا تعتبر مؤذية في مجتمعه، حتى إن آنا فيدروفنا فزعت قليلاً، أما ليزا فقد احمرت حتى أذنيها، ولكن الكونت لم يلحظ ذلك، وظل كما هو بسيطاً هادئاً ولطيف المعشر.

كانت ليزا تصب الأقداح صامتة، دون أن تسلمها إلى أيدي الضيفين، بل تضعها على مقربة منهما. وتستمع إلى أحاديث الكونت، وهي ما تزال غير متغلبة على انفعالها. كانت بساطة حكاياته، وتلغثه في الحديث يهدنانها شيئاً فشيئاً. لم تسمع منه أشياء ذكية جداً، كما كانت تتوقع، ولم تجد في كل شيء تلك الأناقة التي كانت تتوقع بشكل مبهم أن تجدها فيه. وحتى في القدر الثالث من الشاي بعد أن التقت عينها المتهيبتان ذات مرة بعينه، فلم يخفضهما، وتابع النظر إليها بهدوء جم مبتسماً ابتسامة خفيفة، شعرت حتى بشيء من العداء نحوه،

وسرعان ما وجدت أنه خلو من أي شيء مميز، بل ولا يختلف في شيء عن جميع الذين رأتهم، ولا يستحق منها أن ترهبه، لا شيء سوى أظافر نظيفة، طويلة، بل وليس فيه أي جمال ملحوظ. وفجأة تخلت ليزا عن حلمها، وليس بدون شيء من الوحشة الباطنية، ولم تقلقها إلا نظرة الملازم الثاني الصموت، تلك النظرة التي كانت ليزا تشعر بأنها مصوبة إليها. وراحت تفكر: «ربما ليس هو، بل هذا!».

١٣.

بعد الشاي دعت العجوز الضيفين إلى حجرة أخرى، وجلست في مكانها من جديد. وسألت:

- ربما تريد أن تستريح، يا كونت؟ - وبعد أن تلقت جواباً بالنفي تابعت تقول: - بم أسامركما، يا ضيفي العزيزين؟ أتلعب الورق يا كونت؟ حبذا يا أخي، لو سامرنا، ولعبت معنا لعبة ما.
أجاب ضابط الخيالة:

- ولكنك تجيدين لعبة البرفيرنس، فالعبوها سوية. ألا تريد، يا كونت، وأنت ألا تريد أن تلعب؟

أعلن الضابطان موافقتهما على أن يفعل كل ما يحب أهل البيت الكرام.

جلبت ليزا من حجرتها شدة ورق قديمة كانت تستخبرها فيما إذا كان وجع الأسنان سيزايل أنا فيدروفنا قريباً، أو هل يعود الحال من المدينة اليوم، حين يخرج إليها، أو هل ستأتي الجارة اليوم لزيارتهم، إلى غير ذلك. وكانت شدة الورق هذه، رغم استخدامها شهرين، أنظف من شدة الورق التي كانت أنا فيدروفنا تستخبرها.

سأل الخال:

- ربما لا تحبان أن تلعبا برهان صغير، بينما أنا وأنا فيدروفنا نلعب بنصف كوبيك... ومع ذلك تغلبنا جميعاً.

أجاب الكونت:

- آه، أنا مسرور بأي رهان تشاؤون.

- طيب، بكوبيك من أوراق النقد. وليكسب الضيفان العزيزان كل نقودي، أنا العجوز، إذا كان ذلك ملائماً لهما، - قالت أنا فيدروفنا ذلك، وهي تترعب على مقعدها الوثير، وتعدل طرحتها.

بينما قالت لنفسها: «أو ربما أكسب منهما روبلاً» - وقد صار لعب الورق هواية صغيرة في شيخوختها، قال الكونت:
- إذا شئت علمتك لعبة طريفة جداً.

وأعجب الجميع كثيراً بلعبة بطرسبورغ الجديدة هذه. وأنشأ الخال يؤكد أن هذه تشبه لعبة البوستون، ولكنه قد نسيها قليلاً. أما أنا فيدروفنا فلم تفهم شيئاً، وبقيت على عدم فهمها وقتاً طويلاً حتى اضطرت إلى أن تبتسم وتهز رأسها باستحسان، وتؤكد على أنها تفهم الآن، وأن كل شيء واضح لها. وحدث الكثير من الضحك، في وسط اللعبة، حين طرحت أنا فيدروفنا الآس والمملك فقط، بعد أن قالت «ميزر» وأبقت بيدها الستة. بل أخذت ترتبك، وتبتسم بتخوف، وتؤكد على عجل أنها لم تتعود بعد تماماً على اللعبة الجديدة. ومع ذلك فقد سجلوا عليها كثيراً، لا سيما وأن الكونت الذي تعود أن يلعب للريح كان يلعب بتحفظ، وعموه بشكل جيد جداً، ولم يفتن قط إلى ضربات التنبيه التي كان زميله الملازم الثاني يرسلها برجله إليه تحت الطاولة، وإلى أخطائه الشديدة في الأوراق التي يطرحها.

جلبت ليزا معجنات أخرى من الفواكه، وثلاثة أنواع من المربى،
وتفاحات مخمرة بطريقة خاصة، ووضعتها وراء ظهر أمها، وراحت تتفرج
على اللعب، ناظرة من حين إلى آخر إلى الضابطين، ولا سيما إلى يدي
الكونت البيضاوين بأظافرهما المقلمة الوردية الرقيقة، حين كانت هاتان
اليدان تلقيان الأوراق وتأخذان المكاسب عن خبرة وثقة وبطريقة جميلة.

ومرة أخرى، أصاب أنا فيدروفنا بعض الحماس، وتكلفت بأن تريح
سبعة مكاسب في سباقها مع الآخرين، ولكنها قصرت عن رهانها
بأربعة، وبناء على طلب أخيها خطت رقماً مشوهاً، وتحيرت واستعجلت.
- لا تهتمي، يا ماما، ستردين خسارتك، - قالت ليزا باسمه راغبة
أن تخرج أمها من الوضع المضحك الذي وقعت فيه. - ستوقعين خالي،
وعندئذ سيكون في وضع لا يحسد عليه.

- على الأقل لو ساعدتني، يا ليزوتشكا! - قالت أنا فيدروفنا، وهي
تنظر إلى ابنتها برعب. - لا أعرف كيف...

أجابت ليزا، وهي تعد في سرها خسائر أمها:

- ولكنني لا أعرف كيف ألعب هذه اللعبة أيضاً. وخسارتك حتى
الآن كثيرة، يا ماما! - وأضافت مازحة، - لن يبقى ما تشتري لبيموتشكا
ملابسها.

قال الملازم الثاني وهو ينظر إلى ليزا، ويود التحدث معها:

- نعم، بهذا الشكل يمكن أن تخسري عشرة روبلات فضية بسهولة.

فسألت أنا فيدروفنا، وهي تحجبل بصرها في الجميع:

- ألسنا نلعب بأوراق النقد؟

قال الكونت:

• لا أدري. ولكنني لا أعرف كيف أحسب بأوراق النقد. كيف ذاك؟
أقصد ما هي أوراق النقد هذه؟
• نعم، لا أحد يحسب الآن أوراق النقد. • بادر الخال، الذي كان يلعب بشحة، وكان يريح.

طلبت العجوز أن تعد منقوع الفواكه الفوار، وشريت قدحين، واحمرت، وبدت، وكأنها يائسة من كل شيء. بل وإنها لم تعدل خصلة شعرها الأشيب التي أفلتت من تحت القلنسوة. ولربما بدا لها أنها خسرت الملايين، وألقت نفسها في التهلكة كلياً. وكان الملازم الثاني يخز الكونت برجله أكثر فأكثر. وكان الكونت يسجل خسارات العجوز. وأخيراً انتهت اللعبة. ومهما حاولت أنا فيدروفنا أن تضيف إلى حساباتها، ضاغطة على ضميرها، وتظاهر بأنها تخطأ في الحساب، ولا تستطيع أن تحسب، ومهما ارتعبت من ضخامة خسارتها، تبين في نهاية الحساب أنها خسرت تسعمائة وعشرين رهاناً وكانت تسأل عدة مرات «أيساوي هذا تسعة رويلات من أوراق النقد؟» ولم تدرك جسامه خسارتها، إلا حين أوضح لها أخوها، وهي مذعورة، أنها خسرت اثنين وثلاثين رويلاً ونصفاً من أوراق النقد، وأن عليها أن تدفع لا محالة. ونهض الكونت بعد نهاية اللعب، حتى دون أن يحصي ربحه، وتقدم من النافذة التي كانت ليزا تضع المشهيات عندها، وتخرج الفطر من اللعبة إلى صحن للعشاء، وقام بهدوء تام وبساطة بما كان الملازم الثاني يريده طوال المساء، ولا يستطيع إتيانه، إذ دخل مع ليزا في حديث عن الطقس.

وكان الملازم الثاني في ذلك الوقت يجد نفسه في وضع محرج للغاية. وطفح غضب أنا فيدروفنا صراحة بعد أن حافظت على مزاجها

المرح، حين خرج الكونت وليزا بشكل خاص. قال بولوزوف لمجرد أن ينطق بشيء ما:

- على أية حال مؤسف أن يجعلوك تخسرين بهذا الشكل. إن ذلك مخجل تماماً.

- وعلاوة على ذلك ابتدعوا لعبة الجداول والميزارات هذه، وأنا لا أعرفها. - راحت تسأل: - كم المجموع في أوراق النقد؟

- اثنان وثلاثون روبلاً، اثنان وثلاثون ونصفاً، - كان ضابط الخيالة يردد، طلق الأسارير مما كسب. - هاتي النقود، يا أختي... هاتي.

- سأعطيكم كل شيء. ولكن لن تظفروا بي مرة أخرى. وحتى لو حصل فلن أستطيع أن أسترده خسارتي طوال حياتي.

وذهبت أنا فيدروفنا إلى حجرتها في مشية سريعة متمايلة، وعادت، وجلبت تسعة روبلات من أوراق النقد، ولم تدفع كل ما عليها إلا بعد مطالبة أخيها الملحة.

خشي بولوزوف قليلاً من أن تفرعه أنا فيدروفنا، إذا دخل في حديث معها. فانصرف عنها بتؤدة وصمت، وانضم إلى الكونت وليزا اللذين كانا يتحدثان عند النافذة المفتوحة.

كانت شمعتان من الشمع تضيئان في الحجرة على المائدة التي أعد العشاء عليها. وكان نسيم ليلة أيار الطري الدافئ بداعب ضوئيهما من آن لآخر. كما كانت النافذة المطلة على الحديقة مضاءة أيضاً، ولكن بضوء يختلف كلياً عن ضوء الحجرة. وكان البدر التمام تقريباً، وقد فقد لمعته الذهبية يطوف فوق قمم أشجار الزيزفون العالية، وبضيء أكثر فأكثر الغيوم البهيم البهيم الرقيقة التي كانت تحجبه أحياناً، وكانت الضفادع

تنق في البركة التي كانت تلوح من خلال الدرب المعرش، وقد فضض
البدر جانباً منها.

وكانت بعض الطيور الصغيرة تتقافز قليلاً وتنفس ريشها تحت
النافذة تماماً، في دغل الليلك العبق الذي كان يهز أزهيره الندية ببطء
وبين حين وآخر.

قال الكونت، وهو يقترب من ليزا، ويجلس على النافذة الواطئة:

- أي طقس رائع! أظن أنك تتنزهين كثيراً.

- نعم، - ردت ليزا دون أن تشعر الآن، لسبب ما، بأي ارتباك في

الحديث مع الكونت، - في الصباح أطلع لشؤون البيت في حوالي الساعة
السابعة، فأنزله قليلاً مع بيموتشكا، الفتاة التي تبتنها أُمي.

- الحياة في القرية لطيفة، - قال الكونت بعد أن وضع العدسة على

عينه، وراح ينظر إلى الحديقة مرة، وإلى ليزا مرة أخرى. - وفي الليالي،
ألا تتنزهين في ضوء القمر؟

- لا، ولكن قبل عامين كنت أتنزه مع الخال، حين يطلع القمر. كان

عنده مرض غريب: الأرق. ما أن يكمل القمر وبصير بدمراً حتى يأرق.
وحجرت هذه تطل على الحديقة، والنافذة واطئة. والقمر يضرب عليه.

قال الكونت:

- غريب، يبدو أن هذه حجرتك؟

- لا، هنا سأنام اليوم فقط. حجرتي تسكنونها.

- صحيح؟... آه، يا إلهي!... طوال حياتي لن أغفر لنفسي إقلاقي

لك بهذا الشكل، - قال الكونت ملقياً العدسة عن عينه إمارة على صدق
عاطفته، - لو كنت أعرف أنني سأزعجك.

• لا إزعاج! على العكس، أنا مسرورة جداً. فإن حجرة خالي رائعة بهيجة، والنافذة واطئة، وسأجلس هناك حتى أغفو، أو أعبر النافذة إلى الحديقة، وأتتره في الليل أيضاً.

وفكر الكونت مع نفسه وقد وضع العدسة على عينه من جديد: «أية فتاة ماجدة!»، ونظر إليها، وحاول متظاهراً بالجلوس على النافذة أن يمس قدمها بقدمه، وتابع تفكيره: «وبأية طريقة مأكرة أشعرتني بأنني أستطيع أن أراها عند النافذة في الحديقة، إذا كنت أريد». حتى إن ليزا فقدت جزءاً كبيراً من فتنتها في عينيه، لأن الظفر بها لاح له سهلاً. قال الكونت، وهو ينظر ساهماً إلى الدروب المعرشة المعتمة:

• متعة رائعة، بالتأكيد، قضاء مثل هذه الليلة في حديقة مع الشخص الذي تحببته.

ارتبكت ليزا قليلاً لهذه الكلمات، ولتكرار مسه لقدمها، وكأن ذلك عرضاً. وقبل أن تفكر قالت شيئاً لمجرد أن لا يلحظ عليها ارتباكها. قالت: «نعم، التزهة رائعة في الليالي المقمرة». وأحست بشيء من الامتناع. ربطت العلبة التي كانت تضع منها الفطر، وهمت بالابتعاد عن النافذة حين أقبل الملازم الثاني عليها، فأرادت أن تعرف أي شخص هو. قال الملازم الثاني:

• يا له من ليل فاتن!

فكرت ليزا مع نفسها: «كلكم تتحدثون عن الطقس لا غير».

ومضى الملازم الثاني يقول:

• أي منظر خلاب! • وأضاف: • ولكنني أعتقد أنكم قد ضجرت من •

متحدثاً حسب طبيعته المجهول عليها عن أشياء تجلب بعض الضيق للذين يعجب بهم كثيراً.

- ولماذا تظن ذلك؟ قد يضجر الإنسان من الطعام الواحد، واللباس الواحد، ولكنه لا يضجر من الحديقة الجميلة، حين يحب التمشي فيها، لا سيما حين يرتفع القمر في كبد السماء. البركة كلها ترى من غرفة خالي. سأنظر اليوم.

- لا أظن لديكم بلابل؟ - قال الكونت وقد استاء كثيراً من قدوم بولوزوف، وإعاقته له عن معرفة شروط اللقاء النهائية.

- بلى، كانت عندنا دائماً. ولكن الصيادين اصطادوا واحداً في السنة الماضية، وفي الأسبوع الماضي سمعت بلبلاً يغرد تغريداً جميلاً، ولكن رئيس شرطة القضاء جاء بعريته ذات الجرس، وأرعبه. قبل عامين كنت وخالي نجلس في درب معرّش تحت الأشجار ونستمع إلى تغريده حوالي ساعتين.

قال الخال، وهو يقترب من المتحدثين:

- ماذا تحدثكما هذه الثرثرة؟ ألا تحبان أن تتمززا؟

خلال العشاء استطاع الكونت بإطرائه للطعام وشهيته، أن يخفف قليلاً من مزاج السيدة العكر، وبعد ذلك استأذن الضابطان، وذهبا إلى حجرتهما. بعد أن صافح الكونت الخال، فأدهش آنا فيدروفنا بذلك، وشد على يدها أيضاً، دون أن يقبلها، وصافح يد ليزا، محدقاً في عينيها، خلال ذلك، وابتسم ابتسامته اللطيفة الخفيفة. وأريكت هذه النظرة الفتاة مرة أخرى.

وفكرت مع نفسها: «حلو جداً، ولكنه يهتم بنفسه كثيراً».

قال بولوزوف حين عاد الضابطان إلى حجرتهما:

. طيب، ألا تستحي؟ حاولت عن عمد أن أخسر، وكنت أؤخرك
بقدمي تحت الطاولة. طيب، ألا تخجل؟ العجوز تضايقت تماماً.
ضحك الكونت بقهقهة عالية.

. يا لها من سيدة مضحكة! كم تأذت!

وعاد إلى الضحك، حتى إن خادمه يوحنا، الواقف أمامه، أطرق
بصره، وابتسم ابتسامة خفيفة في ناحية.

. ابن صديق العائلة، هذا أنا!... ها، ها، ها. مضى الكونت بضحك.

قال الملازم الثاني:

. ليس هذا صحيحاً، بالفعل. حتى أخذتني الشفقة عليها.

. هراء! ما تزال غراً! يعني كنت تريدني أن أخسر؟ ولماذا يجب أن

أخسر؟ كنت أخسر، حين كنت لا أجيد اللعب. عشرة روبلات تنفع، يا
أخ. يجب أن تنظر إلى الحياة نظرة واقعية، وإلا فستستغفل دائماً.

لزم بولوزوف الصمت. وفضلاً عن ذلك كان يريد أن يفكر لوحده في
ليزا التي بدت له مخلوقاً نقياً بشكل غير اعتيادي، ورائعاً. خلع
ملابسه الخارجية، واستلقى على الفراش الناعم التنظيف المعد له.

فكر وهو ينظر إلى النافذة التي أسدل عليها شال، والتي تتسلل
منها أشعة القمر: «أي هراء هذه الأمجاد والشرف العسكري!

السعادة هنا، في العيش في ركن هادئ، مع زوجة حلوة ذكية
بسيطة! هذه هي السعادة الراسخة الحقيقية!».

ولكنه، لسبب ما، لم يعلن هذه الأمانى لصديقه، بل ولم يرد على

لسانه ذكر للفتاة الريفية، رغم أنه كان واثقاً أن الكونت أيضاً يفكر فيها.

سأل الملازم الثاني الكونت الذي كان يتمشى في الحجرة:

«لماذا لا تخلع ملابسك؟»

«لا يأتيني النوم بعد، لسبب ما. اطفئ الشمعة، إذا شئت.

سأستلقي بدونها.

ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهاباً.

«لا يأتيني النوم بعد، لسبب ما، كرر بولوزوف، وهو يشعر نفسه

بعد أمسية اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، بتأثير الكونت السيئ

والقادر على أن يثيره ضده. فكر مع نفسه يخاطب تورين في سره: «أنا

أتصور أبة أفكار تدور الآن في رأسك ذي الشعر المصفف! لقد رأيت

مبلغ إعجابك بها. ولكنك عاجز عن فهم هذا المخلوق البسيط الطاهر.

ما تريده هو مينا ورتبة العقيد. فلأسأله، بالفعل، ما رأيه فيها».

واستدار بولوزوف نحوه، ولكنه تخطى عن فكرته. فقد شعر ليس

فقط بعدم قدرته على مناقشته إذا كان رأي الكونت في ليزا هو نفس

الرأي الذي كان يتصوره، بل وبعدم قدرته على أن لا يوافق على ذلك.

إلى هذا الحد تعود إلى الخضوع للتأثير الذي كان يزداد كل يوم ثقلًا

عليه، وإجحافاً به.

«إلى أين؟» سأل، حين لبس الكونت طاقيته، وتقدم من الباب.

«ذهب إلى الإسطنبول، لأرى هل كل شيء على ما يرام.

«غريب!» فكر الملازم الثاني، ولكنه أطفأ الشمعة، محاولاً أن

يطرد ما تسللت إلى ذهنه من أفكار الغيرة السخيفة والعداء نحو

صديقه السابق، واستدار إلى جنبه الآخر.

وخلال ذلك كانت أنا فيدروفنا قد رسمت علامة الصليب، وقبلت بركة، وعلى مألوف عاداتها، أخاها، وابنتها، والفتاة التي تبنتها، وانصرفت إلى غرفتها أيضاً. فقد مضى زمن طويل، والعجوز لم تشهد في يوم واحد هذا القدر الذي شهدته اليوم من الانطباعات، حتى إنها لم تستطع أن تصلي بهدوء، فقد ظلت تطارح ذهنها ذكريات حزينة حية عن الكونت الراحل وعن الشاب الغندور الذي غلبها في اللعب بلا حياء. ومع ذلك، فقد خلعت ثيابها، بحكم العادة، وشريت نصف قدح من مشروب الكفاس، كان جاهزاً على الطاولة الصغيرة قرب سريرها، واستلقت في فراشها. انسلت قطتها المحبوبة إلى حجرتها بهدوء. نادتها أنا فيدروفنا، وأخذت تمسد عليها مصغبة إلى بربرتها الخافتة. ولم يأتها النوم.

فكرت في سرها: «القطعة هي التي تمنع عني النوم»، فطردتها. وقعت القطعة على الأرض بنعومة، وقفزت إلى سطح الموقد، وهي تهز ذيلها الوثير ببطء. ولكن الخادمة التي كانت تنام على الأرض في غرفتها دخلت في تلك اللحظة، لتفرش بساطها اللبادي، وتطفئ الشمعة، وتوقد قنديل النوم. وأخيراً راحت الخادمة تشخر أيضاً، وظل النوم لا يراود أنا فيدروفنا، ولا يهدئ خيالها المستشار. وبقي وجه الفارس يتراعى لها، حين أغمضت عينيها، وبدا وكأنه يتخذ في الغرفة أشكالاً غريبة مختلفة، حين كانت تفتح عينيها وتنظر في ضوء القنديل الباهت، إلى طاولة السرير، وإلى المنضدة الصغيرة، والشوب الأبيض المعلق. وكانت تستشعر الحر والاختناق تارة، وتتضايق بشدة من دقات الساعة على الطاولة تارة أخرى، ومن شخير الخادمة من أنفها تارة

ثالثة. أبقيتها وأمرتها بأن تكف عن الشخير. وعادت الأفكار تتضارب في رأسها بغرابة فتفكر في ابنتها، وفي الكونت العجوز والشاب، وفي لعبة الورق. والآن راحت ترى نفسها ترقص الفالس مع الكونت العجوز وتتخيل كتفيتها البيضاء المثلثتين، وتستشعر عليهما لثامات شخص ما، ثم تراءت لها ابنتها، في أحضان الكونت الشاب. وعادت أوستيوشكا تشخر من جديد...

«لا، ليس ناس اليوم كما كانوا أمس. كان مستعداً أن يلقي نفسه في النار من أجلي. وكان له ما يستحق أن يفعل ذلك من أجله. أما هذا فأظنه ينام الآن كالمغفل، مسروراً لأنه قد ربح. ولا يكلف نفسه أن يغازل قلباً. بينما كان الآخر يركع على ركبتيه ويقول: «ماذا تريد أن أفعل لك؟ أن أقتل نفسي الآن؟ وماذا تريد؟» وكان سيقتل نفسه لو طلبت منه ذلك.

وفجأة تردد وقع أقدام حافية في المر، ودخلت ليزا الحجرة راکضة وليس عليها غير الشال ملقى على كتفها، وقد شحبت كلياً وراحت ترتعش، وكادت تسقط على سرير أمها...

وكانت ليزا قد ودعت أمها، وذهبت وحدها إلى حجرة خالها الكبيرة. حيث لبست بلوزتها البيضاء، وأخفت ضفيرتها الكثيفة الطويلة في المنديل، وأطفأت الشمعة، ورفعت الشباك، وجلست مترعة بقدميها على مقعد، متفرسة بعينيها المفكرتين في البركة التي كانت في تلك اللحظة تلمع كلية بالألأ. فضي.

بغته بدت أمامها كل مشاغلها واهتماماتها المعتادة في ضوء جديد كلياً: أمها العجوز الهوائية، وجها القاطع الذي صار جزءاً من روحها،

وخالها الهرم واللطيف في الوقت ذاته، والخدم، والفلاحون، الذين يعبدون سيدتهم الصغيرة، وأبقار الحلب والعجول؛ كل هذه الطبيعة التي تموت وتبعث مرات لا تعد، كل هذه الطبيعة التي ترعرعت في أحضانها وأحبت الآخرين فيها وأحبها الآخرون، كل ما كان يعطيها راحة نفسية خفيفة ومريحة، كل ذلك بدا لها فجأة لا كما كان من قبل، كل ذلك بدا لها موحشاً، وغير ضروري. كأن أحداً قال لها: أيتها الحمقاء الصغيرة، أيتها الحمقاء الصغيرة! أضعت عشرين سنة من عمرك تخدمين هذا وذاك، دون أن تعرفي ما هي الحياة، وما هي السعادة! كان كل ذلك يجول في ذهنها الآن، وهي تحديق في عمق الحديقة المنورة الساكنة، وكان يجول أشد وأقوى بكثير مما كان يجول في ذهنها من قبل. فما الذي جعل هذه الخواطر تخطر في بالها؟ ليس هو، على الإطلاق، حبها للكونت، كما كان يمكن أن نخمن. كان الأحرى بها أن تميل إلى الملازم الثاني ولكنه قبيح، وفقير، وميال إلى الصمت. وقد نسيته دون أن تدري، وكانت تسترجع صورة الكونت في ذهنها بحلق وضيق. قالت لنفسها: «لا، ليس هذا الذي أريد». فقد كان مثالها خلافاً! كان مثلاً يمكن أن يكون محبوبها في مثل هذه الليلة، وهذه الطبيعة دون أن يفسد عليها جمالها مثلاً لم يتجسد قط ليصب في واقع فظ.

في البداية كانت كل قوة الحب التي غرستها العناية الإلهية في قلب كل إنسان بالتساوي، كامنة في نفسها سليمة راكدة، بسبب عزلتها وغياب الذين يمكن أن يثيروا انتباهها. والآن مضى وقت طويل جداً، وهي تعيش سعادة حزينة بإحساسها بانطواء نفسها على ذلك الشيء الذي كان من حين لآخر يفتح شغاف قلبها، ويستمتع بنضوج ثرواته، كل

ما كان فيه على شخص ما ، دون أن يتروى بشيء . فعسى الله أن يجعلها تتمتع بهذه السعادة الشحيحة حتى القبر . ومن يدري فلربما هذا أفضل لها وأقوى ؟ ولعله وحده الحقيقي والممكن ؟

وراحت تفكر : « يا إلهي ! أيعقل أنني أضعت سعادتي وصباي عبثاً ، ولن يكون ... لن يكون أبداً ؟ صحيح هذا ؟ » وأخذت تتمعن في السماء الرضينة العالية قرب البدر ، السماء المغطاة بسحب بيضاء متماوجة تتقدم نحو البدر مغطية على النجوم . وفكرت : « إذا حجبت هذه الغيمة البيضاء العليا وجه القمر ، فمعنى ذلك صحيح » .

سرى شريط دخاني مضرب على النصف الأسفل من القرص المنير ، وصار الضوء أشحب قليلاً على العشب ، وأعالى أشجار الزيزفون ، وعلى البركة . وخفتت الظلال السوداء للأشجار . ومرت نسمة خفيفة على أوراق الشجر ، وكأنها تلاحق الظل الكئيب الذي شمل الطبيعة ، وحملت إلى النافذة رائحة الأوراق الندية ، والأرض الرطبة ، والليلك الزاهر .

عزت ليزا نفسها قائلة لها : « لا ، ليس هذا صحيحاً . وإذا زغرد بلبل هذه الليلة ، فمعنى ذلك أن كل ما أتصوره هراء ، ولا حاجة إلى اليأس » . وبعد ذلك بقيت صامتة لوقت طويل ، منتظرة أحداً ما ، رغم أن كل شيء قد تنور من جديد ، ويعثت فيه الحياة ، وداهمت السحب القمر عدة مرات ، وتغيش كل شيء . وغلبها النعاس ، وهي جالسة إلى النافذة ، فأيقظها بلبل بزغردة سريعة سرت صداحة في البركة إلى الأسفل . وفتحت الفتاة الريفية عينيها . ومرة أخرى تجددت روحها كلها في متعة جديدة بهذا الاندماج الغامض بالطبيعة التي انداحت أمامها بهدوء وتنور شديدين . ارتفعت بكلتا يديها . واكتظ صدرها بشعور حلو مضم بالحزن ،

واغرورقت عيناها بدموع الحب الصافي الرحب المتعطش إلى الإشباع،
بدموع حلوة باعثة على العزاء. طوت ذراعيها على أفريز النافذة،
ووضعت رأسها عليهما، وقفزت إلى ذنها صلاتها المفضلة، وكأفما
تلقائياً، وعلى هذه الصرورة غفت ندية العينين.

مستها يد، فاستيقظت. ولكن هذه اليد مستها مساً خفيفاً لطيفاً.
أخذت اليد تضغط على يدها بقوة أشد. وفجأة تذكرت الواقع، فصرخت،
ووثبت، وخرجت راكضة من الحجرة، وهي تؤكد لنفسها أنها لم تعرف أن
الشخص الذي كان واقفاً تحت النافذة مغموراً بأشعة القمر هو الكونت.

١٥.

كان هذا الكونت بالفعل. سمع صيحة الفتاة، وتأوهات الحارس وراء
السياج، وقد جاء على هذه الصيحة، فانطلق بسرعة وعجالة، ويشعور
اللس الواقع بالمصيدة، راكضاً على العشب الرطب الندي إلى أعماق
الحديقة. كان يردد بلا وعي:

«أنا أحمق حقاً، أفزععتها. كان يجب أن أوقظها بشكل أهدأ،
بالكلمات. آه، أنا بهيمة خرقاء!» توقف، وأرهف سمعه. اجتاز الحارس
السياج، وسار في الحديقة يجرجر عصاه على الدرب الرملي. كان على
الكونت أن يختفي. انطلق نحو البركة. أخذت الضفادع تنط من تحت
قدميه إلى الماء عجلي وتجعلها يرتجف.

قرفص هناك، رغم تبلل قدميه، واسترجع في ذهنه كل ما فعل.
كيف انسل عبر السياج، وبحث عن نافذتها، وأخيراً رأى شبحاً أبيض.
راح يدنو ويتعد عن النافذة عدة مرات، ويلتقط أدنى حفيف، فيستخيل

تارة أنها تنتظره لا محالة حانقة على بطئه، ويتصور تارة أخرى أن من المستحيل أن تقدم على هذا اللقاء بمثل هذه السهولة، وأخيراً ظن أن تظاهرها بالنوم ليس إلا نتيجة اضطرابها، وهي الفتاة الريفية، فتقدم منها بعزيمة، ورأى حالتها بوضوح، ولكنه لسبب ما ارتد يركض راجعاً إلى الورا. إلا أنه خجل من جنبه، فاقترب منها بجرأة، ومس يدها. تنحى الحارس مرة أخرى، وصرف باب الحديقة الخارجي، حين خرج منها. انصرفت نافذة حجرة الآنسة، وأسدت صفاقتها من الداخل. وتأذى الكونت كثيراً من رؤية ذلك. وكان مستعداً أن يقدم ثمناً باهظاً لكي يبدأ كل شيء من جديد. الآن، ما كان من الممكن أن يتصرف بتلك الحماقة التي تصرف بها... «فتاة رائعة! غضة! الفتنة بعينها! فكيف فوت الفرصة... أنا بهيمة حمقاء!» كما أن النوم لم يتسرب إلى عينيه، فسار بخطى حاسمة لإنسان محقق مندفعاً إلى الأمام في الدرب المعرش بأشجار الزيزفون.

ولكن تلك الليلة أهدت، حتى له، حزناً مهدئاً وحاجة إلى الحب كثمار من عطاياها الباعثة إلى السكينة. كان الدرب الطيني بما فيه من سيقان العشب البارضة أو الأغصان الجافة مضاً بدوائر من الضوء المتسرب من أشجار الزيزفون الكثيفة، وبأشعة القمر المستقيمة الشاحبة. وأحياناً كان الضوء الساقط من جانب على غصن ملتو يبدو كالصوفة البيضاء النامية فوقه. وكانت الأوراق تتهاوس من حين لآخر مفضضة. انطفأت الأضواء في البيت، وسكنت جميع الأصوات، وكان البلبل وحده يبدو وكأنه يملأ بصداحه كل هذه الرحاب الشاسعة الوضاعة والصامتة. راح الكونت يفكر مستنشقاً هوا الحديقة العطر: «يا إلهي، أية ليلة!

أية ليلة رائعة. شيء واحد يؤسفني. كأنني غير راض عني وعن الأصدقاء، غير راض عن الحياة كلها. ولكن الفتاة رائعة، حبيبة إلى القلب. ربما تكدرت، بالفعل...» واتخذت أحلامه وجهة أخرى، فتصور نفسه في هذه الحديقة مع الفتاة الريفية في أشد الأوضاع غرابية. ثم حلت فتاته اللطيفة مينا مكان الفتاة. «أي أحمق أنا! كان يجب أن أمسكها من خصرها، وأقبلها». وعاد الكونت إلى الحجرة وهذا الندم في قلبه. كان الملازم الثاني ما يزال مستيقظاً، انقلب على السرير فوراً مديراً وجهه إلى الكونت. سأله الكونت:

لست نائماً؟

لا.

هل أحدثك بشيء ما؟

حسناً.

لا، الأفضل أن أسكت... أم أحدثك. أعكف رجلك.

طرد الكونت من ذهنه اللقاء الذي فوته، وجلس على سرير زميله وعلى فمه ابتسامة منعشة.

يمكنك أن تتصور أن هذه الفتاة حددت لي rendez-vous*.

أهذا صحيح؟ هتف بولوزوف، قافزاً من السرير.

طيب، اسمع.

ولكن كيف؟ متى؟ غير ممكن!

حسناً، بينما كنتم تعدون نقاط اللعبة قالت لي إنها ستجلس إلى

* لقاء غرامي (بالفرنسية في الأصل).

النافذة في الليل، والنافذة واطنة يمكن الصعود منها. هذا هو الرجل العملي! وبينما كنت والعجوز تحسبان قمت بشغلتي. ولكنك سمعتها. فقد قالت في حضورك أنها ستجلس الليلة، عند النافذة، وتتفرج على البركة.

- ولكنها لم تعن شيئاً بذلك.

- بالضبط، ولكنني لا أعرف هل تعني شيئاً بكلامها أم لا.

ربما، بالفعل لم ترد رأساً أن تعني شيئاً بذلك، ولكن هذا لم يكن ظاهراً. وانتهى الأمر نهاية غريبة. لقد تصرفت تصرف الأحق تماماً! - أضاف مبتسماً بازدياد من نفسه.

- ولكن كيف؟ أين كنت؟

وحكى له الكونت كل ما حصل ما عدا تردداته المتكررة.

- أفسدت الأمر بنفسني. كان يجب أن أكون أكثر جرأة.

راحت تصرخ، وابتعدت عن النافذة راکضة.

- إذن، راحت تصرخ، وابتعدت عن النافذة، - قال الملازم الثاني

بابتسامة حرجة رداً على ابتسامة الكونت التي كان لها تأثير طويل وقوي عليه.

- نعم، والآن حان وقت النوم.

أدار الملازم الثاني ظهره إلى الباب من جديد، واستلقى صامتاً زهاء عشرة دقائق. والله يعلم ماذا كان يعتمل في سره خلال تلك الدقائق، ولكنه حين انقلب ثانية كان وجهه يعكس معاناة وحزماً.

قال بصوت متقطع:

- كونت توربين!

رد الكونت بسكون:

- أتتهذي في نومك أم كيف؟ ماذا يا ملازم بولوزوف؟

- كونت تورين! أنت وغدا! - صاح بولوزوف، وقفز من سريره.

.١٦.

في اليوم التالي رحلت الكوكبة. ولم ير الضابطان ولم يودعا أهل البيت. كما لم يكلم أحدهما الآخر. واتفقا على أن يتبارزا في أول وقفة تصادفهما. ولكن النقيب شولتس، صديقهما الطيب، والفارس الممتاز، والمحبيب إلى جميع من في الفوج، والشاهد الذي اختاره الكونت له، استطاع أن يسوي الأمر، فلم تقع المباراة، بل ولم يسمع أحد بما حدث، وظل تورين وبولوزوف وإن لم يكونا على علاقاتهما الودية السابقة، يلتقيان على الغداء والعشاء ويخاطب أحدهما الآخر بضمير المفرد.

١١ نيسان ١٨٥٦

ثلاث هيات قصة

١٠.

كان الفصل خريفاً. وكانت عريتان تسيران خبياً في الطريق الكبيرة. في العربة الأمامية امرأتان إحداها سيدة من علية القوم نحيلة شاحبة، والثانية وصيفة صقيلة الخدين ممتلئة الجسم.

سرح شعر قصير جاف من تحت القبعة الناصلة اللون، فعدلته يد حمراء في قفاز ممزق بحركة حادة. وكان الصدر الناهد من تحت المنديل المشجر يشع عافية. وكانت العينان السوداوان السريعتان تنتقلان بين مراقبة الحقول المتراكضة من خلال النافذة، وبين الرنو إلى السيدة بوجل، والنظر إلى زوايا العربة بقلق. كانت قبعة السيدة المربوطة إلى شبكة تتأرجح أمام أنف الوصيفة، ويرقد جرو على ركبتيها، وكانت قدمها مرفوعتين بسبب اللعب الموضوعة على أرضية العربة، فكانت تضربان بها ضرباً لا يكاد يسمع وسط أصوات قرقعة النوايض، واهتزاز الزجاج. وكانت السيدة قد وضعت يديها على ركبتيها، وأغمضت عينيها، وراحت تتأرجح بوهن على الوسائد الموضوعة وراء ظهرها، وتسعل سعالاً عميقاً، مغضنة وجهها قليلاً. كانت تضع على رأسها طاقية ليلية بيضاء، ولغاحاً مثلثاً أزرق مربوطاً على رقبتها الرقيقة الشاحبة.

وكان مفرق شعرها المستقيم في وسط الرأس، وهو يختفي تحت الطاقية، يشطر شعرها الأشقر السبط للغاية المطلي بدهان عطري، ويشف بياض جلده عن شيء يابس بلا حياة. وكانت بشرة وجهها الذابلة المصفرة قليلاً تلتصق برخاوة على قسماته الرقيقة الجميلة وتتورد على الخدين والوجنتين. وكانت شفتاها يابستين مضطرتين، ورموشها الهزيلة لا ترف. ومبذل السفر المصنوع من الجوخ يتثنى طيات مستقيمة على صدرها الخاسف. ووجهها، ورغم إغماض عينيها، ينم عن تعب وضيق ومعاناة معتادة.

كان الخادم قد وضع مرفقه على ذراع كرسيه، وهوم قرب الحوذي، وكان حوذي عربة البريد يسوق الرباعي الضخم العرق من الخيول، صائحاً عليه بهمة، ملتفتاً من حين لآخر إلى الحوذي الآخر الذي كان يصيح على خيوله المركبة وراءه. وكان الخيطان المتوازنان العريضان اللذان تخلفهما العجلات يمتدان باستقامة وسرعة على وحل الطريق الكلسي. وكانت السماء رمادية باردة، والعتمة الرطبة تسترخي على الحقل والطريق. كان جو المركبة خانقاً يفوح برائحة الكولونيا والغبار. سحبت المريضة رأسها من متكنه، وفتحت عينيها ببطء. كانت عيناها الوسيعتان لامعتين داكنتين دكنة جميلة.

مرة أخرى.

قالت دافعة بيدها النحيلة الجميلة في عصبية، طرف رداء الوصيصة الذي مس قدمها مساً خفيفاً، واعوج فمها بشكل سقيم.

جمعت ماتروشا رداها بكلتا يديها، ورفعت جسمها قليلاً على رجليها القويتين وابتعدت في جلستها. واصطبغ وجهها النضر بتورود

وهاج. تابعت عينا المريضة الداكنتان الجميلتان حركات الوصيفة بنهم. استندت السيدة على المقعد بكلتا يديها، وأرادت أيضاً أن ترفع جسمها قليلاً، لتجلس أعلى من جلستها الأولى، إلا أن قواها خانتها. تلوى فمها، وتشوه وجهها كله بما ارتسم عليه من العجز والتهكم الحائق.

- على الأقل لو ساعدتني!.. آه! لا حاجة! أستطيع لوحدي، فقط ألا تضعي ورائي أكياسك، اعطلي معروفاً!... الأفضل ألا تفعلني شيئاً، إذا كنت لا تعرفين!

وأغمضت السيدة عينيها إلا أنها رفعت جفنيها بسرعة، ونظرت إلى الوصيفة. عضت ماتروشا على شفتها السفلى الحمراء، وهي تنظر إليها. انبعثت زفرة ثقيلة من صدر المريضة، إلا أنها لم تتم، وتحولت إلى سعال. أشاحت بوجهها، وغضنت وجهها، وأمسكت صدرها بكلتا يديها. وحين زالت نوبة السعال، أغمضت عينيها ثانية، وواصلت جلستها الجامدة، دخلت العربة والمركبة قرية.

أخرجت ماتروشا يدها المتلثة من تحت المنديل، ورسمت علامة الصليب. سألت السيدة:

- ما هذا؟

- محطة، يا سيدتي.

- أنا أسأل: لماذا ترسمين علامة الصليب؟

- هذه كنيسة، يا سيدتي.

استدارت المريضة نحو نافذة المركبة، وأخذت ترسم علامة الصليب ببطء، محدقة بكل عينيها الواسعتين في كنيسة خشبية استدارت حولها مركبة المريضة.

وتوقفت المركبة والعربة سوية عند المحطة. نزل من العربة زوج المرأة المريضة ودكتور، وتقدما من المركبة. وسأل الدكتور وهو يجس نبضها: كيف تشعرين؟

وسأل الزوج بالفرنسية:

هل أنت متعبة، يا عزيزتي؟ ألا تودين أن تنزلي؟
جمعت ماتروشا الصرر، وانكششت في ركن كيلا تعيق الحديث.
أجابت المريضة:

لا بأس. نفس الشيء.. لا أنزل.

وقف الزوج برهة، ودخل في مبنى المحطة. نزلت ماتروشا من المركبة بخفة، وسارت في الوحل إلى البوابة على أطراف أصابعهما.
وقالت المريضة مبتسمة مخاطبة الدكتور الذي كان يقف عند نافذة المركبة:

إذا كنت متوعدة، فليس ذلك سبباً لكي تمتنعوا عن الإفطار.

«لا أحد له شأن بي - أضافت السيدة في سرها، حالما غادر الدكتور، مبتعداً عنها بخطو هادئ، واختطف درجات المحطة خطفاً أنهم بخير، ولهذا لا يهمهم شيء.. أوه، يا إلهي!».

ماذا، يا إدوارد ايفانوفيتش - قال الزوج، لدى التقائه بالطبيب، وهو يفرك يديه بابتسامة مرحة - لقد أمرت بجلب صندوق المؤونة فما رأيك في هذا؟

أجاب الطبيب:

ممكن.

كيف هي؟

سأل الزوج متنهداً، مخفضاً صوته، رافعاً حاجبيه.
 . قلت كثيراً: إنها لا تستطيع الوصول إلى إيطاليا. بل وحمداً لله
 إذا وصلت إلى موسكو، لا سيما في هذا الطقس.
 . ما العمل إذن؟ آه، يا إلهي، يا إلهي! - غطى الزوج وجهه بيده.
 ثم أضاف مخاطباً الرجل الذي جلب صندوق المؤنة - هاته هنا.
 هز الدكتور كتفيه، وأجاب:
 . كان يجب البقاء.

فقال الزوج معترضاً:

. ولكن قل لي: ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ فقد استخدمت كل
 الوسائل لإبقائها، وأنا أقصد بذلك الأموال، والأطفال التي يتوجب علينا
 أن نتركهم، وأعمالي. ولكنها لا تريد أن تصفي إلى شيء، فهي تضع
 الخطط للعيش في الخارج وكأنما تملك عافيتها. والتحدث عن حالتها كان
 سيعني نهايتها.

. ولكنها منتهية بالفعل، وهذا ما يجب أن تعرفه، يا فاسيلي
 دمبتريتش. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش إذا كان قد استنفد رثتيه،
 وليس من المستطاع خلق رثتين جديدين. الأمر مفاجع ومرهق. ولكن ما
 العمل؟ إن مهمتنا ومهمتك تنحصر في أن نجعل نهايتها هادئة قدر
 المستطاع. نحن نحتاج هنا إلى كاهن.

. أوه، يا إلهي! ولكن افهم وضعي، لو ذكرت لها الوصية. لن أقول
 لها ذلك، وليكن ما يكون. فأنت تعرف كم هي طيبة...
 . على أية حال حاول أن تقنعها بالبقاء حتى يحل الشتاء وتكتسي
 الطرق بالثلوج. قال الدكتور هازاً رأسه بمغزى - وإلا فإن الطريق يمكن أن
 يضرها...

- اكسيوشا، يا اكسيوشا! - قالت ابنة ناظر المحطة بصوت كالوآؤة،
وقد ألقت عليها كنزة، وصوتت قدماها، وهما تطآن مدخل البيت الخلفي
الموحد - تعالي نتفرج على بنت الذوات، يقال إنهم يأخذونها إلى الخارج
لإصابتها بمرض الصدر. أنا لم أر مسلولين قط.

اندفعت اكسيوشا إلى العتبة، وركضت الفتاتان إلى ما وراء بوابة
المحطة وإحدهما تمسك بيد الأخرى. أبطأتا خطوهما، ومرتا بالمركبة،
ونظرتا في النافذة التي أنزل زجاجها. أدارت المريضة لهما رأسها، إلا
أنها تجهمت وأشاحت بوجهها حين لاحظت فضولهما.

- آه، يا أمي! - قالت ابنة ناظر المحطة، وهي تدير رأسها بسرعة -
كم كانت فائقة الجمال. والآن كيف صارت؟ ونحيفة أيضاً.

هل رأيت، اكسيوشا، هل رأيت؟

فجارتها اكسيوشا قائلة:

- نعم، ما أهزلها! تعالي نتفرج مرة أخرى، وكأننا ذاهبتان إلى
البئر، أدارت وجهها، ولكنني رأيت شيئاً آخر. كم هي بانسة، يا ماشا.
- نعم، وأية قذارة!

ردت ماشا، وركضت الفتاتان عائدتين إلى البوابة.

فكرت المريضة مع نفسها: « يبدو أنني صرت مرعبة. لا أرجو إلا
أن أسافر إلى الخارج في أقرب وقت، وسأتعافى هناك بسرعة ».

- والآن، كيف أنت، يا خليلتي؟

قال الزوج، وهو يقترب من المركبة ويمضغ لقمة.

فكرت المريضة مع نفسها: « نفس السؤال دائماً، وهو نفسه يأكل ».

تمتت من بين شفيتها:

- لا بأس.

- أخشى، يا خليلتي، أن تسوء حالتك أكثر في الطريق في هذا الطقس. وإدوارد ايفانيتش بقول الشيء ذاته. ألا يتوجب علينا أن نعود؟

التزمت الصمت غضبي.

- سيعتدل الطقس، ربما، ويتحسن الطريق، وسيكون ذلك أروح لك، فنسافر جميعنا سوية.

- اعذرني. لو كنت قد امتنعت منذ زمان عن الإصغاء إليك، لكنت الآن في برلين، ولكنت في عافية تامة.

- ما العمل، يا ملاكي، فقد كان ذلك مستحيلاً، وأنت تعرفين.
والآن لو تمكثين شهراً نستشفين جيداً، وسأنهي أنا أعمالي، وسأأخذ الأطفال معنا.

- الأطفال أصحاء، وأنا لا.

- ولكن أرجو أن تفهمي، يا خليلتي، إذا كان السفر في مثل هذا الطقس، يجعلك أسوأ حالاً، عندئذ في البيت على الأقل...
ماذا في بيتي؟ أموت في بيتي؟

ردت المريضة محتدة. ولكن كلمة الموت قد أفزعته، على ما يبدو، فنظرت إلى زوجها متضرعة متسائلة. فغض الزوج بصره، ولزم الصمت. فإذا بفم المريضة يتلوى كغم طفلة، وتنهمر الدموع من عينيها. غطى الزوج وجهه بمنديل، وابتعد عن المركبة.

- لا، سأذهب. قالت المريضة رافعة بصرها إلى السماء، وطوت ذراعيها، وأخذت تهمس بكلمات غير مترابطة. يا إلهي!

ما ذنبي؟ - قالت ذلك، وزاد انهيار الدموع من عينيها. وراحت تصلي بحرارة، ولوقت طويل. ولكن صدرها ظل على ألمه واختناق، والسما والحقول والطريق بقيت، كما كانت، رمادية، مريدة، وعممة الخريف، بقيت على حالها، بلا زيادة أو نقصان، تجثم على حل الطريق، وعلى السطوح، وعلى المركبة، وعلى فروات الحوذية الذين كانوا يتحدثون بأصوات قوية مرحة، ويدهنون المركبة، ويشدون العدة عليها...

٢٠.

شدت الخيول إلى المركبة، إلا أن الحوذي كان يتباطأ، دخل في مبنى المحطة الخشبي. كان جو المبنى حاراً خانقاً، ومظلماً ثقیلاً، فيه رائحة سكن، وخبز طازج وكرنب وفراء غنم. كان بعض الحوذية في حجرة الطعام، والطباخة مشغولة عند الموقد، وعلى سطح الموقد رقد مريض على فروات غنم.

- يا عم خفيدور! يا عم خفيدور، - خاطب المريض حوذي شاب في فروة طويلة، عند دخوله الحجرة والسوط في حزامه. فرد أحد الحوذية: - ما شأنك بفيدكا، أيها العاطل والناس ينتظرونك في المركبة! - أريد أن أطلب منه حذاءً، فقد تآكل حذائي، - أجاب الشاب، وهو يدفع شعره إلى الوراء، ويعدل قفازيه المحشورين وراء حزامه. - هل هو نائم؟ - وكرر ثانية وهو يتقدم من الموقد: - ها، يا عم خفيدور؟

- ماذا؟ - تردد صوت واهن، وانحنى من فوق الموقد وجه نحيف أصهب، وامتدت يد عريضة هزيلة شاحبة مغطاة بالشعر لتحشر القفطان على كتف ناتئة في قميص قذر، وقال الصوت.

ـ أعطني أشرب، يا أخ، ماذا بك؟

قدم الشاب له كوز ماء، وقال مغبراً لهجته:

ـ أظنك، يا فيديا، لا تحتاج الآن إلى حذاء جديد، أعطني إياه، ما

دمت ستلازم الفراش، على ما أظن، لا تلبسه.

أمال المريض رأسه المتعب إلى الكوز القصديري، وراح يشرب الماء

الداكن بونى وعطش مبللاً به شاربيه الهزيلين المرتخين، كانت لحيته

الملتفة الشعر قدرة. وبمجاهدة رفع إلى وجه الشاب عينيه الكابيتين

الغائرتين. انصرف عن الماء، وأراد أن يرفع يده، ليمسح شفتيه المبللتين،

إلا أنه لم يقر على ذلك، فمسحها بكم القفطان. حدق في عيني الشاب

صامتاً ثقیل الأنفاس، يستجمع قواه.

ـ ربما وعدت به أحداً من قبل، ـ قال الشاب. ـ هكذا بلا مقابل. المهم

في الأمر أن الطقس رطب، وعلي أن أسافر في مهمة، فقلت لنفسي:

دعني أطلب من فيدكا حذاءه، فهو لا يحتاج إليه، على ما أظن. قل لي

بصراحة ربما أنت تحتاج إليه...

أخذ شيء، يتحسرج ويقرقر في صدر المريض، فطوى جذعه، وانتابته

نوبة سعال من أسفل الخنجرة لا قرار لها.

ـ ما حاجته إليه الآن. زعقت الطباخة غاضبة فجأة، وملاً صوتها

أرجاء البيت. هذا هو الشهر الثاني، وهو لا ينزل من سطح الموقد. ألا

تسمع السعال يمزق صدره، والألم ينفذ حتى إلى خناباي عندما أسمع.

فما حاجته إلى الحذاء؟ لن يدفنوه في حذائه الجديد. وأجله حان من

زمان. والمغفرة لله على خطيئتي هذه. ها أنت تراه يتمزق من السعال.

فإنما أن ينقل إلى بيت آخر، أو إلى محل آخر! يقال إن في المدينة

مستشفيات. وإلا فليس من المعقول أن يشغل الركن كله، أقام ما فيه الكفاية. المكان ضيق. فضلاً عن ذلك يطلبون منك النظافة.

صاح في الباب رقيب محطة البريد:

يا سريوغا! استقل عربتك، فالسادة في الانتظار.

هم سريوغا بالانصراف، دون أن ينظر جواباً، إلا أن المريض أعلمه بعينيه، أثناء السعال، أنه يريد أن يجيبه.

خذ الحذاء، يا سريوغا. قال بعد أن كبت سعاله، واستراح قليلاً.

ثم أضاف بصوت متحشرج. شرط أن تشتري شاهداً لقبري، حين أموت.

شكراً، يا عم. سأخذه، وأشتري لك شاهداً، والله العظيم.

ها أنتم سمعتم، يا شباب. استطاع المريض أن ينطق بذلك، وطوى

جذعه إلى الأسفل مرة أخرى. واختنقت أنفاسه.

كفى، سمعنا. قال أحد الخوذية. اذهب واجلس في عربتك، يا

سريوغا، وإلا فإن رقيب المحطة سيأتي ثانية. السيدة مريضة.

خلع سريوغا بحركة نشيطة حذاء المهترئ الكبير عليه، وألقاه تحت

التخت. ولبس حذاء العم فيدور الجديد، فكان على مقاسه تماماً، وخرج

إلى المركبة، وهو يتطلع إليه.

أوه، حذاء جديد! دعني أزيته. قال حوذي والمزينة في يده، حين

خرج سريوغا، وصعد إلى مقعده، وأمسك المقود. أعطاه لك مجاناً؟

أتحسدني عليه؟ أجاب سريوغا، وقد رفع جسمه قليلاً، ليعكف

أطراف قفطانة قرب قدميه. انطلق! هيا، يا لطاف! صاح على الحبول

ملوحاً بسوطه، وانطلقت المركبة والعربة بركابهما وحقائبهما في الطريق

المبللة مخفيتين في ضباب رمادي خريفي.

وبقي الحوذي المريض على سطح الموقد في البيت الخشبي الخائض
الهواء، ودون أن ينفث كل ما في صدره في سعاله، جاهد وانقلب على
جنب آخر، وهذا.

وحتى المساء كان الناس يدخلون البيت الخشبي ويخرجون منه،
ويتقدمون فيه دون أن يسمعو المريض. وقبل أن يحل الليل بقليل
صعدت الطباخة إلى سطح الموقد، وأخذت الفرو من وراء رجله. فتكلم
المريض:

- لا تزعلي مني، يا ناستاسيا. قريباً سأخلي ركنك هذا.

دمدمت ناستاسيا قائلة:

- بس، بس. لا بأس. ما الذي يوجعك يا عم؟ أخبرني.

- تأكل كل شيء في الداخل. الله يعلم أي شيء هذا.

- أظن أن حنجرتك تؤلمك حين تسعل؟

- الألم في كل مكان. حانت منيتي، وهذا كل ما في الأمر. آه، آه،

آه!

راح المريض يئن.

- غط رجلبك بهذا الشكل.

قالت ناستاسيا، وسحبت القفطان عليه، وهي تنزل من الموقد.

في الليل كان القنديل الليلي يضيء البيت الخشبي بضوء خافت.

وناستاسيا وحوالي عشرة حوذية ينامون على الأرض والتخوت يشخرون
شخيراً عالياً. والمريض وحده كان يتأوه بخفوت، ويسعل، ويتقلب على
سطح الموقد. وقبل الصباح سكن تماماً.

- عجيب الحلم الذي رأيته الليلة في نومي. قالت الطباخة، وهي

تتمطى في الضوء الشاحب في الصباح التالي. - رأيت وكأن العم خفيدور نزل من سطح الموقد وخرج ليكسر الحطب. ويقول لي: دعيني أساعدك، يا ناستاسيا، فأقول له: وهل تستطيع أن تكسر الحطب؟ بينما هو يمسك بالفأس، ويأخذ بتكسير الحطب بهمة ونشاط، فلا أرى غير الجذاذات تتطاير، فأقول له: ولكنك كنت مريضاً. فيقول لي: لا. أنا موفور الصحة. وراح يضرب الحطب، حتى أصابني الرعب من ضرباته. ورحت أصرخ حتى استيقظت. أعله مات؟ يا عم خفيدور! يا عم!

ولم يرد فيدور على النداء.

. ربما مات؟ أنا ذاهب لأرى.

قال واحد من الخوذية الذين كانوا قد استيقظوا.

كانت اليد النحيلة المغطاة بشعر أصهب، والمتدلية من الموقد باردة شاحبة اللون.

قال الخوذي:

. أنا ذاهب لأخبر ناظر المحطة. يبدو أنه مات.

ولم يكن لخفيدور أقارب. فقد كان من منطقة بعيدة. وفي اليوم التالي دفن في المقبرة الجديدة وراء الدغل. وظلت ناستاسيا عدة أيام تقص على الجميع الحلم الذي رآته، وكيف أنها كانت أول من افتقد العم فيدور.

. ٣ .

حل الربيع. وراحت السيول العجولة تخرخر في شوارع المدينة المبتلة بين قطع الجليد الملوثة بالرث. كانت ألوان الملابس وأصوات المارة المتحدثين بهيجية. وكانت براعم الأشجار في الحدائق الصغيرة وراء

الأسيجة قد انتفخت، وأغصانها تتمايل مع النسيم الطري بحفيف لا يكاد يسمع. وكانت قطرات ماء شفاة تتساقط في كل مكان... والعصافير تزقزق زقزقة غير متساقفة، وترفرف بأجنحتها الصغيرة. وكان كل شيء يتحرك ويتلألأ في الجانب الشمس، على الأسيجة والبيوت والأشجار. وكان الجذل والشباب يبدوان على السماء والأرض، وفي قلب الإنسان.

في أحد الشوارع الرئيسية، وأمام بيت كبير من بيوت الأشراف فرش تب ن طازج على الأرض، وكانت في هذا البيت تلك المريضة المشرفة على الموت التي كانت تتعجل السفر إلى الخارج.

وعند باب حجرة مغلق وقف زوج المريضة وامرأة تخطت سن الشباب. وجلس الكاهن على أريكة وقد أشرق بصره. وأمسك شيئاً مغلفاً بوشاح القس. وفي أحد الأركان رقدت على مقعد وثير عميق عالي الظهر امرأة مسنة هي أم المريضة. وكانت تبكي بمرارة، وبالقرب منها وصيفة تمسك بيدها منديل يد نظيفاً، منتظرة أن تطلبه العجوز، بينما كانت وصيفة أخرى تدلك صدغي العجوز بشيء ما، وتنفخ في شعرها الشائب تحت الطاقية.

- المسيح معك، يا صديقتي - كان الزوج يقول للمرأة الكهلة الواقعة عند الباب - إنها تثق بك ثقة كبيرة، ولك من القدرة على التحدث معها، حاولي أن تقنعيها بشكل جيد، فاذهبي، يا عزيزتي - وأراد أن يفتح لها الباب في الحال، ولكن ابنة أخيه أمسكتها، نشفت عينيها بالمنديل عدة مرات، ونفضت رأسها، وقالت:
- والآن يلوح وكأنني لم أبك.

وفتحت بنفسها الباب. ودخلت.

كان الزوج في قلق شديد، وفي غاية الحيرة. اتجه نحو العجوز، إلا أنه استدار بعد أن قطع بضعة خطوات، وسار في الغرفة، وتقدم من الكاهن. تطلع الكاهن إليه، ورفع حاجبيه نحو السماء، وارتعش. كما أن لحيته الكثيفة التي وخطها الشيب قد ارتفعت إلى الأعلى أيضاً وانخفضت.

قال الزوج:

- يا إلهي! يا إلهي!

- ما العمل؟

قال الكاهن متنهداً، وارتفع إلى الأعلى حاجباه ولحيته أيضاً، وانخفضت.

قال الزوج في بأس تقريباً:

- وأما هنا! إنها لا تتحمل ذلك. فهي تحبها حباً شديداً... أنا لا

أدري... على الأقل، يا أبانا. لو حاولت أن تهدئها، وتقنعها بالانصراف.

نهض الكاهن، وتقدم من العجوز. وقال: - حقاً، لا أحد يستطيع أن يقيم قلب الأم. ولكن الله رحيم.

وفجأة صار وجه العجوز يختلج كله، وصدر عنها فواق هستيري.

- الله رحيم. تابع الكاهن كلامه حين هدأت قليلاً. أود أن أخبرك

بأن شخصاً مريضاً في أبرشيتي كان أسوأ حالاً بكثير من ماريلا دمبترينا، ومع ذلك فإن رجلاً «بسيطاً» من الأهالي شفاه بالأعشاب في وقت قصير. وهذا الرجل في موسكو الآن. كنت أقول لفاسيلي

دميتريفيتش أن من الممكن أن يجرب علاجه. على الأقل كان ذلك سلوى
وتسرية للمريضة. والله على كل شيء قدير.
- لا، لا أظنها ستعيش - قالت العجوز - بدلاً من يأخذني الله،
يأخذها هي.

واشتد الفواق الهستيري، حتى فقدت العجوز الوعي.
غطى زوج المريضة وجهه بيديه، وخرج راکضاً من الحجرة.
وكان أول من التقاه في الرواق طفل في السادسة كان يلاحق أخته
الصغيرة بكل ماله من قوة.
سألت المريضة:

- هل تأمر بإدخال الولدين إلى أمهما؟
- لا، إنها لا تريد أن تراهما. فذلك يشير شجنها.
توقف الطفل برهة، وتفرس في وجه أبيه، وفجأة نط على رجل
واحدة، وتابع ركضه بصياح مرح. وصاح وهو يشير إلى أخته:
- هي التي تلعب دور الفرس السوداء، يا بابا!
وخلال ذلك كانت ابنة الأخ تجلس قرب المريضة، وتحاول ببارع
الحديث أن تهيب ذهنها للموت. وكان الدكتور يخلط مشروباً عند نافذة
أخرى.

كانت المريضة ترقد على السرير في روب أبيض، محاطة بالوسائد،
تنظر إلى ابنة الأخ صامتة.

- آه، يا صديقتي - قالت مقاطعة إياها بشكل مفاجئ - لا تلقيني.
ولا تعتبرني طفلة. أنا مسبحية وأعرف كل شيء. أعرف أن حياتي لم
يبق منها غير القليل. وأعرف أن زوجي، لو سمع كلامي من قبل، لكنت

الآن في إيطاليا، وربما، بل والأرجح لكنت قد شفيت. وكان الجميع يقول له ذلك. ولكن لا حيلة في اليد، فالظاهر أن هذه مشيئة الرب. جميعنا نتحمل خطايا كثيرة، وأنا أعرف ذلك، ولكنني أمل في رحمة الرب، وسيسامحنا الرب جميعاً، على ما أظن، حاولت أن أفهم نفسي. وأنا أنوء بخطايا كثيرة، يا صديقتي، ولكنني مقابل ذلك كم تحملت من عذابات.

وحاولت أن أتحمل العذابات بصبر...

قالت ابنة الأخ:

. هكذا أدعو الكاهن صديقتي؟ سيكون أخف عليك لو تناولت

القربان المقدس.

أحنت المريضة رأسها إمارة على الموافقة. وهمست:

. يا إلهي، اغفرلي، أنا الخاطئة.

خرجت ابنة الأخ، وغمرت للكاهن. وقالت للزوج، والدموع تترقرق

في عينيها:

. إنها ملاك!

أخذ الزوج يبكي، دخل الكاهن الباب، وكانت العجوز ما تزال في

غيبوبتها، وران على الحجرة الأولى سكون مطبق. وبعد خمس دقائق

خرج الكاهن من الباب، وأزاح، الوشاح، وعدل شعره. وقال:

. حمداً لله، إنها أهدأ الآن. تريد أن تراكما.

خرجت ابنة الأخ والزوج. كانت المريضة تبكي، وهي تنظر إلى

الأيقونة. قال الزوج:

. أهنتك، يا صديقتي.

• أشكرك! أية راحة أحس بها الآن، وأي عذوبة غير مفهومة تغمرني .
• كانت المريضة تقول، وقد رفت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة خفيفة .
• ما أوسع رحمة الله! أليس هو الرحيم القدير على كل شيء؟ • وعادت
تحدق في الأيقونة بابتهاال ظامئ، والدموع قلاً عينيهـا .
ثم بدا وكأنها تذكرت شيئاً فجأة. فأشارت إلى زوجها بأن يدنو
منها . وقالت بصوت واهن مستاء:

• أنت لا تقبل أبداً أن تفعل ما أرجوه منك .

مد الزوج عنقه، واستمع إليها طائعا .

• ما هو، يا صديقتي؟

• كم مرة قلت إن هؤلاء الدكاترة لا يعرفون شيئاً وأن هناك مطبين
بسطاء يشفون... ها هو الأب كان يقول... رجل من الأهالي... دعه
يجي .

• من الذي يجي، يا صديقتي؟

• يا إلهي، أنت لا تريد أن تفهم!..

وغمضت المريضة وجهها، وأغمضت عينيهـا .

تقدم الدكتور منها، وأمسك يدها . كان نبضها يضعف شيئاً فشيئاً،
وبشكل ملحوظ. أوماً الدكتور للزوج . ولأحظت المريضة هذه الإيماة،
وأجالت ببصرها مذعورة. أشاحت ابنة الأخ بوجهها، وشرعت تبكي.
قالت المريضة:

• لا تبكي، ولا تعذبي نفسك وتعذبيني. فإن ذلك ينتزع آخر

السكينة في نفسي .

.. أنت ملاك!

قالت ابنة الأخ، وهي تقبل يدها.

.. لا، قبليني هنا، فالأموات فقط تقبل أيديهم. يا إلهي! يا إلهي!

في ذلك المساء ذاته كانت المرأة جثماناً، والجثمان في تابوت مسجى في صالة البيت الكبير. وفي الحجرة الكبيرة، وراء الأبواب الموصدة جلس مرتل يرتل مزامير داود بصوت أخن متساوق.

وكان ضوء الشموع الساطع يسقط من الشمعدانات الفضية على جبين المتوفاة الشاحب، وعلى يديها الشمعتين الثقيلتين، وعلى الشنيات المتصلبة للغطاء المرتفع عند الركبتين وعلى أصابع القدمين بشكل مربع. كان المرتل يقرأ بوداعة، دون أن يفهم الكلمات، فكانت تتردد في أرجاء الحجرة غريبة، وتتجمد. ومن حين لآخر كانت تترامى من حجرة بعيدة أصوات أطفال، وطبطة أقدامهم.

كان وجه المتوفاة قاسياً هادئاً ومهيئاً، ولم يتحرك شيء في جبينها الصافي البارد، ولا في شفثيها المطبقتين بقوة. كانت منتبهة بكلبتها. ولكن هل كانت تفهم الآن هذه الكلمات العظيمة على الأقل؟

-٤-

بعد شهر كان يرتفع فوق قبر المتوفاة مصلى حجري. أما فوق قبر الحوذي فلم ينتصب شاخص حجري بعد، ولم يظهر غير عشب أخضر يانع على الحدة التي كانت الدليل الوحيد على وجود سالف لإنسان. وكانت طبخة المحطة تقول ذات مرة:

- ولكنك ستجلب على نفسك الخطيئة، يا سريوغا، إذا كنت لا تشتري الشاخص لقبر خفيدور. كنت تقول: الشتاء، الشتاء، والآن ألا تفي بكلمتك؟ لقد وعدته بحضوري. لقد جاء إليك مرة وطلب منك إذا لا تشتري فسيأتي مرة أخرى ويأخذ بخنقك.
أجاب سريوغا:

- وهل تحسبيني أنكر؟ سأشتري الشاخص، كما وعدت، سأشتريه برويل ونصف. أنا لم أنس، ولكن يجب أن أجلبه. حين تسنح فرصة للذهاب إلى المدينة سأشتريه.

- على الأقل لو أقمت صليباً على القبر - بادر حوذي عجوز بهذا القول - وإلا فإنه الشؤم بعينه. فأنت ترتدي هذا..

- ومن أين آخذ هذا الصليب؟ كيف لي أن أنحته من قطع الحطب؟

- ما هذا الكلام؟ طبعاً لا يمكنك أن تنحته من قطع الحطب.

ولكن خذ فأساً، واخرج إلى الدغل في وقت مبكر، ويمكنك أن تنحته من شجرة دردار مثلاً. وستحصل على صليب جيد. وقد تضطر إلى أن ترشي راعي الغابة بالفودكا. أو أنك لا تستطيع أن تنفق الفودكا على كل شيء تافه. قبل أيام كسرت ذراع عريتي، فقطعت ونحت ذراعاً جيدة جديدة، ولم يقل أحد كلمة.

في الصباح الباكر، حالما بزغ الفجر، تناول سريوغا فأساً، وذهب إلى الدغل، كان الندى ما يزال يتساقط، قبل أن يمسّه ضوء الشمس، ويكون غشاً بارداً كامد اللون يلف كل شيء..

وكان الشرق قد تنور بشكل ملحوظ، عاكساً ضوءه الواهن على قبة

السماء المملعة بسحب رقيقة. وما من حركة ترف في أي نصل عشب في الأسفل، ولا في أية ورقة في أغصان الشجر العالية.

ومن حين لآخر فقط كانت تحطم سكون الغابة خفقات أجنحة في الأعماق، وهسهسة على الأرض. وفجأة ترمى صوت غريب دخيل على الطبيعة، وتلاشى في حافة الغابة. إلا أن الصوت ارتفع مرة أخرى، وراح يتكرر بترداد منسق إلى الأسفل قرب جذع إحدى الأشجار الساكنة، أخذت إحدى ذرى الأشجار تهتز بشكل غير اعتيادي، ونهاست أوراقها الطرية بشيء ما، وصفق أبو حناء بجناحيه مرتين صافراً وهازاً ذيله، وكان جالساً على أحد أغصان هذه الشجرة، فغادرها وحط على شجرة أخرى.

كان الفأس في الأسفل يتردد متوغلاً أعمق فأعمق، والخشبات البيضاء الطرية تتطاير على العشب الندي، وصوت انكسار خفيف يسمع في إثر الضربات. اهتزت الشجرة بكل كيائها، وانحنت، وانتصبت بسرعة، وترنحت مذعورة على جذرها، وللحظة سكن كل شيء إلا أن الشجرة عادت فانحنت مرة أخرى، وانهدت بقمتها على الأرض الرطبة مهشمة عساليجها، منكسة أغصانها. وسكتت أصوات الفأس ووقع الأقدام. وصفر أبو الحناء، ورفرف محلقاً أعلى. اهتز الغصن الذي تشريك بجناحيه لبعض الوقت، وسكن، شأن الأغصان الأخرى بكل أوراقها. وكانت الأشجار في الفسحة الجديدة تزهر بأغصانها الساكنة بمرح أشد.

نفذت أشعة الشمس الأولى من خلال سحابة، والتمعت في السماء،

وسرت في رحاب الأرض والسموات. وأخذ الضباب ينسكب أمواجاً في
المنخفضات، والندى يتلألأ لامعاً على الحضرة، والغيوم المبيضة الشفافة
تتراكض مسرعة على القبة المزروقة، والطيور تتقافز في الغابة،
وكالضائعة تسقسق بشيء بهيج، والأوراق الريانة تنهامس في أعالي
الأشجار بغبطة وهذوء، وأغصان الأشجار الحية تتمايل ببطء وعظمة
فوق الشجرة الميتة المرداة على الأرض.

عام ١٨٥٨

بوليكوشكا

١٠.

كان الوكيل يقول:

« كما تأمرين، يا سيدتي! سوى أنني أرثي لآل دوتلوف. فإنهم أناس طيبون جميعاً وبلا استثناء، وإذا لم نرسل ولو واحداً من الخدم، فلا مناص من أن يذهب واحد منهم. لا سيما فإن الجميع الآن يشيرون إليهم. ومع ذلك فالأمر أمرك.

ووضع الوكيل يده اليمنى على يده اليسرى، وأبقى كليهما أمام بطنه، وأحنى رأسه إلى جانب آخر، واستف شفتيه الرقيقتين، حتى كاد يتمطق، وقلب عينيه، وصمت في نية ظاهرة لأن يصمت طويلاً، ويسمع، بدون اعتراض، كل ذلك الهراء الذي كان يجب أن تقوله السيدة له في هذا الموضوع.

كان هذا الوكيل من حشم الضيعة، حليق الوجه، في سترة رسمية طويلة (اللباس الخاص بالوكلاء) يمثل في أمسية خريفية أمام سيدته يقدم لها تقريراً. وكان التقرير، في مفهوم السيدة، يعني أن تصفي إلى حسابات الأعمال التي جرت في الضيعة، وتصدر الأوامر عن الأعمال المقبلة. أما بالنسبة للوكيل يغور ميخائيلوفيتش فقد كان التقرير، حسب

مفهومه، فريضة الوقوف باستقامة، في ركن، على كلنا رجليه المعوجتين، وجهه متجه إلى الأريكة، والاستماع إلى شتى صنوف الثثرة غير المتعلقة بالموضوع، وحمل السيدة بمختلف الوسائل، على أن ترد بسرعة ونفاد صبر «طيب، طيب» على كل مقترحات يغور ميخائيلوفيتش.

كان موضوع الكلام عن التجنيد. وكان يجب إرسال ثلاثة رجال من ضيعة بكروفسكويه. وكان القدر نفسه قد عين، بدون شك، اثنين منهم، لانطباق الشروط العائلية والخلقية والاقتصادية عليهما. وما كان من الممكن أن يكون أي تردد بشأنهما، لا من قبل مجمع القرية ولا من قبل السيدة، ولا من قبل الرأي العام.

أما الثالث فكان موضع جدل. وكان الوكيل يريد أن يحمي دوتلوف الذي كان له ثلاثة معيلين، ويرسل الخادم بوليكوشكا صاحب العائلة، والذي كانت له سمعة سيئة جداً، وشوهد، غير مرة، متلبساً بسرقة الأكياس والأجزمة والدريس. كانت السيدة غالباً ما تتلاطف مع أولاد بوليكوشكا ذوي الأسمال، وتقوم أخلاقه بمواعظ الانجيل، فكانت لا تريد التخلي عنه. وفضلاً عن ذلك لم تكن تريد أن تلحق أذى بآل دوتلوف الذين لم تكن تعرفهم، ولم تكن تراهم أبداً.

ولكنها لسبب ما لم تستطع أن تتفهم الأمر قط، بينما لم يعزم الوكيل أن يوضح لها بصريح العبارة أن عدم ذهاب بوليكوشكا سيعني ذهاب دوتلوف. فكانت تقول له بعاطفة: «ولكنني لا أريد أن ألحق أذى بآل دوتلوف». وكان يجب أن يقول لها في الرد على ذلك: «ادفعي إذن ثلاثمائة روبل عن بديل له». ولكن اللياقة لم تسمح له بذلك.

وهكذا كان يقف بهدوء، بل واتكأ بشكل غير ملحوظ، على أسكفة الباب، إلا أنه احتفظ على مسحة التذلل في وجهه، وراح ينظر إلى شفتي السيدة، وهما تتحركان، وكشكش طاقيتها ينط مع ظله على الحائط تحت لوحة صغيرة. ولكنه لم يجد ضرورة على الإطلاق في النفاذ إلى معنى كلامها. فقد كانت السيدة تتحدث طويلاً وبكثرة. اعتراه تشنج تشاؤمي وراء أذنيه، إلا أنه حول هذا التشنج إلى سعال بسهولة، مغطياً فمه بيده، وحمم بشكل مصطنع. قبل حين شاهدت اللورد بالمرستون جالساً، حاجباً وجهه بقبعته، في الوقت الذي كان عضو المعارضة يعصف بالوزارة، حين نهض فجأة، وأجاب بخطاب استمر ثلاث ساعات عن كل نقاط الخصم. لقد شاهدت ذلك، ولم أدهش لأنني رأيت مثل هذا ألف مرة يجري بين يغور ميخائيلوفيتش، وسيدته. ولعله خشي أن تأخذه غفوة، أو تصور أن السيدة أخذت تسرح بذهنها كثيراً، فنقل ثقل جرمه من الرجل اليسرى إلى اليمنى، وبدأ باستهلال موح، كما كان يبدأ دائماً:

- الأمر أمرك، يا سيدتي... سوى أن الاجتماع منعقد الآن عندي في الإدارة، ويجب اتخاذ القرار. وقد نص في الأمر على وجوب إرسال المجندين قبل عيد «هوكروف»*. أما الفلاحون فيشيرون إلى آل دوتلوف، ولا يوجد أحد غيرهم، والحق يقال.

ومجمع القرية لا يراعى مصالحك، ولا يهمه أن نحطم آل دوتلوف. وأنا أعرف كم كدوا وكدحوا. ومنذ أن تسلمت الإدارة، وأنا أراهم

* أحد الأعياد الكنائسية في أواسط الخريف تقريباً. المترجم.

يعيشون في فقر. طال انتظار العجوز لابن أخيه الصغير، والآن وما كاد يقره عيناً، حتى يجب أن يعرض للخراب مرة أخرى.

وأنا، وأرجو أن تعرفي، حريص على ملكك، حرصي على ملكي، خسارة، يا سيدتي، ولكن الأمر متروك لك! ليس لي بينهم قريب ولا حسيب، ولم آخذ منهم شيئاً...

. ولكن ذلك لم يخطر مني على بال، يا يغور، . قالت السيدة، ولكن خطر على بالها في الحال أن آل دوتلوف ربما قد رشوه.

... سوى أنهم أفضل عائلة في بكروفسكويه كلها. رجال يخافون

الله ويحبون العمل. والعجوز راعي الكنيسة ثلاثين عاماً، لا يذوق طعم الخمرة، ولا يتفوه بكلمة نابية، ويتردد على الكنيسة (كان الوكيل يعرف بأي شيء يستميل). والشيء الرئيسي، وليكن ذلك في علمك، أن للعجوز ولدين فقط، والباقون أبناء أخيه. مجمع القرية يوصي، ولكن الأخرى به، إذا أردنا وجه الحق، أن يلقي قرعة بين الشنائب الآخرين وحتى بين الثلاثين* انفصلوا بعوائلهم، لسبب غير وجيه، وهم الآن على حق، أما هؤلاء فيجب أن يشقوا جزءاً فضيلتهم.

وعند ذاك لم تعد السيدة تفهم شيئاً، لم تفهم ما كان يعني به «قرعة بين الشنائب» و«الفضيلة»: كانت لا تسمع إلا أصواتاً، وتتأمل الأزرار من القماش القطني السميك على ستره الوكيل.

ربما لأنه كان نادراً ما يزرر الزر الأعلى، فهو محكم في مكانه، أما الزر الأوسط فقد ارتخى تماماً، وتدلّى، بحيث كان يحتاج إلى تثبيت منذ

* الشنائبون * من لهم ميلان . والثلاثيون من لهم ثلاثة . المترجم .

زمان. ولكن، كما هو معروف للجميع، لا يتطلب الحديث مطلقاً، ولا سيما ما يخص الأعمال، أن تفهم ما يقال لك، بل يتطلب أن تتذكر فقط ما تريد أن تقوله أنت. وهذا ما فعلته السيدة إذ قالت:

- أراك لا تريد أن تفهم، يا يغور ميخائيلوف. أنا لا أريد على الإطلاق أن يذهب دوتلوف للعسكرية. يبدو أنك تستطيع، بقدر معرفتك لي، أن تحكم بأنني أفعل كل ما في مستطاعي لأساعد فلاحى ولا أريد لهم سوءاً. ولعلك تعرف أنني مستعدة إلى أن أضحي بكل شيء لتفادي هذه الضرورة المحزنة، فلا أقدم دوتلوف ولا خوريوشكين (لا أدري هل خطر في ذهن الوكيل أنه لتفادي هذه الضرورة المحزنة لا يقتضي التضحية بكل شيء، بل ثلاثمائة روبل كافية. ولكن هذه الفكرة كان من الممكن أن تخطر له بسهولة).

ولكنني أقول لك شيئاً واحداً، وهو أنني لن أتخلى عن بوليكي*، مهما يكن من شيء. بعد قضية الساعة تلك أعترف بنفسه لي، وبكى، وأقسم على إنه سيصلح نفسه، وقد تحدثت معه طويلاً، ورأيت أنه قد تأثر، وندم عن صدق («آه، يا للكثرة الكلام!»). قال يغور ميخائيلوفيتش في سره، وأخذ ينظر إلى المربي التي وضعت للسيدة في قديم ما: «أهي مربى يرتقال أم ليمون؟ وفكر: «ربما بعلم»». وقد مضى على ذلك سبعة أشهر، لم يسكر فيها قط، ويتصرف تصرفاً حميداً. وقد قالت لي زوجته إنه أضحي إنساناً آخر. فهل تريدني الآن أن أعاقبه، بعد أن أصلح سلوكه؟ ثم هل من الإنسانية حقاً أن تتخلى عن إنسان له

* الاسم الأصلي . «بوليكوشكا» بطل القصة . المترجم .

خمسة أطفال، وهو المعيل الوحيد؟ لا، يا بغور، الأفضل ألا تتكلم عن هذا...

ورشفت السيدة من القدح.

راقب بغور ميخائيلوفيتش سريان الماء خلال حلقومها، وبعد ذلك اعترض باقتضاب وجفاف:

«إذن، فأنت تأمرين بتسمية دوتلوف؟»

صفت السيدة يداً بيد:

«كيف لا تستطيع أن تفهمني؟ هل من المعقول أنني أريد أذية دوتلوف؟ هل من المعقول أن في نفسي ولو شيئاً قليلاً ضده؟ الله يشهد علي كم أنا مستعدة لأن أفعل كل شيء من أجلهم (ورمقت اللوحة المعلقة في ركن، ولكنها تذكرت أنها ليست أيقونة. وفكرت مع نفسها «ولكن على أية حال ليست هذه هي المسألة» والعجيب مرة أخرى أنه لم تخطر في بالها الثلاثمائة روبل) ولكن كيف لي أن أفعل؟ أتراني لا أعرف تخاريج الموضوع؟ لا يمكنني أن أعرف ذلك. ولكنني أعتمد عليك، وأنت تعرف ما أريده. فافعل ما يجعل الجميع راضين، وفق القانون. فما العمل؟ ليس هم الوحيدين. والجميع تمر بهم ساعات ضيق. فقط لا يجوز التخلي عن بوليكي. افهم أن ذلك سيكون فظيهاً من جانبي.»

وكان من الممكن أن تستطرد في القول، فقد أخذتها الحمية كثيراً، إلا أن وصيفة شابة دخلت الحجرة في تلك اللحظة.

«ماذا وراءك، يا دونياشا؟»

«جاء موجيك*، وطلب أن يستفسر من بغور ميخائيلوفيتش عما

* رجل ريفي من عامة الناس. المترجم .

إذا كان يأمر أن ينتظر اجتماع الفلاحين مجيئه؟ - قالت دونياشا ذلك، ونظرت إلى يغور ميخائيلوفيتش نظرة غضبي، مفكرة مع نفسها: «أي وكيل هذا، أثار أعصاب السيدة، والآن مرة أخرى لن تدعنا نغفو حتى الساعة الثانية».

قالت السيدة:

• اذهب، يا يغور، وافعل ما هو أفضل.

• سمعاً وطاعة (ولم يقل شيئاً آخر عن دوتلوف)، هل تأمرين بأن

نبعث أحداً إلى البستاني لجلب النقود؟

• ألم يعد بتروشا من المدينة حتى الآن؟

• لا، لم يعد.

• وهل يستطيع نيقولاي أن يذهب؟

قالت دونياشا:

• أبي طريح الفراش من وجع الظهر.

فسأل الوكيل:

• ألا تأمرين بأن أذهب غداً بنفسي؟

• لا، فوجودك ضروري هنا، يا يغور. (وغرقت السيدة في التفكير)

كم هي النقود؟

• أربعمائة واثنتان وستون روبلاً.

• ابعث بوليكي. - قالت السيدة، وهي تحدق في وجه يغور

ميخائيلوفيتش بحزم.

أفزع يغور ميخائيلوفيتش شفتيه، وكأنه يبتسم، دون أن يكشف

عن أسنانه، ولم يطرأ تغير في وجهه.

- سمعاً وطاعة.

- أرسله لي.

- سمعاً وطاعة.

وذهب يغور إلى إدارة القرية.

- ٢ -

كان بوليكي، كرجل ضئيل الشأن، مثلوب، فضلاً عن كونه من قرية أخرى، لا يجد حماية لا من جانب مديرة شؤون البيت، ولا من جانب الطباخ، ولا من جانب الوكيل، ولا من جانب الوصيفة، فكان له أسوأ «مأوى»، رغم أنه كان صاحب عائلة وذرية. كانت هذه «المأوى» التي بناها السيد المرحوم على الشكل التالي: كوخ حجري مساحته عشرة أذرع يتوسطه موقد روسي تحيط به مسافة فارغة - الدلهيز* (وهو الاسم الذي كان يطلق عليها الخدم)، وفي كل ركن مأوى محجوز بألواح خشبية. فالمكان، إذن، صغير، لا سيما في مأوى بوليكي، الأقصى عند الباب. مخدع كئيب فيه لحاف ومخدات من القطن الخشن، ومهد يرقد فيه طفل، ومنضدة صغيرة ثلاثية القوائم، يعد عليها الطعام، ويغسل، وتوضع كل حاجيات البيت، ويعمل عليها بوليكي نفسه (كان بيطاراً)، ويرميل صغير، وملابس، ودجاجات، وعجل صغير، وأفراد العائلة السبعة أنفسهم كانوا يملأون المأوى كله، وما كان من الممكن أن يتعلموا لو لم يترك لهم الموقد المشترك ريعه، حيث كانت الأشياء وأهل المأوى

* كلمة مشووعة من «دهليز» .. المترجم .

ينطرحون عليه، لو لم يكن ثمة منفذ للخروج إلى مدخل المسكن. وأحسب ذلك لم يكن ليجدي كثيراً. فالجو في تشرين الأول بارد في مدخل البيت، ولم يكن هناك من لباس دافئ غير جبة حوذي يتقاسمها السبعة جميعاً، ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يتدفأ الأطفال بالركض، والكبار بالشغل، وهؤلاء وأولئك بالصعود إلى سطح الموقد، حيث كانت الحرارة تصل إلى أربعين درجة مئوية ولعل من الفطاعة العيش في مثل هذه الظروف، ولكنهم لم يجدوا في ذلك عسراً، فقد كان من الممكن أن يعيشوا. كانت أكوينا تغسل ملابس الأولاد والزوج وتخييط لهم، وتغزل، وتحك، وتبيض قطع الخيش، وتسلق وتخبز في الموقد المشترك، وتتبادل الشئام والأقاويل مع الجيران. وكانت الأجور الشهرية كافية ليس للأطفال فقط، بل ولدرس البقرة. وكان الحطب مباحاً، وكذلك علف الماشية. وكان التبن يؤخذ من الاسطبل، وكان هناك حديقة خضروات صغيرة. وكانت البقرة ولوداً، وكانت لهم دجاجاتهم أيضاً.

وكان بوليكي يعمل في الاسطبل، يعتني بمهرين، ويحجم الخيول والماشية، وينظف حوافرها، ويشغل المضخات، ويصنع دهونات من اختراعه، فكان يحصل من ذلك، بين الحين والآخر، على بعض النقود والمؤونة. كما كان يتبقى شيء من شعير السيدة. وكان في القرية موجيك أريحي كان يعطي كل شهر في انتظام عشرين رطلاً من لحم الضأن لقاء مكبالين من الشعير. وكان من الممكن أن يعيشوا، لو لم تكن محتنتهم النفسية. وكانت المحنة كبيرة على العائلة كلها. لقد كان بوليكي منذ صباه يعمل في مزرعة تنسيل الخيول، وكان السائس الذي صادف أن اشتغل معه اللص الأول في الناحية كلها، وقد أرسل إلى المنفى، وعلى

يد هذا الرجل تلقى بوليكي تعليمه الأول، وهكذا تعود على هذه الأشياء التافهة منذ نعومة أظفاره، حتى إنه فيما بعد كان يسعده لو يتخلص منها، ولكنه لم يقدر، كان رجلاً فتياً ضعيف الإرادة، يتيم الأبوين، لم يكن له من يتعلم منه. وكان يحب شرب الخمرة. لكنه لم يكن يحب أن يترك شيئاً وقع في طريقه من غير راع*. وكان كل شيء يستهوى بوليكي ايليتش سواء أكان هذا الشيء سيراً لشد الحصان، أو سرجاً، أو قفلاً، أو مسماراً قارناً، أو شيئاً أغلى من ذلك بقليل.

وكان يجد في كل مكان أناساً يتقبلون هذه الأشياء الصغيرة، ويدفعون عنها نبيذاً أو نقوداً، حسب الاتفاق. وهذه أسهل الأرزاق، لا تحتاج، كما يقول الناس، لا إلى علم ولا إلى فهم، وإذا جربها الإنسان مرة لم تنازعه نفسه إلى شغل آخر. شيء واحد غير لطيف في هذه الأرزاق، وهو رغم أن من الممكن أن تحصل على كل شيء برخص، وبلا مشقة، وأن تعيش بارتياح إلا أن هذه الحرفة قد تنهار فجأة بسبب أهل السوء، فإذا بك تدفع ثمن كل شيء دفعة واحدة، وتشقى في حياتك.

وهذا ما حصل بوليكي. لقد تزوج بوليكي، ووقفه الله في ذلك، فبان زوجته، وهي ابنة راعي مواش، امرأة مكتملة، ذكية شغول، كانت تنجب له أولاداً واحداً أحسن من الآخر. لكن بوليكي لم يترك حرفته وكان كل شيء على ما يرام. وفجأة خانه التوفيق، وانكشف أمره. وقد انكشف أمره بسبب توافه: فقد كان قد أخفى أعنة جلدية لدى أحد الريفين. فوجدوها وضربوه، وأبلغوا السيدة بذلك، وصاروا يراقبونه. ثم انكشف مرة ثانية، وثالثة.

* يقعد دون أن يسرقه. المترجم .

وأخذ الناس يشينونه، وهدده الوكيل بالتجنيد، وويخته السيدة، وأخذت زوجته تبكي وتتوسل، وانقلب كل شيء إلى ضده. كان رجلاً طيباً، مبرراً من الخبث، سوى أنه ضعيف النفس، يحب الحمرة، وصارت هذه عادة مستحكمة فيه، حتى لم يستطع أن يتغلب عليها قط. وكانت زوجته تأخذ بشتمه، بل وتضربه حين يأتي إليها سكران، فيبكي ويقول: «أنا رجل تعيس، فماذا أفعل بنفسي؟ أقسم لك إنني سأترك، لن أفعلها مرة أخرى» ويترك البيت بعد شهر، ويسرف في الشرب، ويختفي يوماً أو يومين. وكان الناس يقولون: من أين «يأخذ الفلوس لبشر»؟. وكانت آخر قضية له هي قضية ساعة الإدارة. فقد كانت في الإدارة ساعة حائطية معلقة قديمة توقفت منذ زمان. وذات مرة تعين عليه أن يدخل الإدارة المفتوحة لوحده، فأغوته الساعة، فأخذها، وباعها في المدينة. وشامت المصادفة السيئة أن يكون صاحب الدكان الذي باع له الساعة خطاب إحدى الخاديات، فجاء في يوم العيد إلى القرية، وحكى للناس عن الساعة. وأخذوا يتحققون كأنما كانت هناك حاجة إلى ذلك. وكان الوكيل لا يضرر الود لبوليكي. وعرفوا ذلك الشخص، وأبلغوا الأمر للسيدة. فاستدعت السيدة بوليكي، فوقع على ركبتيه أمامها متضرعاً بعاطفة وتأثر، واعترف بكل شيء، مثلما لقنته زوجته. وقد نفذ كل ذلك بشكل جيد جداً، وأخذت سيده تعيده إلى صوابه، وظلت تتحدث وتتلو المواعظ عن الرب، والفضيلة، وعن الحياة الآخرة، وعن الزوجة، والأطفال، حتى جعلته يذرف الدموع. وقالت السيدة:

- أسامحك، فقط أن تعذني بأن لا تعود إلى فعل ذلك أبداً.

- لن أفعل طوال عمري! ولتغيبني الأرض، ولتبقر أحشائي! - قال بوليكي ذلك، وبكى بعاطفة جياشة.

وذهب بوليكي إلى البيت، وظل في البيت يخور كالعجل الصغير طوال اليوم، وينطرح على سطح الموقد، ومنذ ذلك الحين لم يلحظ شيء ضده قط. سوى أن حياته أضحت خالية من الفرح، فقد كان الناس ينظرون إليه، كما ينظرون إلى لص، فلما جاء وقت اختيار الذين يرسلون للتجنيد كان جميع الناس يشيرون إليه.

كان بوليكي بيطاراً، كما ذكر من قبل. ولا أحد من الناس يعرف كيف انقلب بوليكي إلى بيطار، بل هو نفسه أقلهم معرفة بذلك.

فهو في مزرعة تنسيل الخيول، حين كان مساعداً للسائس الذي نفي، لم يزاوّل عملاً آخر غير تنظيف الحظائر من الروث، وأحياناً تنظيف الخيول، وجلب الماء، ولم يكن ميسراً له أن يتعلم هناك.

ثم عمل ناسجاً، وبعد ذلك اشتغل في بستان، ينظف الممرات، ثم في كسر الآجر عقاباً له، ثم استؤجر بواباً لدى تاجر. كان ذلك ليدفع بدل تسريح*. ومعنى ذلك أنه في هذه أيضاً لم يتلق ممارسة. ولكنه في إقامته الأخيرة في بيته أخذت تشيع شيئاً فشيئاً سمعة براعته غير الاعتيادية، بل والمخارقة بعض الشيء، في فن البيطرة. حجم مرة، ثم أخرى، ثم طرح أحد الخيول، ونبس في فخذه، وطلب أن ينقل الحصان إلى الملمزة، وحز القسم الأسفل من الحافر حتى أدماه، رغم أن الحصان كان يرفس، ويعول، وقال إن ذلك معناه «تصرف دم ما تحت الحافر» ثم أوضح للريفي صاحب الحصان أن من الضروري أن يحجم من كلا الوريدين «لتزيد خفته».

* بدل تسريح : يدفعه الفلاح القن لسيدة عينا أو نقداً لقاء تسريحه ليشتغل في عمل آخر.
المرجم .

ثم أخذ بضرب مبضعاً كليلاً بمطرقة خشبية. ثم أخذ يشد تحت بطن حصان البواب مشدداً من منديل الزوجة. وأخيراً أخذ ينشر الزاج على كل بشرة، وينقع من قارورة، وأحياناً يزرق في الداخل ما يطرأ على باله. وكلما ازداد تعذيبه للخيل وقتله لها ازداد انتمان الناس له، وجلبهم الخيل إليه.

أنا أشعر أن إخواننا السادة لا يليق بهم تماماً أن يضحكوا من بوليكي، فإن الطرائق التي استخدمها للإبعا بالثقة هي نفس الطرائق التي كانت تؤثر في آبائنا، وفينا وستؤثر في أطفالنا. فإن ذلك الريفي (الموجيك) الذي وقع ببطنه على حصانه الوحيد الذي لم يكن ثروته فقط بل جزءاً من عائلته تقريباً، وراح ينظر بإيمان وفزع إلى وجه بوليكي المتجههم في تعبير عن الأهمية، وإلى ذراعيه النحيلتين المطويتين الأكمال واللتين كان يضغط بهما تعمداً على موضع الألم، ويشق الجسد الحي بجراحة في نية مبيتة على أن «فليكن ما يكون» متظاهراً بأنه يعرف أين الدم، وأين المادة، وأين العرق الجاف وأين الرطب، بينما هو يمسك بين أسنانه خرقة شاقية أو قارورة من الزاج، إن هذا الريفي لا يقدر أن يتصور أن يد بوليكي، وهي ترتفع، لا تعرف كيف تشق.

فهو نفسه ما كان في مستطاعه أن يفعل ذلك. وما إن يقع الشق، حتى لا يلوم نفسه على أنه قبل بأن يشق حصانه بلا جدوى.

وأنا لا أعرف ما هو شعورك، ولكنني كنت أعاني ذلك الشعور بالذات مع الدكتور الذي كان يعذب أناساً قريبين إلى قلبي بناء على رجائي. أليس الموضع وقارورة بيضاء للسليمانى*، وأسماء نباتات طبية

* مادة كيمياوية .

وكلمات مشوهة وما إلى ذلك. أليست هي نفس المرادفات التي تستعمل لتسمية الأعصاب والروماتزم والعضويات وما إلى ذلك.
*Wage du zu irren und zu träumen! هذا لا ينطبق على الشعراء بقدر ما ينطبق على الأطباء والبياطرة.

٣.

في ذلك المساء نفسه، بينما كان اجتماع يضح عند الإدارة ليختار المجند، في تلك العتمة الباردة من ليل تشرين الأول، كان بوليكي جالساً على حافة فراشه عند المنضدة يسحق عليها بزجاجة دواء للخيول، لم يكن هو نفسه يعرف ما هو. كان خليطاً من السليمانني والكبريت، وملح الجلور، وعشب جمعه بوليكي بنفسه، بعد أن صور لنفسه أن هذا العشب بالذات مفيد جداً لربو الخيل، ولم يجد من الفضول أن يستخدمه في علاج أمراض أخرى. وكان الأطفال قد رقدوا، اثنان منهم على سطح الموقد، واثنان على سرير، وواحد في المهد، حيث جلست أكوлина تغزل. وكان عقب الشمعة، وهو من شموع السيدة التي كانت متروكة من غير راع، موضوعاً في شمعدان خشبي على النافذة، وكانت أكوлина، لكيلا ينصرف زوجها عن عمله المهم، تنهض وتعديل فتيلة الشمعة بأصابعها. كان ثمة متشككون يعتبرون بوليكي بيطاراً فارغاً، وإنساناً فارغاً، والآخرين، وهم الأكثرية يعتبرونه إنساناً سيئاً، ولكنه أستاذ كبير في فنه.

* «تجراً على الهيام والحلم» . كلمة من قصيدة شيللر «تيكلا» (١٨٠٢) .

أما أكوлина، التي كانت غالباً ما تشتم زوجها، بل وتضربه، فقد كانت تعتبره، دون أن يداخلها أي ريب، البيطار الأول والرجل الأول في الدنيا. نشر بوليكي الدواء في قبضته (كان لا يستخدم الميزان، ويسخر من الألمان الذين يستخدمونه قائلاً: «ليست هذه صيدلية!» ووزنه في يده، وهزه، ولكنه بدا له قليلاً، فنثر عشر مرات أكثر منها وقال لنفسه: «اضعها كله، فيؤثر أحسن». التفتت أكوлина بسرعة إلى صوت صاحبها، منتظرة إيعازاً منه، ولكنها هزت كتفها، حين عرفت أن الأمر لا يعنيها. وفكرت مع نفسها: «أوه، يا جاهل، من أين له كل هذا!» وعادت إلى غزلها. وقعت تحت المنضدة الورقة التي كان بوليكي يصب منها الأدوية. فلم تفوت أكوлина هذه الفرصة وقالت:

ـ أنيوتكا! ارفعي ما أوقعه أبوك.

أخرجت انيوتكا قدميها الدقيقتين الخافيتين من تحت الرداء الذي كانت تتغطى به، وانسلت كهرة تحت المنضدة، وأمسكت بالورقة:

ـ هاك، باباتي.

قالت، واندست ثانية في الفراش برجليها المتثلجتين. فصاحت عليها أختها الصغير ترتن بصوتها الناعس:

ـ لا تدفعيني!

قالت أكوлина مهددة:

ـ سأريكما!

فاختفى كلا الرأسين تحت الرداء.

قال بوليكي، وهو يسد الزجاجاة:

ـ سيعطبنى ثلاثة روبلات، وسأشفي الحصان. ذلك رخيص أيضاً.

ثم أضاف - جري أن تخترعى الدواء! اذهبي، يا أكوлина، واطلبي تبغاً من نيكيتا. سأرده له غداً.

وأخرج بوليكي من سرواله شبقاً*، من زيزفون حائل الصبغ، فيه شمع في موضع المبسم، وأخذ يهيئه.

وضعت أكوлина المغزل، وخرجت دون أن تتشريك بشيء، وهو أمر كان في غاية الصعوبة. فتح بوليكي دولاباً صغيراً، وأخرج زجاجة، وقلبها في فمه، إلا أن الزجاجة الفارغة لم تكن فيها أية قطرة من الفودكا. تجهم عابساً، إلا أن زوجته جلبت له التبغ، فراح يحشو غليونيه، وأشعله، وجلس على السرير، وقد أضأت وجهه لمعة الرضى والاعتزاز اللذين يشعر بهما إنسان فرغ من عمله اليومي. ولا ندري هل كان يفكر في أنه سيمسك لسان الحصان في الفد، ويصب في فمه هذا المزيج العجيب، أم كان يفكر في أن الرجل ذا الشأن لا يرفض أحد له طلباً، فهذا نيكيتا قد أرسل له تبغاً على أية حال. لقد كان يحس بارتياح.

وفجأة فتح الباب المعلق من مفصلة واحدة، ودخلت إلى الركن الفتاة من العالي، لا الثانية، بل الصغيرة الثالثة التي كانت تستخدم لإيصال الإرساليات. والعالي، كما يعرف الجميع، يعني بيت السيدة، لو كان يقع في الأسفل. كانت أكسيوتكا. وهو اسم الفتاة - تأتي دائماً طائفة، كالطلقة، ويدها، أثناء ذلك، غير مطويتين، بل متأرجحتين، مثل بندولين، على قدر سرعة حركتها، لا على الجانبين، بل قدام جسمها، وكان خذاها دائماً أكثر حمرة من منديلها الوردي، وكان لسانها يتحرك

* غليون طويل. المترجم .

دائماً بسرعة مثل سرعة رجليها. دخلت الحجرة طائفة، وأمسكت بالموقد، لسبب ما، وأخذت تتأرجع، وكأنها تريد أن تطلق ما لا يقل عن كلمتين أو ثلاث دفعة واحدة، وفجأة نظقت بما يلي لاهثة مخاطبة أكوлина:

ـ أمرت سيدتي بأن يصعد بوليكي ايليتش إلى العالي بسرعة، في هذه اللحظة، أمرت... (وتوقفت والتقطت أنفاسها بصعوبة). كان يغور ميخايليتش عند السيدة، يتحدث عن التجنيد. ذكروا بوليكي ايليتش... أمرت أفدوتيا ميخائيلوفنا أن يهرع في هذه اللحظة... أفدوتيا ميخائيلوفنا أمرت (وزفرت من جديد) في هذه اللحظة يهرع.

نظرت أكسيوتكا هنيهة إلى بوليكي، وإلى أكوлина، وإلى الأطفال الذين أخرجوا رؤوسهم من تحت الغطاء، واختطفت قشرة جوز كانت على الموقد، وقذفتها على أنبوتكا، وبعد أن كررت مرة أخرى « يهرع في هذه اللحظة » خرجت من الحجرة، كالزوبعة، والبندولان يتأرجحان بالسرعة المعتادة بعرض خط سيرها الوئيد.

نهضت أكوлина ثانية، وأخرجت الحذاء لزوجها. كان الحذاء يائساً مهلهلاً، من أحذية الجنود. رفعت القفطان من الموقد، وقدمته لزوجها، دون أن تنظر إليه.

ـ ايليتش، ألا تريد أن تغير قميصك؟

قال بوليكي:

ـ لا.

لم تنظر أكوлина إلى وجهه مرة واحدة، حين كان يلبس حذاءه ويرتدي ملابسه صامتاً، وقد أحسنت صنعاً، إذ لم تنظر إليه.

فقد كان وجه بوليكي شاحباً، وفكه الأسفل يرتجف، وفي عينيه

ذلك التعبير المتفجع الخنوع والشديد التعاسة، الذي يتفرد به الناس الطيبون الضعاف النفوس، المذنبون. مشط شعره، وهم بالخروج، إلا أن زوجته أوقفته، وعدلت شراشيب رداءه المسترخي على القفطان، وألبسته قبعته.

تردد صوت زوجة النجار من وراء الحاجز:

- هل السيدة تستدعيك، يا بوليكي إيليتش؟

وكانت زوجة النجار هذه في صباح اليوم فقط، قد اشتبكت مع أكلينا في شجار حام، لأن أولاد بوليكي دلقوا لها قدر محلول الفسيل القلوي، وقد سرها في الوهلة الأولى أن تسمع أن بوليكي قد استدعي للمثول بين يدي السيدة، فقد يكون ذلك لا عن خير يراد له. فضلاً عن أنها كانت سيدة مرهقة، مداورة، لاذعة. لم يكن أحد يفضلها في اختيار الكلمات اللاذعة، أو ذلك ما كانت تراه في نفسها، على أقل تقدير.

مضت تقول:

- ربما يريدون أن يرسلوه إلى المدينة للمشتريات. وهذا ما أتوقعه، أن يختاروا رجلاً أميناً، فسيرسلوك. عندئذ اشتر لي ربع رطل شاي، يا بوليكي إيليتش.

خنقت أكلينا عبراتها، وانطبقت شفتاها في تعبير عن الغيظ، حتى لودت أن تنشب أصابعها في شعر هذه الخنزيرة الهزيل، زوجة النجار. ولكنها ألقت نظرة إلى أولادها، وفكرت في أنهم سيضحون يتامى، وتصير هي أرملة جندي، فنسبت زوجة النجار اللاذعة اللسان، وغطت وجهها بيديها، وجلست على الفراش، وانطرح رأسها على المخذة.

- مامي، أنت دستيني! - رتنت البنت الصغيرة، وهي تسحب معطفها من تحت كوع أمها.

- عسى أن تموتوا جميعاً؛ ولدتكم للشقاء؛

صاحت أكوлина، وأجهشت وملاً نحيبها الركن كله، تسرية لزوجته النجار التي لم تنس بعد محلول الغسيل القلوي الذي اندلق في الصباح.

. ٤ .

انقضى نصف ساعة. أخذ الطفل يصرخ. نهضت أكوлина، وأرضعته. كانت قد كفت عن البكاء، إلا أنها وسدت وجهها النحيل الجميل يدها، وثبتت عينيها في الشمعة، وهي في رمقها الأخير، وفكرت لم تزوجت، ولم الحاجة إلى كل هذا العدد من الجنود، ثم كيف يمكن أن ترد الحيف لزوجته النجار.

ترددت خطوات زوجها، فمسحت آثار الدموع، ونهضت لتفصح الطريق. دخل بوليكي متبختراً، وألقى قبعته على السرير، وزفر بقوة، وأخذ يحل حزامه.

- ماذا إذن؟ لماذا استدعتك؟

- المسألة معروفة؛ بوليكوشكا آخر الناس، ولكن إذا اقتضى أمر،

فمن له؟ بوليكوشكا.

- ما هو هذا الأمر؟

لم يتعجل بوليكي في الجواب، أشعل غليونه وبصق.

- أمرتني بأن أسافر لأجلب النقود من تاجر.

سألت أكوлина:

.. تجلب نقوداً؟

ابتسم بوليكي ابتسامة مقتضبة، وهز رأسه: .. ما أحذقها في الكلام! قالت لي: إنهم يعتبرونك رجلاً غير أمين، وأنا وحدي أثق بك أكثر من أي شخص آخر (كان بوليكي يتكلم بصوت عال لیسعده الجيران). قالت لي: لقد وعدتني بإصلاح نفسك، وها هو أمامك البرهان الأول على أنني أثق بك. فسافر إلى التاجر، وخذ النقود منه، واجلبها، فأقول لها: يا سيدتي، نحن جميعاً خدمك، ويجب أن نخدمك مثلما نخدم رينا، ولهذا أشعر بأنني أستطيع أن أفعل كل شيء من أجل سلامتك، ولن أستطيع أن أرفض أي واجب.

مريني أنفذ ما تأمرين به، فأنا عبدك. (ومرة أخرى ابتسم تلك الابتسامة التي يتفرد بها إنسان طيب، ضعيف النفس، مذنّب) فتقول لي: إذن، فأنت ستقوم بذلك عن صدق؟ هل تعرف أن مصيرك متعلق بذلك؟ كيف لا يمكن أن أفهم أنني أستطيع أن أفعل كل شيء؟ وإذا كانوا قد شنعوا علي، ففي الإمكان أن تلتصق التهم بكل إنسان، بينما ما كان من الممكن قط، على ما أتصور حتى أن يخطر في بالي أن أسبى إليك. وتكلمت كثيراً حتى سيدتي أصبحت لينة تماماً. وتقول لي: ستكون الرجل الأول عندي.

(وصمت قليلاً، وعادت نفس الابتسامة إلى وجهه) أنا أعرف جيداً كيف أتحدث إليهم. عندما كنت أشتغل عند التاجر، لبدل تسريح، كنت أجابه بهجمة عنيفة من أحد ما! ولكن حالما أتحدث معه، وأداهنه حتى يلين ويصير كالحريز.

وعادت أكرلينا تسأله:

- وهل النقود كثيرة؟

أجاب بوليكي بإهمال:

- ثلاث مرات نصف ألف روبل.

هزت أكرلينا رأسها:

- ومتى ستسافر؟

- أمرتني بأن أسافر غداً. وقالت: خذ أي حصان تحب، وعرج على

الإدارة، وسافر في حفظ الله.

- بمجد أنت، يا رب! - قالت أكرلينا، ونهضت ورسمت علامة

الصليب - ليكن الرب في عونك، يا ايليتش - أضافت همساً حتى لا

يسمعيها من كانوا وراء الحاجز، وأمسكته من كم ردايه - ايليتش،

اسمعي. أحلفك بالمسيح الرب بأن تقبل الصليب حالما تذهب، على أن لا

تضع في فمك قطرة من خمر.

- كيف أشرب وأنا مسافر مع هذه النقود - قال بصوت ناكز، ثم

أضاف بعد أن صمت وكشر ابتسامة مقتضبة - في البيت هناك كان أحد

يعزف على البيانو. لا بد أنها ابنة السيدة. وكنت واقفاً أمامها، أقصد

أمام السيدة، عند الدولاب، والسيدة الصغيرة هناك، وراء الباب، ترسل

الدندنة وراء الدندنة. دندنة عذبة موزونة. ترن وترن! آه لو عزفت. إذن،

لجودت أحسن تجويد. فأنا حاذق في هذه الأشياء. يوم غد هيئي لي

قميصاً نظيفاً.

واستلقيا للنوم هانئين.

وخلال ذلك كان اجتماع الفلاحين يضج عند مبنى الإدارة. كانت القضية في غاية الجدبة. وقد حضر الاجتماع جميع الرجال تقريباً، وبينما كان يغور ميخائيلوفيتش في زيارة السيدة، كان الرجال قد ارتدوا قبعاتهم من جديد، وارتفع عدد الأصوات في كلام جماعي، وترددت بقوة أشد. وارتخى في الهواء لفظ الأصوات المتضخمة يتخلله من حين لآخر كلام مخنوق أجش ضاج، وترامى هذا اللفظ، مثل صوت بحر هادر، إلى نوافذ السيدة التي كانت تعاني، بسبب ذلك، قلقاً عصبياً شبيهاً بالإحساس الذي تشيره عاصفة مثيرة قوية.

فقد كان شعورها يتراوح بين الرهبة والانزعاج، كانت تتخيل طوال الوقت أن الأصوات إذا ما ارتفعت أكثر من ذلك بقليل، وتتابعت أكثر فسيحدث شيء ما. فكانت تقول لنفسها: «كأنما غير ممكن أن يجري كل شيء بهدوء وسلام، ودون جدال ولا صياح، حسب الشريعة المسيحية السمحاء الداعية إلى الحب بين البشر؟».

تكلمت أصوات كثيرة دفعة واحدة، إلا أن النجار فيدور ريزون كان يصيح أعلى من الجميع. كان له ابنان، وكان يهاجم آل دوتلوف. وكان العجوز دوتلوف يدافع. وقد طلع أمام الجمع، بعد أن كان في مؤخرته في بادئ الأمر، وكان يخن بكثرة شديدة، وهو يثلعثم، وبسط ذراعيه، وهز لحيته، حتى كان يصعب عليه هو نفسه أن يفهم ما كان يقوله. والابنان وأبناء الأخ، بهجة للناظرين، يقفون منحشرين خلفه، بينما كان العجوز دوتلوف يشبه الأم في لعبة «الحداة». وكان ريزون الحداة، وليس ريزون وحده، بل إن جميع الثانئين، والأحاديين، وجميع

المجتمعين تقريباً هاجموا دوتلوف. وخلاصة الأمر أن أخا دوتلوف كان قد أعطي للجنديّة، قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً، ولهذا لم يرد دوتلوف أن يكون في فئة الثلاثين، كان يريد أن تحسب خدمة أخيه له، وأن يساويه مع ذوي الولدين في القرعة العامة، وأن يؤخذ منهم المجند الثالث. وكان هناك أربعة من الثلاثين إضافة إلى دوتلوف، ولكن أحدهم كان عمدة، وقد أعفته سيّدته، بينما قدمت عائلة ثانية مجنداً منها في الوجبة السابقة، وحده اثنان من العائلتين الباقيتين، أحدهما لم يجد ضرورة حتى لحضور الاجتماع، ولم تأت إلا امرأته التي كانت تقف خلف الجميع حزينة، منتظرة في ارتياب أن يدور الدولاب لصالحها، بينما وقف المرشح الثاني، وهو رومان الأصهب في جيبته المهلهلة، وإن لم يكن فقيراً، متكئاً على واجهة مبنى الإدارة، وقد خفض رأسه، واعتصم بالصمت طوال الوقت، سوى أنه، من حين لآخر، كان يحرق بعناية فيمن كان يبدأ حديثه بصوت أعلى، ثم يخفض رأسه ثانية. حتى إن التعاسة كانت تلوح من كل شخصه.

كان سيمبون دوتلوف العجوز رجلاً يمكن لأي امرئ له معرفة قليلة به، أن يأتمنه على مئات وآلاف الرويلات. كان رجلاً بادي الرزانة، تقياً ثرياً، بالإضافة إلى كونه راعي الكنيسة. فكان اندفاعه ملفتاً للنظر. بينما كان ريزون، النجار، على العكس من ذلك، رجلاً طويلاً، كئيباً صخاباً، سكيراً جسوراً، بارعاً بشكل خاص في النقاشات والكلام في اجتماعات الفلاحين، والأسواق، سواء مع الشفيلة، أو التجار، أو الريفيين أو السادة. وكان الآن هادئاً، قارصاً يخفق بفراة قامته، وشدة صوته الرنان، وموهبته الخطابية، راعي الكنيسة الذي كان يشهق

بكلامه، ويخرج تماماً عن جادة رزاقته. كما كان يشترك في النقاش: غاراسكا كويلوف المدور الوجه، والمرع الرأس، الأجدد اللحية، الركين البنيان، الذي يبدو أصغر من سنه الحقيقية، وهو واحد من محبي الكلام من الجيل الأكثر شباباً، الذي يأتي بعد جبل ريزون، كان يبرز دائماً بكلامه الحاد، ويكسب لنفسه وزناً في اجتماع الفلاحين. ثم فيودور ميلنيتشني، الموجيك الأصفر، النحيف، الطويل، المحدودب، الشاب أيضاً، بالشعرات القليلة في اللحية، وعينيه الصغيرتين، الصفراوي دائماً، الكتيب، والذي كان يجد في كل شيء جانباً خبيثاً، وكثيراً ما يريك اجتماع الفلاحين بأسئلته وملاحظاته المفاجئة المتقطعة. ومحباً الكلام هذان كان كلاهما في صف ريزون. وبالإضافة إلى ذلك كان اثنان من الثرثارين يتدخلان من حين لآخر: أحدهما ذو وجه بادي الطيبة، ولحية كتانية عريضة، هو خرابكوف، الذي كان لا يفتأ يردد «يا صديقي المؤدب»، والآخر صغير، له وجه الطائر، هو جيدكوف، الذي كان يردد أيضاً في كل الأحوال: «إذن، يا إخواني» ويتوجه الجميع، ويتحدث بسلاسة، ولكن بدون سبب ولا داع. وكلاهما كان يميل تارة إلى هذا، وتارة إلى ذاك ولكن أحداً لم يستمع إليهما.

وكان هناك آخرون مثلهم، إلا أن هذين الاثنين ظلا على حركتهما الدائبة بين الناس إرضاء لهم، وكانا أكثر الناس صراخاً، مشيرين الخوف في نفس السيدة، وأقل من يسمع لهما، مسلوبي اللب بالضجيج والصياح، مأخوذين كلياً بمتعة تحريك اللسان. كما كان هناك الكثير من مختلف الأوزاع من الفلاحين الريفين: منهم عابسون، ومنهم أصحاب استقامة، ومنهم غير مكترئين، هلعون. وكانت هناك نسوة أيضاً وراء

الرجال يحملن عكاكيز، ولكنني، إن شاء الله، سأتحادث عن جميعهم في مرة أخرى. وكان الجمهور يتكون، بشكل عام، من الريفيين الموجهين، الذين كانوا يقفون في الاجتماع، كما في كنيسة، ومن الذين كانوا يتكلمون في الخلف همساً عن شؤونهم البيتية، أو ينتظرون صامتين هل ينتهي الزعيق بسرعة.

كما كان هناك أغنياء لا يستطيع الاجتماع أن يضيف أو ينقص شيئاً من روائهم، من مثل يرميل ذي الوجه العريض الصقيل الذي كان الريفيون الموجهين ينعتهون بأبي كرش، لأنه كان غنياً.

وستاروستين الذي كان وجهه يحمل تعبير الرضى عن النفس لما لها من سلطة، وكأنه يقول: «مهما قلتم فلن يستطيع أحد أن يمسيني. لي أربعة أولاد، ولكنني لن أعطي واحداً منهم». وكان المفكرون الأحرار ككوييل وريزون يتحشون بهم من حين لآخر، فكانوا يردون، ولكن بهدوء وثبات، وبوعي بحصانتهم. وإذا كان دوتلوف يشبه الأم في لعبة «الحدأة»، فإن فتياته لا يشبهون الفراح أبداً، فقد كانوا لا يرفرفون ولا يزقزقون، بل كانوا يقفون هادئين وراءه. كان أكبرهم، وهو ايغناث، قد بلغ الثلاثين من العمر، والثاني، فاسيلي، كان متزوجاً أيضاً، ولكنه غير صالح للتجنيد، أما الثالث، ايلوشكا، ابن الأخ، فقد كان تزوج لتوه، وكان أبيض البشرة، مورد الوجه في جبة متأنقة (كان يعمل حوذاً) ينظر إلى الناس، ويهرش قفاه تحت القبعة أحياناً، وكأنما الأمر لم يكن يعنيه، بينما كان الحداء يريدون أن يرسلوه بالذات.

كان ريزون يقول:

- جدي قد خدم في الجندية، وهذا ليس سبباً لأرفض الاشتراك في

القرعة. لا يوجد مثل هذا القانون. يا أخ. في الوجبة السابقة أخذوا ميخيتشيف، بينما عمه لم يرجع بعد إلى بيته.

وكان دوتلوف يقول في نفس الوقت:

- لا أبوك ولا عمك خدّم القيصّر، كما أنك لم تخدم السادة، ولا مجمع القرية، وليس لك غير السكر والعريضة. كما أن أبناءك انفصلوا عنك، لأن العيش معك مستحيل. وهذا هو منطقك. تشير إلى أولاد الآخرين. بينما أنا عملت كمساعد لشرطة القرية عشر سنين، وعينت عمدة، ونكبت بحريق مرتين، ولم يساعدني أحد، فتريدون أن تدمروني لأن بيتي وادع مبرأ من النقيصة؟ أعيدوا لي أخي. أظن أنه مات هناك. احكموا بالعدل، وبما أشار الله، أيها المؤمنون، لا بما تصفون إلى ما يفوه به سكير.

وفي نفس الوقت كان غيراسيم يقول لدوتلوف:

- أنت تذكر أخاك، ولكن أخاك لم يرسل إلى الجنديّة من قبل مجمع القرية، بل أرسله السادة لفسوقه، فلا تجعل منه ذريعة.

وقبل أن يتم غيراسيم كلامه شرع فيدور ميلنيتشني الأصفر الطويل، وهو يخرج إلى الأمام:

- أجل، السادة يرسلون من يعن لهم، وبعد ذلك تعال يا مجمع القرية وحقق. مجمع القرية قرر أن يرسل ابنك، وأنت لا تريد ذلك، فاذهب إلى السيدة، فقد تأمرني بأن أحلق بالموس*، رأسي وأنا معبل واحد عند أبنائي. هذا هو القانون الذي يريدونه. قال في صفراوية، ولوح بيده مرة أخرى، وعاد إلى مكانه السابق.

* حلاقة الرأس إلى النصف كانت عادة شائعة للذين يجندون. المترجم.

رفع رومان الأصهب رأسه، وكان قد وقع الاقتراع على ابنه، وردد:
«تمام، تمام!» - بل وجلس على الدرجة في ضيق.

ولكن هذه ليست كل الأصوات التي تكلمت دفعة واحدة. فإن
الشرثارين لم ينسوا مهمتهم، إلى جانب الذين كانوا يتحدثون عن
شؤونهم، وهم واقفون إلى الخلف.

كان جيدكوف الصغير يقول مردداً كلمات دوتلوف:

- بالضبط، أيها المؤمنون. يجب أن تحكموا بروح المسيحية. إذن، يا
إخواني، بروح المسيحية يجب أن تحكموا!!

- يجب الحكم بما يميله الضمير، يا صديقي المؤدب. كان يقول
خرابكوف الطيب القلب، مردداً كلمات كوبيلوف، جاذباً دوتلوف من
جنبته. هذه كانت مشيئة السيدة، وليس قرار مجمع القرية.

وكان آخرون يقولون:

- صحيح! بالضبط!

فاعترض ريزون قائلاً:

- من هذا السكران الذي يهذي؟ هل كنت تقدم لي المشروب، أم أن
ابنك الذي يلتقطه الناس من الطريق، سيعيرني بالخمرة؟

يا إخوان، يجب اتخاذ قرار. وإذا كنتم تريدون التسامح مع
دوتلوف، فانتخبوا حتى الأحاديين وليس الثنائيين وحدهم. فإنه سيضحك
منا، على أية حال.

- يجب أن يرسل دوتلوف! من كل يد!

وقالت أصوات:

- المسألة معروفة! يجب على الثلاثين أن يجروا القرعة أولاً.

وارتفع صوت:

. والله اعلم ماذا ستأمر السيدة أيضاً. قال يغور ميخائيلوفيتش إنها كانت تريد تقديم أحد من الخدم.

أعاققت هذه الملاحظة الجدول بعض الوقت، إلا أنه سرعان ما احتدم من جديد، وتحول مرة أخرى إلى الأشخاص.

أخذ ايغناث الذي قال عنه ريزون أن الناس كانوا يلتقطونه من الطريق، يشبث لريزون أنه سرق منشاراً من نجارين عابرين، وأنه ضرب زوجته، وهو سكران، حتى أوشكت أن تموت.

فيرد ريزون بأنه يضرب زوجته صاحباً كان أو سكران، ومع ذلك فهذا قليل بحقها. ويقول هذا أضحك الجميع. أما بخصوص المنشار، فقد استاء فجأة، وتقدم من ايغناث وأخذ يسأله:

. من سرقه؟

. أنت سرقته. قال ايغناث الضخم، بجرأة، وهو يدنو منه أكثر.

صرخ ريزون:

. من سرقه؟ ألسنت أنت؟

صاح ايغناث:

. لا، بل أنت!

وبعد الإشارة إلى المنشار، تحولت الأحاديث إلى حصان مسروق، وإلى كيس شوفان، وإلى شريط حديقة خضروات ضمن حدود القرية، وإلى جثة شخص ما. وقد أفضى الرجلان كلاهما بأشياء رهيبة، حتى لو أن واحداً بالثمة مما لاما أنفسهما عليه كان حقيقة لأستحق كلاهما، قانونياً، النفي إلى سيبيريا، أو الإبعاد، على الأقل.

وخلال ذلك اختار العجوز دوتلوف نوعاً آخر من الدفاع. لم يعجبه

صياح ابنه، فأوقفه وهو يقول: «هذا إثم، فتوقف! اسمع كلامي»، وراح يثبت أن الثلاثين ليسوا هم فقط الذين لهم ثلاثة أولاد يعيشون سوية، بل والذين انقسموا إلى عوائل. كما أنه ذكر ستاروستين أيضاً.

ابتسم ستاروستين ابتسامة خفيفة، وبأبأ، ومسد على لحبته على طريقة الموجيك الغني، وأجاب أن ذلك مشيئة السيدة. وإذا كانت قد أمرت بإبقاء ابنه، فلا بد أنه استحق ذلك.

كما أن غيراسيم فند براهين دوتلوف بخصوص العوائل المقسمة، إذ قال، كان يجب ألا يسمح بالتقسيم، كما كان الحال في زمن السيد العجوز، فما فات فات، والآن لا يجند الابن الوحيد للعائلة.

وترددت أصوات المنقسمين:

«وهل قسمت العوائل دلالاً ودلعاً؟ فلماذا نحطمها الآن، كلياً؟

وانضم الثرثاران إلى هذه الأصوات.

وقال ريزون لدوتلوف:

«ادفع عن بديل له، إذا كنت لا تحب، وتخلص!»

أخذ دوتلوف يضم طرفي قفطانة في يأس، ووقف وراء الريفينين

الأخريين.

«الظاهر أنك عددت فلوسي - قنال في حق - ها هو يغور

ميخائيلوفيتش ماذا سيقول لنا بعد نقلاً عن السيدة.

٦.

وبالفعل خرج يغور ميخائيلوفيتش من بيت السيدة. في هذه الأثناء

ارتفعت القبعات فوق الرؤوس واحدة بعد الأخرى، وكلما كان الوكيل

يقترّب أكثر، كانت الرؤوس تنحسر واحداً بعد الآخر، رؤوس صلعاء في

اليافوخ، أو عند الناصية، شيباء ونصف شيباء، حمراء الشعر وسوداء، وكتانية، وهدأت الأصوات شيئاً فشيئاً، حتى سكنت كلياً. وقف يغور ميخائيلوفيتش على مدخل المبنى، وأظهر من هيئته أنه يريد أن يتكلم. كان في سترته الطويلة، ويداه محشورتان في جيبيه الأماميين بطريقة غير مريحة، وقبعته العملية الصنع المدفوعة إلى أمام، وفي وقفته منفرج الساقين على العلوة بثبات، مشرفاً على هذه الرؤوس المرفوعة والمتجهة نحوه، الشائخة في جزء كبير منها، والجميلة الملتحبة في جزء آخر كبير أيضاً، يبدو في مظهر مختلف تماماً عن مظهره وهو ماثل أمام السيدة. لقد كان مهيب الطلعة.

- هذا هو قرار السيدة، يا شباب: إنها لا تود التخلي عن خدمها. ومن تعينونه من بينكم سيرسل. نحن نحتاج اليوم إلى ثلاثة. في الحقيقة إلى اثنين ونصف. والنصف الآخر سيذهب فيما بعد. لا فرق. إذ لم يكن الآن، ففي المرة القادمة من كل بد.

ترددت أصوات:

- معلوم! هذه هي الحقيقة!

- في رأيي - تابع يغور ميخائيلوفيتش كلامه - مكتوب على خوربوشكين وعلى فاسكا ميتيوخين أن يذهبا. هذا ما أراده الله نفسه.

ترددت أصوات:

- صحيح، بالضبط.

- أما الثالث فأما أن يكون دوتلوف أو واحداً من الشائنين.

فماذا تقولون؟

- دوتلوف. آل دوتلوف من ذوي الثلاثة.

ومن جديد بدأ الصباح شيناً فشيناً، ومرة أخرى تحول الحديث إلى المنشار، وإلى شريط الأرض ضمن حدود القرية، وإلى سقط متاع سرق من بيت السيدة. كان يغور ميخائيلوفيتش يدير الضيعة منذ عشرين عاماً، وهو رجل ذكي ومحنك. ولذلك وقف قليلاً، وأصغى زهاء ربع ساعة، وإذا به يأمر الجميع بأن يسكتوا، وأن يسحب القرعة واحد من أبناء دوتلوف الثلاثة. قطعت قصاصات القرعة بأسماء المقترعين. وأخذ خرابكوف يسحب من القبة التي خلطت فيها القصاصات، والتي هزها، فأخرج قصاصة ايليوشكا. وغرق الجميع في الصمت.

قال ايليوشكا بصوت مخمق:

- وقعت القرعة علي؛ أروني.

صمت الجميع. أمر يغور ميخائيلوفيتش بأن تجلب نقود التجنيد في الغد، بمقدار سبعة كوبيكات عن كل حصان وأعلن أن كل شيء قد انتهى، وفض الاجتماع. تحرك جميع الفلاحين مرتدين قبعاتهم في وراء المنعطف، مبشرين الضجيج بكلامهم ووقع خطواتهم. وقف الوكيل على مدخل المبنى، ناظراً إلى المنصرفين. ولما مر فتیان دوتلوف وراء المنعطف، دعا دوتلوف العجوز إليه، وكان قد توقف بنفسه، ودخل الاثنان مبنى الإدارة.

- إنني مشفق عليك، يا شيخ - قال يغور ميخائيلوفيتش، وهو يجلس على كرسي أمام المنضدة - الدور عليك. فهل ستدع لبديل عن ابن أخيك أم لا؟

نظر العجوز إلى يغور ميخائيلوفيتش نظرة ذات مغزى، دون أن يرد، فأجاب يغور ميخائيلوفيتش عن نظرتة:

. لا غنى عن ذلك.

. يا ليت أن أدفع، ولكن اليد قصيرة، يا بغور ميخائيلوفيتش،
أضينا الحصانين في الصيف، لأزوج ابن أخي. هكذا مصيرنا، كما
يبدو، لأننا نعيش بنزاهة. إنه يجيد الكلام (متذكراً بذلك ريزون).

مسح بغور ميخائيلوفيتش وجهه بيده، لقد ضجر، في الظاهر، وقد
حان وقت احتساء الشاي. قال:

. أوه، يا عجوز، لا تأثم، وابحث في الزوايا، وأظنك ستجد أربعاً
من فئة المائة روبل القديمة. سأشتري لك بديلاً مذهلاً. قبل أيام أبدى أحد
الأشخاص رغبته.

. في المقاطعة.

سأل دوتلوف، وهو يقصد المدينة بالمقاطعة.

. هل ستشتريه إذن؟

. يا ليت، قسماً بالله، ولكن...

قاطعه بغور ميخائيلوفيتش بحدة:

. كفى، اصغ إلي، يا شيخ، يجب أن لا يعمل ايليوشكا شيئاً على
نفسه، طالما أرسل طلباً إليه، اليوم أو غداً يجب أن تسافر معه حالاً،
وتكون مسؤولاً عنه، وإذا ما حصل له شيء، لا سمح له، فأخذ منك
ابنك الكبير. هل تسمع؟

. ولكن ألا يجوز أن يكون التعيين من الشنائين، يا بغور
ميخائيلوفيتش، أنا مظلوم. قال بعد أن صمت قليلاً. أخي مات وهو
يخدم في الجندية، وعلاوة على ذلك يأخذون ابنه: على أي شيء امتحن
هذه المحنة؟

قال وهو يكاد يبكي، موشكاً على أن يتهاوى.

قال يغور ميخائيلوفيتش:

ـ اذهب، اذهب، لا يجوز أبداً. نظام. عليك أن تراقب ايليوشكا،

فأنت مسؤول عنه.

ذهب دوتلوف إلى بيته سارح الفكر، يضرب بالعصا نتوات

الطريق.

٧٠

في بكرة صباح اليوم التالي كانت تقف أمام مدخل «جناح» الخدم
عربة (كان يقلها الوكيل أيضاً) شد عليها فرس أصهب مخصي ضخم
العظام كان يسمى «برابان»* لسبب غير معروف.

وكانت أنيوتكا ابنة بوليكوشكا الكبرى تقف أمام الحصان حافية
القدمين رغم المطر المشوب بالبرد، ورغم الريح الباردة، محسكة بعيداً منه
مقوده بيد واحدة، في هيئة ذعر، واضعة اليد الأخرى على رأسها لتمسك
بالبلوزة الخضراء المصفرة المستخدمة بين أفراد العائلة كدثار، وفروة،
وغطاء رأس، ووساط، ومعطف لبوليكي، وفي وظائف أخرى كثيرة. في
الركن حركة واضطراب.

وكان الظلام ما يزال مخيماً، والضوء الصباحي ليوم ممطر يتسلل
قليلاً جداً من خلال نافذة ألصقت بالورق هنا وهناك. كانت أكوлина قد
تركت لوقت قصير الطبخ في الموقد، والأطفال في حالهم، والصفار

* برابان بالروسية تعني الطبل. المترجم .

منهم لم ينهضوا بعد، وقد تثلجوا بعد أن أخذ منهم الدثار ليستخدم لباساً، وأعطي لهم منديل رأس أمهم، وتفرغت أكوлина لتهيئة زوجها للسفر. وكانت قد غسلت الرداء، والحذاء الذي تهرأ وصار مثل الشدق المفتوح، كما يقولون، كان شغلاً شاغلاً لها.

فهي، أولاً، قد خلعت عنها الجوربين الصوفيين السميكين الوحيديين، وأعطتها لزوجها. وثانياً، كان ايليتش قد جلب للبيت قبل ثلاثة أيام لباد سرج كان مرمياً بدون راع في الاسطبل، فتحايلت أكوлина لتصنع منه بطانتين للحذاء لتسد الثقوب، ولتحفظا قدمي ايليتش من الرطوبة. وكان ايليتش نفسه يتربع على السرير مشغولاً بقتل حزامه حتى لا يبدو مثل حبل قذر. أما الطفلة الغاضبة التي ترقن بكلامها فقد أرسلت إلى نيكيتا تطلب منه قبعة، فكانت تتعشر بالفروة التي كانت تلتف بين قدميها، حتى وهي على رأسها. وزاد من الحركة توافد الخادومات والخدم يطلبون من ايليتش أن يشتري لهم من المدينة: لهذه إبرة، ولتلك شاياً، ولثلاثة زيتاً لمصباح الأيقونة، ولآخر تبغاً، وطلبت زوجة النجار سكرأ، وكانت قد لحقت أن تنصب السماور استرضاء لايليتش، وتجلب له في قده مشروباً سمته شاياً. ورغم امتناع نيكيتا من إعطاء القبعة واضطرار ايليتش إلى إصلاح شأن قبعته، أي حشر بطانتها الطالعة والمدلاة، وخياطة الثقب بإبرة بيطرية، ورغم أن الحذائيين المفروشين بلباد السرج لم يدخلا في قدميه في بادئ الأمر، ورغم أن أنيوتكا قد تثلجت وكادت تطلق مقود «برابان» وذهبت ماشكا الصغيرة المتدثرة في الفروة إلى مكانها، ثم اضطرت بعد ذلك إلى التخلي عن الفروة، وخرجت اكوлина نفسها لتمسك «برابان»، إلا أن الأمر قد

انتهى، على أية حال، بأن يضع ايليتش على نفسه كل ملبوس العائلة، ولم يبق غير البلوزة والحذاء، ولما نهياً، جلس في العربة، والتف بفروته، وعدل الدريس، والتف ثانية، وأمسك بالمقودين، وزاد من إحكام فروته عليه، كما يفعل الرزبنون جداً، وتحرك بالعربة.

خرج طفله ميشكا إلى مدخل البيت، وطالب أن تسير به العربة قليلاً. كما طالبت ماشكا المترتنة بأن «تسير بها أيضاً وبأنها لا تشعر بالبرد بدون جبة». فأوقف بوليكي «برابان» وابتسم ابتسامته الضعيفة، فأجلست اكلينا الطفلين في العربة، وانحنت نحوه، وهمست له بأن يتذكر القسم، ولا يشرب شيئاً في السفر. سار بوليكي بالطفلين إلى دكان الحدادة، وأنزلهما، والتف من جديد، وعدل القبعة أيضاً، ومضى لوحده في خيب بسيط متزن، يهتز خداه عند الرجات، وتضرب قدماه على طرف العربة. وانطلق ميشكا وماشكا على المنحدر الزلق إلى البيت حافيين، في عدو سريع وزعيق شديد، حتى إن الكلبة التي كانت تركض من القرية إلى فناء بيت السيدة، نظرت إليهما، وعكفت ذيلها، وعادت تعدو إلى القرية نابحة نباحاً زاد زعيق نجلي بوليكي أضعافاً مضاعفة.

كان الطقس رديئاً، والريح تحز الوجه، ومن حين لآخر كان شيء ما بين الثلج والمطر والبرد يضرب وجه ايليتش ويديه العاريتين اللتين خبأهما مع المقودين الباردتين تحت كمي الجبة، ويضرب السطح الجلدي لريقة الحصان ورأسه العجوز، وكان برابان يلصق أذنيه، ويقلص عينيه.

ثم انقطع ذلك فجأة، وصفا الجو في لمحة واحدة، ولاحت بوضوح السحب الثلجية الضاربة إلى الزرقة، وبدا وكأن الشمس على وشك أن تطل، ولكن بتردد وبدون بهجة مثل ابتسامة بوليكي نفسه. ورغم ذلك،

فقد كان ايليتش غارقاً في أفكار حلوة. إن هذا الرجل الذي أرادوا أن ينفى، وهدد بالجندية، وشتمه وضربه كل من هب ودب، وكان يرسل دائماً إلى أسوأ ما يكون، يسافر الآن ليتسلم مبلغاً من النقود، ومبلغاً كبيراً، والسيدة تأتمنه، ويسافر في عربة الوكيل، يجرها برابان الذي تستخدمه السيدة نفسها، يسافر كصاحب حال على عربة بسيرين جلديين ومقودين. ولهذا كان بوليكي يجلس رافعاً هامته أكثر، ويعدل البطانة في قبعته، ويزيد من لف فروته على جسده. وبالمناسبة، إذا كان ايليتش يتصور أنه تام الشبه بصاحب حال ميسور، فهو على ضلال. حقاً أن كل إنسان يعرف أن التجار ممن يملكون عشرة آلاف روبل فأكثر يركبون عربة لها مقود وعدة من جلد. ولكن هذا ليس كل الحقيقة. فأنت ترى رجلاً ذا لحية، في قفطان أزرق أو أسود يقل عربة يجرها حصان مشبع، متفرداً في حوض العربة بنفسه، فتعرف على التو، هل يملك آلاف الروبلات أو مئاتها، تعرف ذلك من امتلاء الحصان، ومن امتلائه هو، ومن عدة الحصان، ومن عجالات العربة، ومن حزام الرجل. إن كان إنسان مجرب، ما أن ينظر عن كشب إلى بوليكي، وإلى يديه، وإلى وجهه، وإلى لحيته المرسله قبل وقت قصير، وإلى حزام الخوذي الذي يتمنطق به، وإلى الدريس الملقى في الصندوق حسبما اتفق، وإلى «برابان» النحيل، وإلى العجلات المحكوكة، حتى يدرك في الحال أن المسافر ليس تاجراً، ولا بائع ماشية، ولا صاحب حال، بل خادم ضئيل الشأن لا يملك ألفاً ولا مئة ولا عشرة روبلات. ولكن ايليتش لم يفكر في أنه على ضلال، فكان ضلاله حلواً له. سيحمل أنصاف الألف الثلاثة من الروبلات في طية صدره. وإذا رغب استطاع أن يسوق «برابان» إلى حانة أوديست بدلاً

من البيت، ويذهب إلى حيث يشاء الله. ولكنه لن يقدم على ذلك، بل سيعود بالفلوس إلى السيدة بالتأكيد، ويقول: إنه قد تسنى له أن يحمل فلوساً أكثر. حاذى «برابان» حانة، فأخذ يجذب المقود الأيسر، ويتوقف، ويلتفت، إلا أن بوليكي جعل السوط يصفر فوقه واجتازها، رغم أن في حوزته نقوداً أعطيت له للمشتريات. وفعل نفس الشيء عند حانة أخرى، وعند الظهر نزل من العربة، وفتح باب بيت التاجر الذي كان يتوقف فيه جميع رجال السيدة، وقاد العربة، وفك الحصان، ووضعه أمام الدريس، وتناول غداً مع شغيلة التاجر، وما امتنع عن الرضى في ذكر مهمته العظيمة التي جاء من أجلها، وذهب إلى البستاني، والرسالة في قبعته. كان البستاني يعرف بوليكي، وقد قرأ الرسالة، واستفسر في ارتياب ظاهر عما إذا كان عهد إليه حقاً بجلب النقود. أراد ايليتش أن يبدي تكدره، ولكنه لم يستطع، واكتفى بأن ابتسم ابتسامته المعهودة. أعاد البستاني قراءة الرسالة وأعطاه النقود. تسلم بوليكي النقود، ووضعها في طية صدره، وذهب إلى مكان إقامته. ولم يغوه مشرب ولا خمارة. وكان يحس بانفعال لطيف في كل كيانه، وقد توقف غير مرة عند الحوانيت ببضائعها المغرية: من الأحذية الطويلة، والقفاطين، والقبعات، والأقمشة القطنية، والمأكولات. بل كان يقف برهة، وينصرف بخامره شعور جميل بأنه قادر على أن يشتري كل شيء، ولكنه لن يفعل. ذهب إلى السوق الريفية ليشتري ما أوصي به، وحصل على كل شيء، وماكس على فروة من الجلد المدبوغ كان البائع قد طلب عليها خمسة وعشرين روبلاً. وقد نظر البائع إلى بوليكي، ولسبب ما لم يصدق بأنه قادر على شرائها.

إلا أن بوليكي أشار إلى ما في طية صدره، قائلاً إنه قادر على شراء كل ما في حانوته، إذا كان يريد، وطلب بأن يقيس الفروة، ودعكها بيده، وهزها، ونفخ على صوفها، بل وتشبع برانحتها، وأخيراً خلعها في حسرة، وقال: «سعر غير ملائم، فلو تنازلت عن عشرة رويالات تقريباً». ألقى التاجر الفروة عبر المنضدة غاضباً، وخرج بوليكي، واتجه إلى مكان إقامته مرح النفس. تناول عشاءه وسقى برابان، وقدم له الشوفان، وانسل إلى سطح الموقد، وأخرج الظرف، وعابنه طويلاً، وسأل خادماً يعرف القراءة والكتابة، أن يقرأ له العنوان والكتابة على الظرف: «في طيه ألف وستمئة وسبعة عشر رويلاً من الأوراق النقدية». كان الظرف من ورق بسيط، وكانت الأختام من الشمع البني عليها رسم مرساة: ختم كبير في الوسط، وأربعة في الزوايا، وفي ناحية قطرة شمع. وقد تفحص ايلييتش ودرس كل ذلك، بل تلمس حوافي الأوراق البارزة، وأحس بارتياح طفولي لأنه يعرف أن في حوزته هذه النقود. دس الظرف في شق قبعته، ووضع القبعة تحت رأسه، واستلقى، ولكنه حتى في الليل استيقظ عدة مرات، وتلمس الظرف. وكلما وجد الظرف في مكانه، خامره شعور لذيق من يقينه بأن هو بوليكي المدموغ بالعار، والمستذل يحمل مثل هذه النقود، وسيوصلها بتأكيد أكثر مما لو يوصلها الوكيل نفسه.

٨.

في حوالي منتصف الليل أيقظ طرق على الباب، وصباح رجال ريفيين شغبلة التاجر وبوليكي. كان هؤلاء المجندين الذين سيقوا من قرية بوكروفسكويه. وكانوا زهاء عشرة أشخاص: خوربوشكين،

وميتيوشكين، وإيليا (ابن أخي دوتلوف)، وديلان، والعمدة، والعجوز دوتلوف، وسائقو العربات. كانت المسرحية تضيء البيت الخشبي، والطباخة نائمة على تخت تحت الأفونات. وثبت من مكانها، وأشعلت الشمعة. واستيقظ بوليكي أيضاً، وأطل من فوق الموقد، وراح يتمعن الرجال الداخلين. دخل الجميع، ورسوموا علامة الصليب، وجلسوا على التخت. وكانوا جميعاً هادئين تمام الهدوء، حتى كان من المستحيل معرفة من الذاهب منهم إلى الجندية ومن الموصل.

سلموا، وتكلموا، ورجوا أن يتبلغوا بشيء من الطعام. حقاً إن بعضهم كان صموتاً حزيناً، بينما البعض الآخر كان مرحاً بشكل غير اعتيادي، والظاهر أنه قد احتسى بعض الخمرة. ومن هؤلاء كان إيليا الذي لم يشرب من قبل أبداً.

سأل العمدة:

- هل سنتعشى يا شباب، أم نأوي للنوم؟
- نتعشى. - أجاب إيليا، وسط فروته، بعد أن جلس على التخت. -
اطلب فودكا.
- كفى فودكا. - أجاب العمدة بسرعة، وخاطب الآخرين من جديد. -
إذن، كلوا شيئاً من الخبز، يا شباب. فلماذا نوقظ الناس؟
- فودكا. - كرر إيليا، دون أن ينظر إلى أحد، ويصوت نم على أنه سيصر طويلاً.

أطاع الرجال نصيحة العمدة، وأخرجوا من العربات خبزاً، وأكلوا، وطلبوا شيئاً من الكفاس*، واستلقوا ليناموا بعضهم على الأرض، والبعض الآخر على سطح الموقد.

* مشروب غير كحولي من خبز الشعير. المترجم.

وظل إيليا يكرر من حين لآخر: «قدموا الفودكا، هيا، قدموا الفودكا»، وفجأة وقع بصره على بوليكي.

إيليتش، يا إيليتش. أنت هنا، يا صديقي المؤدب؟ وأنا ذاهب إلى الجندية. ودعت إلى الأبد أمي وزوجتي... وكم بكت وأعولت! أبعادوني إلى الجندية. اوص على فودكا لي.
أجاب بوليكي:

ليس لدي نقود. ثم أضاف، وهو يهدئه. عسى الله أن ينجيك من حلق القفا*.

لا، يا أخ، أنا نظيف كشجرة بتولا، ولم أر علة تكلكل علي. فأني علة بي؟ سوف لا يجد القيصر جنوداً أكثر عافية مني.
أخذ بوليكي بقص حكاية شخص أعطى نقوداً للطبيب فأعفاه من الخدمة.

تحرك إيليا نحو الموقد، وأنشأ يقول:

لا، لا إيليتش، انتهى الأمر الآن، وأنا نفسي لا أريد أن أبقى. أقصاني عمي. فهل من المعقول أننا لم نكن قادرين على أن ندفع لبديل عني؟ لا، ولكنه مشفق على ابنه، ومشفق على نقوده.
فهم يتخلون عني... والآن أنا نفسي لا أريد (كان يتكلم بخفوت، واثمان، تحت تأثير حزن هادئ)، وأنا لا أشفق إلا على أمي العزيزة، فكم بكت وانتحبت! وزوجتي أيضاً، أسلموها للموت لغير سبب، والآن ستهلك، زوجة الجندي هذه. كان الأحرى بهم ألا يزوجوني. فلماذا زوجوني؟ ستأتیان غداً.

* كان يجري حلق الأبقار، الذين كانوا غير صالحين للخدمة العسكرية بسبب علة ما. المترجم.

فسأل بوليكي:

- حقاً، لماذا أخذوكم في هذا الوقت المبكر؟ لا ذكر لشيء، وفجأة...

- يخافون أن أفعل بنفسي شيئاً. قال ايليوشكا مبتسماً. ولكن لا

اظن أنني سأفعل شيئاً. لن أضيع حتى في الجندية، سوى أنني أشفق

على أمي. لماذا زوجوني؟

كان يقول ذلك بخفوت وأسى.

وفتح الباب، وصفق بقوة، ودخل العجوز دوتلوف، ونفض قبعته.

وكان في خفيه الضخمين دائماً يبدو وكأنه ينتعل قارين.

- أفاناسي. قال مخاطباً الخادم، ورسم علامة الصليب. - ألا يوجد

فانوس نستدير به لنشر الشوفان؟

لم ينظر دوتلوف إلى إيليا، وأخذ يشعل بقية الشمعة بهدوء. كان

يحشر قفازيه وسوطه وراء حزامه، وقد تنطق قفطانه بعناية، وكأنه قد

جاء مع قافلة عربات، وكان وجهه الكادح بسيطاً عادياً وديعاً ومشقلاً

بالمشاغل الاقتصادية.

صمت إيليا حين رأى عمه، وعاد فأنزل بصره بهجمة نحو التخت،

وقال وهو يخاطب العمدة:

- هات فودكا يا يرميلا، فأنا راغب في شرب خمرة.

كان صوته محنقاً موحشاً.

- أيه خمرة الآن. أجاب العمدة، وهو يأكل من صحنه. أنت ترى

الناس قد أكلوا، واستلقوا ليناموا، فلماذا تشور؟

والظاهر أن كلمة «تشور» مدته بفكرتها.

- يا عمدة، سأقوم بعمل منكر، إذا لم تقدم لي الفودكا.

- على الأقل لو تعيده إلى رشد - خاطب العمدة بذلك دوتلوف الذي كان قد أشعل الفانوس، إلا أنه توقف، على ما يظهر، ليسمع ما سيكون بعد، ونظر إلى ابن أخيه من مؤخر عينه بمواساة، وكأنما ذاهل من رعونته.

أطرق إيليا رأسه، ثم عاد فقال:

- أعطني فودكا، وإلا فعلت منكراً.

- كفى، إيليا - قال العمدة باقتضاب - الأفضل أن تكف.

ولكن ما كاد يتم نطق هذه الكلمات، حتى وثب إيليا، وضرب بقبضته الزجاج، وصرخ بأعلى صوته:

- لا تريدون أن تصغوا، فهاكم!

واندفع إلى النافذة الأخرى ليحطم زجاجها.

وفي لمحة عين تدرج ايلبتش مرتين، واختفى في ركن الموقد، حتى أفرغ جميع الصراصير. ألقى العمدة الملعقة، وهرع نحو إيليا. وضع دوتلوف الفانوس ببطء، وحل حزامه، متلمظاً بلسانه، وهز رأسه، وتقدم من إيليا، الذي كان يصارع العمدة والحادم اللذين كانا يصدانه عن النافذة. وقد أمسكا به من يديه، وقبضا عليه بقوة، ولكن ما أن رأى إيليا عمه يمسك حزامه حتى تضاعفت قوته عشرة مرات، فانتزع نفسه، وتقلبت مقتلته، وتقدم من دوتلوف وقبضته مضمونة.

- لا تتقدم، سأقتلك، يا همجي! أهلكك، أنت وابناك المحتالان،

أنت أهلكك، لماذا زوجتموني؟ لا تتقدم، سأقتلك!

كان ايليوشكا رهيب المنظر، كان وجهه قرمزيًا، وعينه لا تستقران على حال، وكان جسده الفتى المعافى يرتعش كله، وكأنما من قشعريرة حمى.

وكان، على ما يبدو، يريد ويقدر على قتل الرجال الثلاثة الهاجمين عليه.

- تشرب دم أخيك، يا شارب الدم!

التمتع شيء في وجه دوتلوف الهادئ دائماً. وتقدم خطوة إلى الأمام.
- لا تريد بالحسنى - قال ذلك وأمسك ابن أخيه بحركة سريعة، وقوة مفاجئة لا أحد يعرف من أين أتى بها، وأسقطه بجسمه أرضاً، ولوى ذراعيه بمساعدة العمدة. وتصارعوا زهاء خمس دقائق، وأخيراً نهض دوتلوف بمساعدة الرجلين، منتزعاً من فروته يدي إيليا المتشبثتين بها - نهض، ثم أنهض إيليا الموثوق اليدين وراء ظهره، وأجلسه في زاوية على التخت.

- كنت أقول ستكون الحال أسوأ - قال وهو ما يزال يلهث من الصراع، معدلاً حزام ردايه - لماذا ترتكب معصية؟ كلنا سنموت. ضع الجبة تحت رأسه - أضاف مخاطباً الخادم - وإلا فسيصعد الدم إلى رأسه. - وتناول هو الفانوس، وتحزم بحبل، وخرج ثانية إلى الخيول.

أجال إيليا بصره في الغرفة وكأنه يجاهد أن يتذكر أين هو. كان ملتبك الشعر، ممتنع الوجه، مقلوب القميص. جمع الخادم شظايا الزجاج، وسد النافذة بفروة منعاً لنفاذ الريح. وجلس العمدة ثانية إلى صحنه.

- آه، يا إيليوخا، يا إيليوخا! أنا متأسف عليك، حقاً. ولكن ما في اليد حيلة! ها هو خوربوشكين، متزوج أيضاً. لا مجال لتفادي ذلك، على ما يبدو.

- أهلك من جراء الشرير عمي - كرر إيليا بغيظ شديد.

- إنه يخاف على ابنه... قالت لي أُمِّي إن الوكيل أمر بأن يدفع

لبديل عني... ولكنه لا يريد. يقول: ليس عندنا نقود. وهل جلبت أنا وأخي القليل إلى بيته؟.. إنه لثيم، والله العظيم!...

دخل دوتلوف البيت، وصلى للأيقونات، وخلع ملابسه، وجلس إلى العمدة. قدمت له العاملة مقداراً آخر من الكفاس، وملعقة. لزم إيليا الصمت، واستلقى على الجبة، مغمضاً عينيه. أوما العمدة نحوه صامتاً، وهز رأسه. لوح دوتلوف بذراعه.

. وهل يعقل أنني لا آسف عليه؟ ابن شقيقي. رغم أنني متأسف عليه فجعلوني أمامه لثيماً. أدخلت زوجته في رأسه، وهي امرأة ماهرة، ولو أنها شابة، أن لنا من النقود ما يمكننا أن ندفع لبديل له. وها هو يويخني. بينما مشفق على الشاب هذا.

قال العمدة:

. آوه، شاب طيب.

. لم تعد لي قوة عليه. غداً سأرسل ايغناز، كما أن زوجته كانت تريد أن تأتي.

. حسناً، أرسله. قال العمدة، ونهض، وانسل إلى سطح الموقد. وما الفلوس؟ الفلوس شر.

. ومن سيضن بها، إذا كانت موجودة؟. قال شغيل التاجر. رافعاً رأسه.

فرد دوتلوف قائلاً:

. آه، الفلوس، الفلوس! أصل الكثير من البلاء. فيها من الإثم أكثر مما في أي شيء آخر في الدنيا، كما جاء في الكتاب المقدس.

قال الخادم:

كل شيء جاء فيه. ذات مرة قال لي شخص إن أحد التجار جمع فلوساً كثيرة، ولم يرد أن يبقي شيئاً بعده. وكان يحب فلوسه حباً جماً حتى إنه أخذها في تابوته. عندما حضرته الوفاة أوصى فقط بأن توضع وسادته في تابوته. ولم يحدسوا السبب.

وفيما بعد أخذ أولاده يبحثون عن فلوسه. وحدث واحد منهم أن الفلوس لا بد أن تكون في الوسادة. وبلغ الأمر إلى القيصر، فسمح بنبشه. وماذا تتصور؟ فتحوا التابوت، ولم يجدوا إلا الديدان قملأ التابوت. فظمروه ثانية. هذا ما فعلته الفلوس.

قال دوتلوف:

هذا معلوم. إثم كثير.

ونفض، وأخذ يصلي للرب.

ولما انتهى من صلاته نظر إلى ابن أخيه. كان هذا نائماً.

دنا منه، وفك حزامه، واستلقى. وذهب رجل آخر لينام على مقربة

من الخيول.

٩.

ما إن هدأ كل شيء، حتى انسل بوليكي كمن أذنّب، وأخذ يجمع حاجياته. فقد أحس، لسبب ما، بالرهبة في أن ينام مع المجندين. كان صياح الديكة يتردد أكثر فأكثر. وكان برابان قد التهم كل شرفانه، وانجذب إلى المسقى. شده ايليتش إلى العربة، وخرج مجتازاً عربات الريفيين من قريته. كانت قبعته مع محتوياتها سالمة، وعادت عجلات العربة الصغيرة تدق على طريق بوكروفسكايا المتجمد. ولم يشعر

بوليكي بالراحة، إلا بعد أن غادر المدينة. وإلا فقد كان يخيل إليه دائماً، ولسبب ما، أنه يسمع من يطارده من الخلف، وسيوقفه، فتلوى يده إلى الخلف، بدلاً من إيليا، ويساق غداً إلى الجيش. فكانت القشعريرة تسري في ظهره إما من البرد أو من الفزع، فكان لا يفتأ يستحث بربان.

كان أول من التقى به قس يرتدي قبعة شتائية عالية، يصحبه شغيل أعرج. وتطير بوليكي وازداد رهبة. إلا أن هذا الخوف قد زايه قليلاً بعد خروجه من المدينة. سار بربان بتزودة، ولاح الطريق أكثر وضوحاً إلى الأمام. خلع ايليتش قبعته، وتلمس النقود. وقال لنفسه: «هل أضعها في طية صدري؟ ولكن سيتعين علي أن أفك حزامي. عندما سأهبط هذا المنحدر، سأنزل من العربة، وأصلح من هندامي. القبعة مخاطة بأحكام من الأعلى، ولا يمكن أن تخرج الفلوس من الأسفل، من تحت البطانة. وأنا لن أخلع القبعة حتى أصل إلى البيت». هبط بربان المنحدر، وصعد في التل في حركة تلقائية دافعة، ولم يعقه بوليكي عن ذلك، لأنه كان مثله متشوقاً إلى الوصول إلى البيت في أقرب وقت. وكان كل شيء على ما يرام، أو هذا ما تخيله، على أقل تقدير، ففرق في أحلامه عن امتنان السيدة له، وعن الرويلات الخمسة التي ستقدمها له، وعن فرحة أفراد عائلته. خلع قبعته، وتلمس الرسالة مرة أخرى، وحشر القبعة في رأسه أعظم من ذي قبل، وابتسم.

كان مخمل القبعة قد تهرأ، ولأن أكرولينا في عشية السفر خاطته بعناية في الموضع الممزق، فقد انفتق في طرف آخر، وبسبب حركة بوليكي، إذ خلع القبعة، وفكر في الظلام في أن بدس الرسالة المحتوية

على النقود في مكان أعمق تحت البطانة، فإن هذه الحركة نفسها قد فتقت القبة، وأخرجت طرف الظرف من تحت المخمل.

أخذت الدنيا تتنور، وراح بوليكي يهوم في سنة من نوم، بعد أن سهر الليل كله. دفع القبة أوطأ، وبهذه الحركة طلعت الرسالة أكثر. وفي تهويمته راح يضرب رأسه في حافة العربة. ولم يستيقظ إلا قرب القرية. وكان أول ما فعله أن أمسك بالقبة.

كانت تتربع على رأسه بقوة، فلم يخلعها، واثقاً من أن الظرف في داخلها. جذب عنان بربان، وعدل الدريس، واتخذ هيئة صاحب حال مرة أخرى، وأجال بصره فيما حوله بعظمة، وانطلق نحو البيت.

هذا هو المطبخ، وهذا «الجناح»، وهذه زوجة النجار تحمل الخيش، وهذه إدارة القرية، وهذا بيت السيدة، حيث سيظهر بوليكي بعد لحظة أنه إنسان نزيه مؤمن وأن «في الإمكان تلطيخ سمعة أي إنسان». ستقول السيدة «شكراً، يا بوليكي، هذه ثلاثة رويات لك». ولربما خمسة، بل وعشرة، وتأمّر أيضاً بأن يجلب الشاي له، ولربما شيء من الفودكا. لا بأس بها في البرد.

وبعشرة رويات يمكن أن يمرح في العيد، ويشتري حذاء، ولعله سيرد لنيكيثا أربعة رويات ونصفاً، فإن هذا الرجل صار يلح بالطلب... وقبل حوالي مائة خطوة من البيت، التف بوليكي بفروته مرة أخرى، وعدل حزامه والقلادة، وخلع القبة، وشفف شعره، ومد يده تحت البطانة في غير ما عجلة. وجاست يده في القبة أسرع فأسرع، واندست الأخرى فيها، وشحب وجهه، وازداد شحوباً، وخرجت يده من الطرف الآخر. قفز بوليكي على ركبتيه، وأوقف الحصان، وراح يجيل بصره في العربة،

والدريس، والمشتريات، وتلمس طية صدره، والسروال، ولا وجود للفلوس في أي مكان.

- يا قديسون! ما هذا؟ أي هول! - زعق جاذباً شعره.

ولكنه تذكر أن الناس قد يرونه على هذه الحال، فاستدار بالحصان، ودفع قبعته، وأطلق برايان الذاهل المتضايق عائداً به إلى الطريق.

ولعل برايان كان يقول في نفسه: «لا أحتمل السفر مع بوليكي. مرة واحدة في حياتي أطعمني وسقاني في أوانه، لمجرد أن يخدعني بطريقة غير لطيفة. وكم سعبت لأن أعود إلى البيت! وتعبت! وما كادت رائحة التبغ تفوح، حتى عاد بي القهقري».

آه، أيها الحصان الشائخ، يا ملعون! - صاح بوليكي من خلال الدمع، وقد نهض بقامته على العربة، جاذباً فم برايان بالعنانين، سائطاً إياه بسوطه.

- ١٠ -

طوال هذا اليوم كله لم يشاهد بوليكي أحد في بوكروفسكويه. سألت السيدة عدة مرات بعد الغداء، وهرعت أكسيوتكا إلى أكوлина، إلا أن أكوлина كانت تقول: إنه لم يصل بعد، وأن التاجر قد أخره، على ما يبدو، أو حصل شيء للحصان: وكانت تقول: «لعله صار يعرج؟ في المرة السابقة سار به مكسيم يوماً بطوله فقطع الطريق كله مشياً على الأقدام». فكانت أكسيوتكا تدير بندولها عائدة إلى البيت، بينما كانت أكوлина تقلب في ذهنها أسباب تأخر زوجها، وتحاول أن تهدئ نفسها، ولكن دون نجاح!

كانت تشعر بثقل في قلبها ، ولم يستقم في يديها أي عمل للعيد بعينها «شخصاً يشبه ابلتتش تماماً، وصل إلى الشارع الرئيسي، في الغد. لا سيما وقد عذبها تأكيد زوجة النجار لها بأنها رآته ثم استدار عائداً، كما أن الأطفال انتظروا أباهم بقلق ونفاذ صبر، ولكن لأسباب أخرى. فإن أنيوتكا وماشكا حرمتا من الفروة والجبنة اللتين كانت توفر لهما إمكانية الخروج إلى الشارع، بالتناوب على الأقل، فاضطرتا إلى البقاء قرب البيت فقط، وليس عليهما غير ثوبيهما وإلى ركض بالدوران بسرعة مشددة، فكانتا بذلك تضايقان كثيراً جميع قاطني الجناح الداخليين والخارجيين. ومرة انقذت ماشكا على رجلي زوجة النجار، وكانت هذه تحمل ماء، ورغم أنها أخذت تعول مقدماً، بعد اصطدامها بركبتيها، إلا أنها ضربت جزاء على اندفاعها، فزادت من عويلها. وحين لم تكن تصطدم بأحد، كانت تدفع إلى الباب، وتتسلق إلى الموقد بعد أن تصعد على برميل صغير. والسيدة وأكولينا وحدهما كانتا قلقتين على بوليكي بالذات، أما الأطفال فعلى ما يرتديه من ثياب. بينما ابتسم يغور ميخائيلوفيتش، حين سألته السيدة أثناء مقابلاته «هل وصل بوليكي، وأين يمكن أن يكون؟» وأجابها قائلاً: «لا أستطيع أن أعرف»، وكان راضياً على ما يظهر، على أن ما كان يتوقعه قد تحقق. وقال بمغزى: «كان يجب أن يصل قبيل وقت الغداء».

وطوال هذا اليوم لم يعرف أحد في بوكروفسكويه شيئاً عن بوليكي، وفيما بعد فقط عرف أن جيرانه قد شاهدوه يركض في الطريق حاسر الرأس ويسأل «ألم تجدوا رسالة؟». ورآه رجل آخر نائماً على حافة الطريق قرب الحصان المربوط مع العربة. وكان هذا الرجل يقول: «ثم

فكرت في أنه سكران، والحصان لم يأكل ولم يشرب حوالي يومين، لانخساف جنبه». ولم تنم أكوлина الليل كله، مرهقة سمعها طوال الوقت، وإلا أن بوليكي لم يصل حتى في الليل. ولو كانت وحدها، وكان عندها الطباخ والخادمة لكانت أكثر تعاسة، ولكن ما كادت تصيح الديكة للمرة الثالثة حتى نهضت زوجة النجار. وكان على أكوлина أن تنهض، وتنشغل في الموقد، وكان اليوم عيداً، وكان يجب إعداد الخبز، وتحضير الكفاس، وتحميص الفطائر، وحلب البقرة، وكوي الشباب، والقمصان، وغسل الأطفال، وحلب الماء، وإعاقة الجارة عن إشغال الموقد كله. وأخذت أكوлина تمارس هذه الأعمال، دون أن تكف عن إرهاف السمع.

وبزغ الفجر، ودقت أجراس الكنيسة للقداس، ونهض الأطفال، وما يزال بوليكي غائباً. وفي عشية البارحة نزل أول الثلج، وتبع الحقل والطريق والسطوح بالثلج، واليوم، وكأنها إكراماً للعيد، كان النهار جميلاً مشمساً، قارساً جافاً، حتى كان مجال السمع والبصر يمتد بعيداً. ولكن أكوлина وهي واقفة عند الموقد، مادة رأسها في فتحته، منشغلة بتحميم أرغفة الخبز، لم تسمع كيف تقدم بوليكي، ولم تعرف بوصول زوجها إلا من صياح الأطفال.

وكانت أنيوتكا، باعتبارها الكبرى، قد دهنت شعرها، ولبست ثيابها بنفسها. كانت ترتدي ثوباً وردياً من النسيج القطني الخشن ولكنه مدعوك، هو هدية من السيدة، كان متصلباً عليها كالجبيرة، وكالشوكة في عيون الجيران. وكان شعرها يبرق، فقد دهنته بنصف عقب شمعة، وكان حذاؤها ناعماً، رغم أنه غير جديد.

وكانت ماشكا ما تزال في البلوزة، وعلى وسخها، فكانت أنيوتكا لا تسمح بالاقتراب منها، مخافة أن تلوئها. كانت ماشكا في الفناء، حين وصل أبوها، يحمل كيساً. ورتنت ماشكا قائلة: «بابا وسل» واندفعت بسرعة إلى الباب مارة بأنيوتكا، ولوثتها. ولم تعد أنيوتكا تخاف من تلويث ثوبها، وضربت ماشكا، ولم تستطع أكوлина أن تترك ما بين يديها من عمل. فاكتفت بأن صاحت بالأطفال: «كفاكم! سأضربكم جميعاً!» ونظرت إلى الباب. كان ايليتش قد دخل الرواق، ومعه كيس، وصعد إلى ركنه في الحال. بدا لأكوлина أنه كان بمتقناً، وعلى وجهه أثر بكاء أو ابتسامة، ولكن لم يكن لها الوقت لتتأكد من ذلك.

سألت، وهي عند الموقد:

- كل شيء بخير، يا ايليتش؟

تمتم ايليتش بشيء لم تفهمه. فصاحت:

- ها؟ هل قابلت السيدة؟

جلس ايليتش على السرير في ركنه، مجبلاً بصره فيما حوله كالمتوحش، وابتسم ابتسامته الموهلة في البؤس. وظل وقتاً طويلاً دون أن يجيب.

وصدر صوت أكوлина:

- ها، ايليتش؟ لماذا تأخرت؟

- أكوлина، أعطيت النقرود إلى السيدة، فشكرتني كثيراً. قال

فجأة، وأجال بصره بقلق أشد، وراح يبتسم. وتوقفت عيناه القلقتان المفتوحتان كالحمومتين على شيئين بشكل خاص: على الحبل الذي ربط

المهد به، وعلى الطفل. تقدم من المهد، وأخذ ي فك عقدة الحبل في عجلة بأصابعه النحيلة. ثم توقفت عيناه على الطفل، إلا أن أكرولينا قد دخلت الركن في تلك اللحظة، والفتائر على اللوحة الخشبية. خبأ ايليتش الحبل في طية صدره بسرعة، وجلس على السرير.

قالت أكرولينا:

. ماذا بك، يا ايليتش، كأنك في غير أطوارك؟

أجاب:

. لم أنم.

وفجأة تراءى شيء وراء النافذة، وبعد لحظة اندفعت كالسهم اكسيوتكا الفتاة من العالي، وقالت:

. أمرت السيدة بأن يحضر بوليكي ايليتش في هذه اللحظة. أمرت أفدوتيا ميكولافنا في هذه اللحظة... في هذه اللحظة.

نظر بوليكي إلى أكرولينا، وإلى الفتاة.

. حالاً! وماذا بعد؟ قال ببساطة شديدة حتى إن أكرولينا اطمأنت.

فلعل السيدة تريد مكافأته. - قولي، سأتي حالاً.

ونفض، وخرج. بينما تناولت أكرولينا الطست، وسكبت فيه الماء من جرادل عند الباب، ومن قدر الماء الساخن على الموقد، وطوت كميتها، ونحست حرارة الماء.

. تعالي، يا ماشكا، سأغسلك.

أخذت الصبية الغاضبة الراتنة تزعق.

. تعالي، يا وسخة، سألبسك ثوباً نظيفاً. تعالي حالاً، علي أن

أغسل أختك أيضاً.

وفي غضون ذلك ذهب بوليكي لا في أثر الفتاة من العالي، إلى السيدة، بل إلى مكان آخر تماماً. كان ثمة في الرواق، عند الحائط، درج يؤدي إلى العلية. خرج بوليكي إلى الرواق، وتلفت فيما حوله، وإذا لم ير أحداً، أحنى قامته، وصعد هذا الدرج بخفة وسرعة أشبه بالركض.

ما معنى أن بوليكي لا يأتي. قالت السيدة نافذة الصبر، مخاطبة دونياشا التي كانت تمشط لها شعرها. أين بوليكي؟ ولماذا لا يأتي؟

هرعت أكسيوتكا إلى حوش الخدم مرة أخرى، ودخلت الرواق، وطالبت بأن يأتي بوليكي إلى السيدة.

ولكنه خرج منذ وقت طويل.. أجابت أكولينا، وكانت قد فرغت من غسل ماشكا، ووضعت، في تلك اللحظة، ابنها الرضيع في الطست، وراحت تسكب الماء على شعره الخفيف، رغم زعيقه. كان الطفل يصرخ، ويعكن وجهه، محاولاً أن يمسك شيئاً بيديه الصغيرتين العاجزتين. أسندت أكولينا بيد واحدة ظهره اللين المحفر كله بالنقر الصغيرة، وباليدين الأخرى صارت تغسله.

قالت، وهي تدبر بصرها في قلق:

لعله غفا في مكان.

كانت زوجة النجار، في هذه الأثناء، قد دخلت العلية مغلولة الشعر، مكشوفة الصدر، ممسكة بتنورتها لتجلب ثوبها الذي نشرته هناك ليجف. فإذا بصيحة فزع تصدر من العلية، وإذا بزوجة النجار تهبط الدرج، كالمنبولة، مغمضة العينين، تحبو على الأربع ناكسة على عقبيها، أقرب إلى التدرج منه إلى الركض. وصاحت:

• ايليتش!

أطلقت أكوлина الطفل من يديها.

صرخت زوجة النجار:

• شنىق نفسه!

خرجت أكوлина راكضة إلى الرواق، دون أن تلاحظ كيف تدحرج الطفل كالشلة الصغيرة، وانطرح على ظهره، ولوى رجليه، وغطس برأسه في الماء.

• متدل... على الرافدة. • كانت زوجة النجار تقول، ولكنها توقفت حين رأت أكوлина.

اندفعت أكوлина إلى الدرج، وصعدته قبل أن يتسنى للناس أن يسكوها، وانهبذت عليه، ولو لم يستطع إسنادها الذين تراكضوا من مختلف الأركان بأقصى قوتهم لسقطت منه، وتهشمت.

١١٠.

ولبضع دقائق ما كان من الممكن معرفة شيء من الهرج العام. تقاطر خلق كثير، وكان الجميع بصرخون ويتكلمون، والأطفال والعجائز يبيكون. وانطرحت أكوлина فاقدة الوعي. وأخيراً صعد إلى فوق رجال والنجار والوكيل الذي جاء راكضاً، بينما حكّت زوجة النجار للمرة العشرين كيف أنها «ذهبت لتجلب الطرحة، وفكرها خال من كل شيء»، وعابنت هكذا، فإذا بي أرى رجلاً واقفاً. وأنظر، فأرى قبعة مقلوبة على البطانة بالقرب منه، وأعابن، فأرى رجليه تتأرجحان. فسرت بي برودة شديدة. ليس من السهل علي أن أرى إنساناً شنىق نفسه. وأخطف رجلي

إلى الأسفل، وأنا لا أعني شيئاً. نجاتي الله بمعجزة. رحماني الرب حقاً. فظاعة! من عالي الدرج إلى منحدره الشديد! من الممكن أن أسقط وأفارق الحياة».

والذين صعدوا إلى فوق قصوا نفس الحكاية. ايليتش معلق على رافدة وليس عليه غير قميصه والسروال، مشنوق بنفس الجبل الذي فكاه من المهد. وقبعته مقلوبة البطانة مطروحة إلى جانبه، وجبته وفروته قد خلعتا، وطويت بعناية على مقربة منه.

كانت قدماء تصلان إلى الأرض، ولكن لا وجود لعلام الحياة عليه. أفاقت أكلينا على نفسها، واندفعت ثانية إلى الدرج، ولكنها منعت من ذلك. وفجأة رتنت الفتاة من الركن بصوتها النحيل:
- مامي، سيمكا شهق بالماء.

حررت أكلينا نفسها ثانية، وركضت إلى ركنها. كان الطفل منطرحاً في الطست جامداً ورجلاه لا تتحركان. اختطفته أكلينا، ولكن الطفل لم يتنفس، ولم يبد حركة، ألقت أكلينا على السرير، واستندت على يديها، وأرسلت قهقهة عالية رنانة رهيبة، حتى إن ماشكا ضحكت في البداية أيضاً، ثم ضغطت على أذنيها، وخرجت راكضة إلى الفناء باكية. انشال الناس على الركن معولين باكين. وأخرجوا الطفل، وأخذوا يفركونه، ولكن كل شيء كان بلا جدوى.

كانت أكلينا تتقلب على السرير ضاحكة ضحكاً أفرع كل من سمعه. والآن فقط كان من الممكن للمرء، بعد أن رأى هذا الخليط الحاشد من المتزوجين والشيوخ والأطفال المتجمهرين في الرواق، أن يدرك أي خلق كثير وأي أناس كانوا يعيشون في جناح الخدم.

كان الجميع يروحون ويجيئون، والجميع يتكلمون، والكثيرون ييكونون، ولا أحد يفعل شيئاً. وكانت زوجة النجار ما تزال تجد من لم يسمع حكايتها، فتعود تقص كيف أن عواطفها الرقيقة قد شلها المشهد غير المتوقع، وكيف أن الرب نجاها من السقوط من الدرج.

وكان الطباخ العجوز الضئيل في بلوزة نسائية يحكي كيف غرقت امرأة في البركة في عهد السيد الراحل. أرسل الوكيل رسولين إلى مأمور الشرطة وإلى القس، وأقام حراسة. وكانت الفتاة من العالي أكسيوتكا لا تفتأ تنظر بعينين جاحظتين من الرعب إلى العلية من خلال ثقب، ورغم أنها لم تكن ترى شيئاً، لم تستطع أن تنتزع بصرها وتعود إلى السيدة. وكانت أغافيا ميخائيلوفنا، الوصيصة السابقة للسيدة القديمة تبكي وتطلب شاياً لتهدئة أعصابها. وكانت الجدة آنا قد سجت الفقيد الصغير على المنضدة الصغيرة بيديها العمليتين المنفوختين المشبعتين بزيت المصباح.

وكانت النسوة واقفات بالقرب من أكولينا، ينظرن إليها صامتات. وكان الأطفال المنكمشون في الأركان ينظرون إلى أهمهم، ويأخذون بالزعيق، ثم لاذاوا بالصمت، ثم عادوا فنظروا، وازدادوا انكماشاً.

وكان الصبيان والرفييون يتجمعون عند المدخل، ينظرون بوجوههم المذعورة في الأبواب والنوافذ، دون أن يروا ولا يفهموا شيئاً، ويسأل بعضهم بعضاً ما الخبر. فكان أحدهم يقول إن النجار بقر قدم زوجته بالفأس، ويقول الآخر إن الغسالة ولدت توائم ثلاثة، ويقول الثالث إن قطة الطباخ هاجت، وراحت تعض الناس. إلا أن الحقيقة شاعت شيئاً فشيئاً، حتى بلغت السيدة أخيراً. والظاهر أنهم لم يستطيعوا حتى

تهيئتها للخبر. فإن يغور اللفظ أبلغها إياه بدون تمهيد، وبذلك أثار أعصابها، حتى إنها، بعد ذلك، ظلت وقتاً طويلاً دون أن تتمالك نفسها. وكان جمع الناس قد أخذ يهدأ، وأشعلت زوجة النجار السماور، وأعدت الشاي، أما الغرباء فرأوا من غير اللائق البقاء أكثر، وهم لم يدعوا وانصرفوا. وأخذ الصبيان يتعاركون عند المدخل. عرف الجميع حقيقة الأمر، أخيراً، فكانوا يرسمون علامة الصليب، وينصرفون. وفجأة ترددت أصوات: «السيدة، السيدة!» فعادوا، فتجمهروا، وانكمشوا ليفسحوا لها الطريق، ولكن الجميع كانوا يريدون أيضاً أن يروا ما ستفعل.

دخلت السيدة الرواق شاحبة وعلى وجهها أثر بكاء، ودلفت إلى ركن أكوлина. انحشرت عشرات الرؤوس تنظر عند الباب، وانحصرت امرأة جبلية بشدة، حتى صاحت مستغيثة، ولكنها سرعان ما استغلت ما هي عليه وانفكاك الناس عنها لتكسب لنفسها مكاناً إلى الأمام. وكيف تفوت رؤية السيدة في ركن أكوлина! إن ذلك، بالنسبة للخدم، كالضوء من الألعاب النارية في نهاية العرض، سواء بسواء. يعني مثلما يطيب لك أن يشعل الضوء من الألعاب النارية، يطيب لك أيضاً أن ترى السيدة في حريرها ومخمراتها تدخل على أكوлина في ركنها. أقبلت السيدة على أكوлина، وأمسكت يدها، إلا أن أكوлина انتزعتهما. وهز الخدم العجائز رؤوسهم استياءً.

وقالت السيدة:

ـ أكوлина، عندك أطفال. فارحمي نفسك.

أخذت أكوлина تضحك، ونهضت، وغمغمت:

. أطفالي كلهم قطع فضية، كلهم فضية... فأنا لا أحب النقود الورقية. نهت ايليتش أن لا يأخذ الورقية. وها هم قد لطحوه بالقار. القار والصابون، يا مولاتي، يشفي كل بقع الجرب. وعادت تضحك بقوة أشد.

التفتت السيدة، وأوعزت بأن يحضر ممرض مع الخردل. «هاتوا ماءً بارداً»، وراحت تبحث عن الماء بنفسها، ولكن بصرها وقع على الطفل الميت والمجدة أنا واقفة أمامه، فأشاحت وجهها، إلا أن الجميع رأوها تحجب عينيها بمنديل، وتأخذ بالبكاء. غطت المجدة أنا الطفل بقطعة من الخيش (من المؤسف أنه لم تر السيدة ذلك، ولو رأتها لقيمته. فقد فعلت العجوز كل ذلك من أجلها).

وعدلت يد الطفل الصغيرة بيدها الرخوة الماهرة، وهزت رأسها، ومطت شفتيها، وقلصت عينيها بتأثر، وتحسرت، وكل ذلك بشكل جعل في مقدور كل إنسان أن يرى ما لها من قلب كبير. إلا أن السيدة لم تر ذلك وما كان في وسعها أن ترى شيئاً. فقد انفجرت مبهشة، وانتابتها نوبة هستيرية. فأخرجوها إلى الرواق مستندين إياها من تحت إبطيها، وأوصلوها إلى بيتها بهذه الطريقة. وفكر كثيرون: «ما الفائدة منها»، وأخذوا ينصرفون. وظلت أكوينا تضحك وتهنر. فأخرجوها إلى حجرة أخرى، وحجموها، ووضعوا كمادات الخردل، والثلج على رأسها، إلا أنها ظلت لا تعي شيئاً، وتبكي، وتضحك، وتثرثر، وتأتي أشياء لم يستطع الناس الطيبون الذين كانوا يداوونها، أن يضبطوا أنفسهم معها فضحكوا أيضاً.

كان العيد في فناء بوكروفسكويه خالياً من المرح. لم يخرج الناس إلى الشنزه، رغم جمال الطقس، ولم تجتمع الفتيات للغناء، ولم يعزف شبان المعامل القادمون من المدينة لا على الأكورديون، ولا على البيلالايك، ولم يرحوا مع الفتيات. لزم الجميع الأركان، وإذا تكلموا ففي خفوت، وكأن أحداً سبى الطوية كان من الممكن أن يسمع ما يقولونه. ومر النهار خفيف الأوزار. ولكن ما إن اغسوسق المساء، حتى أخذت الكلاب تنبح، وزاد الأمر سوءاً هبوب الريح، وعويلها في المداخل، وقلق جميع أهالي فناء الخدم فزع غامض، فمن كان له عقب شمعة أشعلها أمام الأيقونة، ومن كان وحيداً في ركنه ذهب إلى جيرانه يبرحهم أن يقضي الليلة في مكان أكثر ناساً، ومن كان عليه أن يخرج إلى زريبة الماشية لم يخرج، ولم يشفق على بقاء الماشية بلا علف في تلك الليلة.

واستنفد في تلك الليلة كل الماء المقدس الذي كان يحفظ في قارورة. بل إن الكثيرين سمعوا شخصاً ظل يسير في العلية بخطى ثقيلة طوال الوقت، ورأى الحداد عفريناً يطير على العلية، وفرغ ركن بوليكي من أهله، فالأطفال والمجنونة نقلوا إلى أماكن أخرى، ولم يبق هناك غير الطفل الميت مسجى، وامرأتين عجوزين وجوالة تتلو المزامير، باجتهادها الخاص، لا على روح الميت، بل بمناسبة هذه الفاجعة كلها. وهذا ما أرادت السيدة. وقد سمعت العجوزان والجوالة بأنفسهن ما أن يتلى مقطع من المزامير حتى تهتز الرافدة في الأعلى، ويثن شخص. فيقرآن «قام الرب» يحمد ثانية، وكانت زوجة النجار قد دعت أمها بالمعمودية، وفي تلك الليلة، ودون أن تناما، شربتا كل الشاي الذي وفرته لكل أسبوع. وقد

سمعتا أيضاً قرقعة الروافد في الأعلى، وكأن أكياساً كانت تسقط عليها من عل. وكان الموجيك الذين لزموا الحراسة قد مدوا الخدم ببعض الشجاعة، وإلا لما تهاون هؤلاء الخدم هلعاً في تلك الليلة. وكان الموجيك قد استلقوا على دريس في الرواق، ثم أكدوا، فيما بعد، بأنهم سمعوا أيضاً نفس العجائب في العلية، رغم أنهم قضوا الليلة نفسها يتحادثون فيما بينهم عن التجنيد بهدوء شامل، ويعلكون الخبز، ويحكون جلودهم، والأهم من ذلك أنهم ملأوا الرواق برائحهم الموجيكية المتميزة، حتى إن زوجة النجار، حين مرّت بهم، بصقت، وشتمتهم بالموجيك. ومهما يكن الذي حدث فإن المشنوق ظل متديلاً في العلية، وكأن الروح الشريرة نفسها خيمت في تلك الليلة بأجنحتها الضخمة على الجناح، مظهرة سلطانها، مقتربة من هؤلاء الناس أكثر من أي وقت آخر. وعلى أقل تقدير كان هذا شعور الجميع. ولا أعرف إن كان هذا إنصافاً.

بل يخامرني شعور بأنه ليس إنصافاً البتة. وأظن لو أن شخصاً جسوراً حمل، في تلك الليلة الرهيبة، شمعة، أو فانوساً، واحتذى وحتى لم يحتم بعلامة الصليب، ودخل العلية، دافعاً أمامه ببطء هلع الليلة بضوء شمعته، مضياً الروافد، والرمل، وأنبوب المدخنة المغطى بنسيج العنكبوت، والطرحات التي أغفلتها زوجة النجار، ووصل إلى ابلتتش، وإذا ما رفع فانوسه إلى مستوى وجهه، دون أن يسحقه شعور الفرع، لرأى الجسد النحيف المألوف له، بقدميه الواقفتين على الأرض (فالحبل قد نزل) مائلاً إلى جنب بلا حياة، وقميصه محلول الباقة لا يظهر الصليب من تحته، والرأس المتدلي على الصدر، والوجه البادي الطيبة بعينيه المغضتين غير المبصرتين، والابتسامة الدمثة المعبرة عن ذنب،

والسكينة الصارمة، والسكون المخيم على كل شيء، والحق أن زوجة النجار، وهي منكشة في زاوية سريرها محلولة الشعر، مذعورة العينين، تقص كيف أنها تسمع أكياساً تسقط هي أفطع بكثير وأرهب من ابليتش، رغم أن صليبه مخلوع وموضوع على رافدة.

في العالي، أي في بيت السيدة، كان يسيطر نفس الفرع المسيطر على جناح الخدم. كانت حجرة السيدة تفوح برائحة كولونيا ودواء. سخنت دونياشا شمعاً أصفر وقطرت مذابه. وأنا لا أعرف لأي غرض بالذات هذا الشمع المذاب، ولكنني أعرف أنه يجري دائماً، حين تمرض السيدة. وقد انهارت الآن أعصابها إلى حد المرض. وقد جاءت إلى دونياشا عمتها لتبيت عندها شداً للعزيمة. وقد جلسن أربعة في حجرة الوصيفات مع فتاة يتحدثن بخفوت. قالت دونياشا:

ـ من سيذهب لجلب الزيت؟

أجابت الفتاة الثانية بحزم:

ـ لن أفعل ذلك، مهما يكن من شيء، يا أفدوتيا ميكولافنا.

ـ اذهبي مع أكسيوتكا.

ـ أذهب وحدي، لا أخاف من شيء. قالت أكسيوتكا وشعرت بخوف

فجأة.

ـ اذهبي، يا عاقلة، واطلبي من المدة أنا أن تصب لك زيتاً في

قدح، واجلبه، ولا تطرطشه. قالت لها دونياشا.

رفعت أكسيوتكا طرف ثوبها بيد، ورغم أنه لم يكن في وسعها،

بسبب ذلك، أن تأرجح كلتا ذراعيها، فقد أرجحت واحدة بقوة مزدوجة

في عرض خط سيرها، وانطلقت لا تلوي على شيء. كانت تشعر بالفرح،

وتحس بأنها ستسقط من الهلع إذا ما رأت أو سمعت بأي شيء، حتى ولو كانت أمها حية. انطلقت الدرب المعروف مقلصة عينيها.

- ١٣ -

«السيدة نائمة أم لا؟». سأل صوت رجالي فجأة قرب أكسيوتكا. فتحت الفتاة عينيها المتقلصتين من قبل، ورأت شبحاً، بدا لها أعلى من جناح الخدم؛ فأرسلت زعقة، وانطلقت عائدة، حتى إن تنورتها لم تستطع اللحاق بها في سرعتها. وبقفزة واحدة كانت على المدخل، وبقفزة أخرى كانت في حجرة الوصيفات، وبولولة وحشية ارتقت على الفراش. صعد الفرع دونياشا وعمتها والفتاة الأخرى، ولكن ما كدن يفقن على أنفسهن حتى سمعن خطوات ثقيلة بطيئة مترددة في الرواق، وعند الباب. هزعت دونياشا إلى السيدة، بعد أن أوقعت مذاب الشمع، واختبأت الوصيصة الثانية وراء تنورات كانت معلقة على الحائط، وأرادت العمة الأكثر تصميمًا أن تمسك الباب، إلا أن الباب انفتح، ودخل رجل الحجر. كان هذا الرجل هو دوتلوف في خفيه الضخمين كالفارين. ودون أن يعبر التفاتاً إلى فزع الفتيات، بحث بعينه عن الأيقونة، ولما لم يجد الأيقونة الصغيرة المعلقة في الزاوية اليسرى، رسم علامة الصليب أمام دولا ب صغير للأقداح، ووضع قبعته على نافذة، ودس يده عميقاً في فروته، وكأنه يريد أن يحك إبطه، وأخرج رسالة مختومة بخمسة أختام شمعية عليها صورة مرساة.

أمسكت عمة دونياشا صدرها... وحملت نفسها حملاً على أن

تنطق:

- أفزعني يا ناووميتش لا أستطيع أن... أنطق بكلمة. تصورت أن النهاية قد حلت.

- هل يجوز هذا؟ - تكلمت الفتاة الثانية، وهي تطلع من وراء الثنورات.

وقالت دونياشا، خارجة من الباب:
- أفزعت السيدة أيضاً. كيف تندس إلى مدخل الفتيات بدون أن تستأذن؟ موجيك اعتيادي!

كرر دوتلوف، دون أن يعتذر، أنه يريد أن يقابل السيدة.

قالت دونياشا:

- عندها وعكة.

وفي تلك اللحظة انفجرت أكسيوتكا ضاحكة ضحكاً عالياً بشكل غير لائق، حتى إنها اضطرت ثانية أن تخفي رأسها في وسائد الفراش، حيث قضت ساعة كاملة لا تستطيع أن تخرجه من هناك دون أن تنفجر ضاحكة، رغم تهديدات دونياشا وعمتها، وكان شيئاً انبجس في صدرها الوردي وخديها الأحمرين. فقد استولت عليها نوبة من الضحك لأن الجميع انفزع، وها هي قد أخفت رأسها مرة أخرى، وشحطت بحذائها، كالمرعوضة، واهتزت بكل جسدها.

توقف دوتلوف، وتفرس فيها، وكأنما يريد أن يتيقن ما الذي يحدث لها، ولكنه استدار، دون أن يفهم جلي الأمر، وتابع كلامه قائلاً:

- يعني، هناك أمر مهم جداً. قلني فقط أن رجلاً من الموجيك وجد

رسالة فيها فلوس.

- أبة فلوس؟

وقبل أن تبلغ دونياشا، قرأت العنوان، واستفسرت من دوتلوف أين وجد هذه النقود التي كان على ايليتش أن يجلبها من المدينة. وبعد أن عرفت جميع التفاصيل، ودفعت إلى الرواق الفتاة الهاربة التي لم تكف عن ضحكها، ذهبت إلى السيدة، ولكن السيدة لم تستقبل دوتلوف، على أية حال، مما أثار دهشته، ولم تقل شيئاً مفهوماً لدونياشا.

. لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف . قالت السيدة . أي موجيك، وأي نقود . لا أستطيع ولا أريد أن أرى أحداً . وليتركني وشأني.

. ماذا سأفعل، إذن؟ . قال دوتلوف، وهو يقلب الظرف . الفلوس غير قليلة. ماذا كتبت عليها؟ . سأل دونياشا، فقرأت له العنوان من جديد.

وبدا دوتلوف متشككاً في شيء ما، ففكر في احتمال أن تكون النقود غير عائدة للسيدة، وأن العنوان قد قرئ بشكل مغلوط. إلا أن دونياشا أكدت له ذلك مرة أخرى. فزفر، ووضع الظرف في طية صدره، واستعد للخروج. وقال:

. أسلمه للأمور الشرطة، على ما يظهر.

. انتظر، سأحاول مرة أخرى أن أبلغها . أوقفته دونياشا بعد أن راقبت باهتمام اختفاء الظرف في طية صدر الموجيك. . أعطني الرسالة.

أخرج دوتلوف الرسالة مرة أخرى، إلا أنه لم يسلمها رأساً إلى يد دونياشا الممتدة.

. قل لي لها أن سيميون دوتلوف وجدها في الطريق.

. هاتها هنا.

. كنت أنتورها رسالة فقط، ولكن جندياً قرأ أن فيها فلوساً.

- قلت هاتها.

- ولم أجسر على أن أذهب للبيت من أجل... قال دوتلوف دون أن يتخلى عن الظرف الثمين - قللي لها بهذا الشكل.

تسلمت دونياشا الظرف، وذهبت إلى السيدة مرة أخرى.

- آه، يا إلهي، دونياشا! - قالت السيدة بصوت مويخ - لا تحدثيني عن هذه الفلوس. ما أن أتذكر ذلك الطفل...

فعادت دونياشا تقول:

- ولكن الموجيك، يا سيدتي، لا يعرف لمن تأمرين بإعطاء الفلوس. فضت السيدة أختام الظرف، وارتعشت حالما رأت الفلوس، وسهمت، وقالت:

- الفلوس مخيفة. كم تصنع من شرور!

سألت دونياشا:

- هذا دوتلوف، يا سيدتي. هل تأمرين بأن أدخله عليك، أم تحبين أن تخرجي إليه؟ هل الفلوس كاملة؟

- لا أريد هذه الفلوس. إنها فلوس مريضة. ما أفظع ما فعلت! قللي له: ليأخذها إذا كان يريد - قالت السيدة فجأة، وهي تتلمس يد دونياشا - نعم، نعم - كررت لدونياشا الذاهلة - ليأخذها كلياً، وليفعل ما يريد.

- ألف وخمسمائة روبل - قالت دونياشا مذكرة، مبتسمة ابتسامة خفيفة، وكأنها تتكلم مع طفلة. فكررت السيدة في جزع:

- ليأخذها كلها. لماذا لا تفهميني، إن هذه النقود منحوسة فلا تذكرها لي أبداً، ليأخذها الموجيك الذي وجدها. اذهبي، اذهبي حالا. خرجت دونياشا إلى حجرة الوصيفات.

سأل دوتلوف:

ـ كاملة؟

ـ عدها بنفسك فيما بعد ـ قالت دونياشا، وهي تعيد إليه الطرف ـ

أمرتني بأن أردّها لك.

وضع دوتلوف قبعته تحت إبطه، وانحنى، وراح يعدها.

ـ ألا يوجد معداد؟

فهم دوتلوف أن السيدة لبلايتها لا تحسن العد فأمرته أن يعدها.

ـ عدها في البيت! إنها لك! نقودك! ـ قالت دونياشا ـ السيدة

تقول: لا أريد أن أراها، فريدها لمن جاء بها.

ثبت دوتلوف بصره في دونياشا، دون أن يعدل انحناؤه جسمه.

وضربت عمة دونياشا كفاً بكف.

ـ يا للقدسيات! ها هو الرب قد وهبك السعادة! يا للقدسيات!

ولم تصدق الوصيفة الثانية:

ـ هل تمزحين، يا أفدوتيا نيقولايفنا؟

ـ أي مزاح! أمرتني بردها إلى الموجيهك... هيا، خذها وانصرف ـ

قالت دونياشا، دون أن تخفي انزعاجها ـ بلابا أناس سعادة لآخرين.

قالت العمة:

ـ ألف وخمسمائة روبل ليست هينة.

فقالت دونياشا مؤكدة:

ـ بل أكثر ـ ثم أضافت ساخرة ـ أوقد شمعة بعشر كويكات

ليكولا. أما تزال لا تعي؟ ليتها كانت من نصيب المسكين! أما هذا فله

فلوس كثيرة.

فهم دوتلوف أخيراً أن الأمر جد، فأخذ يستعد للانصراف، ويضع في الظرف الفلوس التي بسطها ليعدها، إلا أن يديه ارتجفتا، وكان طوال الوقت يتطلع إلى الفتيات ليتيقن من أن الأمر ليس مزحة.

- ما يزال ذاهلاً من سروره - قالت دونياشا مظهرة أنها على كل حال، تزدري بدوتلوف الموجيه والنقود معاً. - دعني أضعها لك. وأرادت أن تأخذ الفلوس. إلا أن دوتلوف لم يعطها، ووعكها، ودسها في مكان أعمق في طية صدره، وتناول قبعته.

- فرحان؟

- ولا أدري ماذا أقول! بالضبط...

ولم يتم جملة، بل هز ذراعه باستهانة، وأهتف بابتسامة ساخرة مقتضبة، وكاد ينفجر باكياً، وخرج.

رن الجرس الصغير في غرفة السيدة.

- هل رددتها؟

- رددتها.

- وكان فرحان جداً؟

- صار كالمجنون تماماً.

- آه، استدعيه. أريد أن أسأله كيف وجدها. ادعيه إلى هنا، أنا لا

أقدر على الخروج.

هرعت دونياشا، ولحقت بالموجيه في الرواق. كان قد أخرج محفظة نقوده، دون أن يرتدي قبعته، وانكب وراح يفتحها، قابضاً على النقود بأسنانه. فلعله تصور أن النقود لن تكون له ما لم تكن في محفظة نقوده. وعندما نادته دونياشا ارتعب.

ـ ماذا عندك يا أفدوتيا... أفدوتيا ميخائيلوفنا؟ هل تريد استرجاعها، على الأقل، لو شفعت لي، إذن، لجلبت لك عسلاً، والله.
ـ لا أعرف أبخل منك!

وفتح الباب مرة أخرى، وقادوا الموجيك للمثول أمام السيدة.
وقد ركبته الغم، وكان يقول لنفسه: «آه، ستطلب الفلوس مني!»
ولسبب ما كان يرفع قدمه عالياً، حين كان يمر بالغرف، وكأنه يطأ عشباً عالياً، محاولاً ألا يضرب الأرض بخفيه. وكان لا يفهم ولا يرى ما كان حوله. مر بمرآة، ورأى زهوراً، ورجلاً من الموجيك برفع قدميه المنتعلتين بخفين، وصورة رجل يضع على عينيه عدسة، ويرميلأ أخضر، وشيئاً أبيض... وما هي إلا لحظة وتكلم هذا الشيء الأبيض، فإذا هو السيدة.
ولم يكن دوتلوف يفهم شيئاً، واكتفى بالحلقة. كان لا يعرف أين هو، وكان كل شيء يبدو له وكأنه ملفوف في ضباب.

ـ أهذا أنت، يا دوتلوف؟

ـ نعم، يا سيدتي. إنها كما هي، لم أمسسها ـ قال دوتلوف.
ـ لست مسروراً، والله العظيم! كنت أستحث حصاني بشدة...
ـ لا بأس، لتكن من نصيبك! ـ قالت بابتسامة مزدرية طيبة. ـ
خذها، خذها لك.

اكتفى بأن يخلق عينيه.

ـ أنا مسرورة لأنها صارت من نصيبك. عسى أن يجعلها الله للخير والمنفعة! هل أنت مسرور؟

ـ وكيف لا! مسرور جداً، يا مولاتي! سأدعو الله لك طوال حياتي.
وكم أنا مسرور لوجودك حية بيننا. كنت أخشى أن أكون مذبذباً في حقك.

كيف وجدتها؟

حسناً، يعني لأجل السيدة كنا دائماً نسعى بإخلاص، وليس...

قالت دونياشا:

صار يخلط كلياً، يا سيدتي.

حملت ابن أخي المجند في العربة، وعدت، وفي الطريق وجدتها. لا

بد أن بوليكي أوقعها منه دون أن يدري.

حسناً، انصرف، انصرف، يا حلو الشمائل. أنا مسرورة.

فقال الموجيهك:

وأنا كثيراً، يا سيدتي.

وبعد ذلك تذكر أنه لم يشكر السيدة، ولم يتصرف كما ينبغي.

ابتسمت السيدة ودونياشا، وعاد هو يسير رافعاً قدميه وكأنه يسير على

عشب، لا يكاد يمنع نفسه من أن يعدو راكضاً، وطوال الوقت كان يتصور

أنه سيتوقف بين لحظة وأخرى، وتؤخذ منه الفلوس.

١٤.

ولما خرج دوتلوف إلى الهواء الطلق، انحرف عن الطريق نحو

شجيرات الزيزفون، بل وحل حزامه، لكي يخرج محفظة نقوده على نحو

أحذق، وأخذ يضع أوراق النقود واحدة فوق الأخرى. كانت شفته

تتحركان، تمتطيان وتستطيلان، رغم أنه لم يكن يصدر أي صوت. ولما

فرغ من وضع أوراق النقد، وتحزم من جديد، رسم علامة الصليب، وسار

كالسكران، دارجاً على الطريق الصغيرة تلقائياً، لانغماره في الأفكار

التي كانت تنبجس في رأسه. وفجأة رأى أمامه شيخ موجيك قادم من

الجهة المقابلة. ناداه بصوت عال. كان ذلك يفيمكا الذي كان يلزم الحراسة عند الجناح ومعه هراوة.

- آه، يا عم سيميون - قال يفيمكا، مقترباً أكثر (كان يفيمكا مستوحشاً لوحده) - هل أوصلتم المجندين، يا عم؟
- أوصلناهم. وأنت ماذا تفعل؟
- جعلوني حارساً هنا على ايليتش المشنوق.
- وأين هو؟

- هناك، في العلية، يقولون إنه معلق. - أجاب يفيمكا، مشيراً بالهراوة في الظلام إلى سقف.
نظر دوتلوف باتجاه اليد، ورغم أنه لم ير شيئاً، إلا أنه عكّن وجهه، وقلص عينيه، وهز رأسه.
قال يفيمكا:

- وصل مأمور الشرطة، كما قال الخوذي. وسينزلون الجثة حالاً. في الليل رهبة، يا عم. لن أصعد إلى فوق في الليل، إذا أمروني بذلك، لن أفعل مهما يكن من شيء، حتى ولو ضربني يغور ميخائيلوفيتش حتى الموت.

- خطيئة، خطيئة! - كرر دوتلوف لياقة، على ما يبدو، ودون أن يفكر مطلقاً فيما كان يقول، وهم بالذهاب في حال سبيله. إلا أن صوت يغور ميخائيلوفيتش أوقفه.

صاح يغور ميخائيلوفيتش من فوق المدخل:

- هاي، يا حارس، تعال هنا.

رد يفيمكا على النداء.

• من ذلك الموجيك الذي كان واقفاً معك؟

• دوتلوف.

• وأنت، يا سيمون، تعال أيضاً.

وعندما اقترب دوتلوف تبين، في ضوء المصباح الذي كان الحوذي يحمله، شخص يغور ميخائيلوفيتش، وموظفاً غير معروف له يرتدي قبعة رسمية عليها عقدة شريط، ومعطفاً. وكان ذلك مأمور البوليس.

قال يغور ميخائيلوفيتش حين رآه:

• وهذا العجوز سيأتي معنا أيضاً.

امتعض العجوز، ولكن لم يكن هناك منجى.

• وأنت، يا فتى، يا يفيمكا، اصعد إلى العلية، حيث يوجد

المشوق، وعدل الدرج، ليصعد جناب المحترم.

ركض يفيمكا نحو جناح الخدم ضارباً الأرض بحذائيه الليفيين وكأنما يضربها بقرمتين، وهو الذي لم يرد أن يذهب إلى هناك، مهما يكن من شيء.

قدح مأمور الشرطة الزناد، وأشعل غليونته. وكان يعيش على بعد فرسخين، وكان قد ويخ لتوه تويخاً قاسياً من قبل مدير شرطة المقاطعة على سكره، ولهذا كان الآن في حالة من الاجتهاد.

وعندما وصل في الساعة العاشرة مساءً، أراد أن يشاهد المشوق في الحال. سأل يغور ميخائيلوفيتش دوتلوف عن السبب في وجوده هنا. حكى دوتلوف خلال الطريق للوكيل عن الفلوس التي وجدها، وما أمرت السيدة أن يفعل بها. وقال دوتلوف إنه جاء يطلب السماح من يغور ميخائيلوفيتش. وارتعب دوتلوف حين طلب الوكيل الظرف منه، وراح

يتفحصه. كما أخذ مأمور الشرطة الظرف في يديه، وطلب تفاصيل، في اقتضاب وجفاف.

وفكر دوتلوف مع نفسه: «ياه، راحت الفلوس». وأخذ يقدم الاعتذارات. إلا أن مأمور الشرطة رد الفلوس إليه وقال:
. الجلف محظوظ!

. جاءت في الوقت المناسب . قال يغور ميخائيلوفيتش . منذ قليل
أوصل ابن أخيه للجيش. والآن سيدفع لبديل له.
. اها! . قال مأمور الشرطة، وتقدم.
قال يغور ميخائيلوفيتش:

. هل ستدفع لبديل عن ايليوشكا؟
. كيف أذفع عنه؟ وهل الفلوس تكفي؟ وقد يكون الوقت قد فات.
. كما ترى . قال الوكيل، وسار الاثنان وراء مأمور الشرطة.
وصلوا إلى جناح الخدم، حيث كان الحراس المنتنون في انتظارهم في
الرواق، ومعهم مصباح. سار دوتلوف وراءهم. كان للحراس هيئة
المذنبين، لا لشيء إلا للرائحة التي يصدرونها، ذلك لأنهم لم يأتوا شيئاً
قبيحاً. كان الجميع صامتين. سأل مأمور الشرطة:
. أين؟

. هنا . همس يغور ميخائيلوفيتش، وأضاف . يفيمكا، تقدم، يا
فتى، إلى الأمام، ومعك المصباح!

وكان يفيمكا قد عدل الدرج في الأعلى، وبدا وكأنه فقد كل فزع.
انسل إلى الأمام بوجه مرح صاعداً درجتين أو ثلاثاً دفعة واحدة، سوى
أنه كان يتلفت، منيراً الطريق بالمصباح لمأمور الشرطة. وسار يغور

ميخائيلوفيتش وراء مأمور الشرطة، وحين اختفوا في الأعلى، وضع
دوتلوف قدماً واحدة على درجة، وتنهّد، وتوقف. ومرت دقيقةتان، أو
نحوهما، وتلاشى وقع خطواتهم في العلية. والظاهر أنهم وصلوا إلى الجثة.
صاح يفيمكا من الثقب:

« يا عم! ينادونك! »

انسدل دوتلوف صاعداً. وفي ضوء المصباح كان لا يلوح من مأمور
الشرطة ويغور ميخائيلوفيتش غير أعلاهما وراء الرافدة، وخلفهما وقف
شخص يدير ظهره. كان ذلك بوليكي. عبر دوتلوف الرافدة، وتوقف
راسماً علامة الصليب.

قال مأمور الشرطة:

« أديروه، يا شباب. »

لم يتحرك أحد.

« يفيمكا، أنت، يا فتى. »

عبر الفتى الرافدة، وأدار ايليتش، ووقف بالقرب منه، منتقلاً نظرة
طافحة بالمرح، بين ايليتش والرئاسة، مثل عارض الأمهق* أو يوليا
باسترانا ينظر تارة إلى الجمهور، وتارة إلى معروضه العجيب، مستعداً
لتنفيذ كل رغبات المشاهدين.

« أدره مرة أخرى. »

استدار ايليتش مرة أخرى، وهز ذراعيه، وجر قدميه على الرمل.

* الأمهق أو « ألبينو » هو شخص أو حيوان فاقد لون البشرة والعينين والشعر . ويوليا باسترانا
« امرأة بلحية » . وقد عرضت هاتان الأعجوبتان على الجمهور في روسيا في العقد الخامس
من القرن التاسع عشر باعتبارها من « أعاجيب الطبيعة » . الناشر .

خذه، أنزله.

هل تأمرون بقطع الحبل، يا فاسيلي بوريسوفيتش؟ قال يغور ميخائيلوفيتش. - هاتوا فأساً، يا إخوان.

واقتضى تكرار الأمر مرتين قبل أن يلبيه الحراس ودوتلوف.

أما الفتى فقد تصرف مع ايليتش، كما يتصرف مع جزيرة خروف. وأخيراً قطعوا الحبل. وأنزلوا الجثة، وسجوها. وقال مأمور الشرطة أن الطبيب الشرعي سيأتي غداً، وصرف الناس.

١٥.

سار دوتلوف إلى بيته متمتماً بشفتيه. كان يحس بالرهبة في بادئ الأمر، ولكن هذا الشعور كان يزايله كلما كان يزداد اقتراباً من القرية، ويسرى في قلبه شعور الفرح أكثر فأكثر.

في القرية كانت تتردد أغان وأصوات مخمورة. لم يتعاط دوتلوف الحمرة قط، فسار مباشرة إلى بيته. وكان الوقت متأخراً، حين دخل كوخه الخشبي. كانت امرأته العجوز نائمة، وابنه الكبير وأحفاده ينامون على سطح الموقد، والابن الثاني ينام في الشونة، وزوجة ايليشوشكا وحدها كانت يقضى جالسة على التخت في ثوبها القدر اليومي، حاسرة الرأس، تعمل. لم تخرج لتفتح الباب لعمها، بل زادت من عويلها وكلامها حالما دخل الكوخ. وكانت، حسب رأي زوجته العجوز، تنوح وتندب بسلاسة واتقان شديدين، رغم أنها لحدائثة سنها، لم تكنسب مراناً بعد.

نهضت العجوز، وهبأت العشاء لزوجها. أقصى دوتلوف زوجة ايليشوشكا عن الطاولة قائلاً: «كفى، كفى!» ونهضت اكسينيا، واستلقت

على التخت، دون أن تكف عن العويل. أعدت العجوز المائدة صامته، ثم رفعتها. ولم يتفوه العجوز أيضاً بأية كلمة.

صلى للرب، وتحشأ، وغسل يديه، واختطف المعداد المعلق في مسمار، وذهب إلى الشونة. وهناك تهامس مع العجوز في بادئ الأمر، ثم خرجت العجوز، فأخذ يعد بخرز المعداد، وأخيراً أطبق غطاء الصندوق، وانسل إلى السرداب. وقضى وقتاً طويلاً منهمكاً في الشونة والسرداب. وحين دخل الكوخ، كان الظلام سائداً، إذ لم تكن مسرجة الخشب مشتعلة. كانت العجوز الهادئة في النهار عادة لا يسمع لها صوت، قد انطرحت على الألواح الخشبية المعلقة عند الموقد، وشخيرها يملاً أرجاء الكوخ. كما أن زوجة ايليوشكا الكثيرة اللغط نامت أيضاً، وانتظمت أنفاسها فلا تسمع. نامت على التخت، بما كان عليها من ثياب، ودون أن تتوسد شيئاً. أخذ دوتلوف يصلي، ثم نظر إلى زوجة ايليوشكا، وهز رأسه، وأخذ مسرجة الخشب، وتحشأ مرة أخرى، وانسل إلى سطح الموقد إلى جانب حفيده الصغير. وفي الظلام ألقى خفيه من فوق، واستلقى على ظهره، ناظراً إلى العارضة فوق الموقد، لا تكاد ترى فوق رأسه، مستمعاً إلى الصراصير تدب على الجدار، وإلى الزفير والشهيق، والشخير، وحك القدم بالقدم، وأصوات الماشية في الفناء. وظل مؤرقاً لا يراوده النوم وقتاً طويلاً. طلع الهلال، وتنور الكوخ أكثر، وصار يرى في الركن اكسينيا، وشيئاً ما يستطيع تمييزه، لعله قفطان نساء ابنه، أو برميل صغير وضعته النسوة، أو شخص ما واقف. ولا يدري هل غفا أم لا، ولكن ما كاد يتمعن من جديد... الظاهر أن تلك الروح الموحشة التي ساقطت ايليتش إلى هذا الفعل الرهيب، والتي كان الأهالي

يحسون بدنوها في تلك الليلة - الظاهر أن تلك الروح مست بجناحها القرية، وكوخ دوتلوف الخشبي، حيث كانت تلك النقود التي استخدمها لهلاك ايليتش. أو هذا ما شعر به دوتلوف هنا على أقل تقدير. فلم يكن دوتلوف في أطواره. لم ينم، ولم ينهض. رأى شيئاً لم يكن يستطيع تحديده، فتذكر ايليوشكا موثوق اليدين، وتذكر وجه اكسينيا، ونواحاها الموزون، وتذكر ايليتش بذراعيه العظمتين المتدليتين. وفجأة خيل للعجوز أن شخصاً مر بالنوافذ. وفكر العجوز في نفسه: «ما هذا، أو لعله العمدة جاء يطبق القانون؟» وفكر وهو يسمع خطوات في الرواق: «كيف فتح الباب المغلق؟ أو لعل العجوز لم تغلقه، حين خرجت إلى الرواق؟» أخذ كلب ينبع في الفناء الخلفي، بينما هو سار في الرواق، كما روى العجوز فيما بعد، وكأنه يبحث عن الباب، ومر وصار يتلمس الجدار من جديد، وتعثر بالبرميل، فهدر البرميل.

ثم عاد هو يتلمس من جديد، وكأنما يبحث عن الرزة. وقد أمسك بالرزة. وسرت رجفة في بدن العجوز. نوسحبها، ودخل في هيئة إنسان وعندئذ عرف دوتلوف من هو. أراد أن يرسم علامة الصليب، ولكن لم يقدر. أما هو فتقدم من المائدة التي وضع عليها مفرش فسحبه، وألقاه على الأرض، وتسلق إلى سطح الموقد، وعرف العجوز أنه في هيئة ايليتش. كان يكشف عن أسنانه، ويدها متدليتان. صعد إلى سطح الموقد. وسقط على العجوز تماماً، وأخذ يخنقه. ونطق ايليتش:

- إنها فلوسي.

- أطلقني، لن أخذها. - أراد سيميون أن يقول، ولم يقدر.

كان ايليتش يخنقه بشقل جبل صخري بكليته، ضاغطاً على صدره.

كان دوتلوف يعرف أنه إذا قرأ دعاء، فإنه سيطلقه، وكان يعرف أي دعاء يجب أن يقرأ. إلا أن هذا الدعاء تعصى ولم يخرج من بين لسانه. كان حفيده ينام جنبه. صرخ الطفل صرخة ثابتة، وأخذ يبكي. فقد ضغطه جده على الحائط. وأطلقت صرخة الطفل لسان العجوز من عقاله، فقال دوتلوف: «قام الرب». فأرخی هو ثقله بعض الشيء. وغمغم دوتلوف: «وليهلك جميع الأعداء...» فنزل هو من الموقد. وسمع دوتلوف كيف كان هو يقرع الأرض بكلتا قدميه. ودوتلوف ما يزال ماضياً في قراءة الأدعية المعروفة له، يقرؤها كلها تباعاً. وسار هو نحو الباب، واجتاز المائدة، وصفق الباب بشدة جعلت الكوخ كله يهتز. ومع ذلك فقد كان الجميع نياماً ما عدا العجوز وحفيده. كان الجد يقرأ الأدعية، ويرتجف بكل بدنه، والحفيد يبكي، غاطاً في النوم من حين لآخر. وهو يلنصق بجده. سكن كل شيء مرة أخرى. كان الجد مستلقياً بلا حراك. وصاح ديك وراء الحائط على مقربة من أذن دوتلوف. وسمع دوتلوف الدجاجات تتحرك، وديكاً فتياً يحاول أن يصيح عقب ديك عجوز فلم يفلح. وتحرك شيء بين رجلي العجوز. كانت هذه القطعة، قفزت على مخليبيها اللينين من الموقد إلى الأرض، وراحت تموء عند الباب. نهض الجد، ورفع ستار الشباك. كان الخارج مظلماً قذراً. كانت العربات تقف في مكانها تحت الشباك. خرج إلى الفناء حافياً راسماً علامة الصليب، قاصداً الخيول. وكان واضحاً هنا أن المالك قد وصل. كانت الفرس الواقفة تحت السقيفة عند المذود قد شريكت قدمها بالمقود، وراحت تنثر التبن، منتظرة مالكةا، وقد رفعت قدمها، ولوت رأسها. وكان المهر الصغير قد سقط في الروث. أنهضه الجد على أقدامه، وفك شريكة الفرس، ووضع علفاً.

ورجع إلى البيت. نهضت العجوز، وأشعلت مسرعة الخشب. قال لها: «أيقظي الأولاد. أنا ذاهب إلى المدينة»، وأشعل شمعه من الأيقونات، ونزل معها إلى السرداب. وعندما خرج من هناك كانت الأضواء تشتعل ليس في بيت دوتلوف وحده، بل وفي بيوت جميع الجيران. نهض الأولاد، وأخذوا يتهبأون للخروج. والنسوة يخرجن ويدخلن بالجرادل وجفئات الحليب. شد ايغناث العدة إلى العرية. والابن الثاني راح يدهن العرية الأخرى. والزوجة الشابة لم تعد تعول، بل جلست على التخت بعد أن ارتدت ملابسها، وشدت رأسها بالمنديل، منتظرة الأوان للذهاب إلى المدينة لتودع زوجها.

بدا العجوز صارماً بشكل عام. لم يقل كلمة واحدة لأحد. ليس قفطاناً جديداً، وتحزم، وذهب إلى يغور ميخائيلوفيتش يحمل كل نقود ايليتش في طية صدره.

. اجهد نفسك! - صاح على ايغناث الذي كان يدير العجلات على المحور المرفوع المزيت. - سأعود حالاً، لأرى العرية مهيأة.

كان الوكيل قد استيقظ قبل حين، وشرب الشاي، وتهيأ للذهاب بنفسه إلى المدينة، ليسلم المجندين، سأل:

. ماذا وراكم؟

. أريد يا يغور ميخائيلوفيتش، أن أدفع لبديل عن الفتى. فأرجو أن تعمل معروفًا. قبل أيام كنت تقول أنك تعرف راغباً في المدينة. فارشدني. فأنا لا أعرف شيئاً من هذه الأمور.

. هل غيرت فكرك؟

. غيرته، يا يغور ميخائيلوفيتش، خسارة ابن أخي. خسارة مهما

كان هو. والشرور منها كثيرة، من الفلوس، من هذه، فأرشدني، اعمل معروفاً. كان يقول ذلك، وهو ينحني بكل جذعه الأعلى.

تقطع يغور ميخائيلوفيتش بشفتيه طويلاً في تفكير عميق وصمت، كعادته دائماً في مثل هذه الأحوال، وبعد أن قلب الموضوع، كتب رسالتين قصيرتين، وشرح كيف وماذا يقتضي عمله في المدينة.

عندما عاد دوتلوف إلى بيته، كانت الزوجة الشابة قد رحلت مع ايفغات، وكانت الفرس الشهباء البارزة البطن قد ألبست كل عدتها، ووقفت عند الباب الخارجي. قطع دوتلوف غصناً من السباح، والتف بمعطفه، وجلس في مقعد الحوذي، وساق الفرس. أطلق دوتلوف فرسه بسرعة شديدة، حتى إن بطنها البارز قد اختفى، وكف دوتلوف عن النظر إليها حتى لا تبدي شكوى. وكان يعد الظن بأنه سيتأخر في الوصول إلى مقر التجنيد، وأن ايليوشكا سيؤخذ إلى الجيش، وتبقى الفلوس المنحوسة في يديه.

ولا أريد أن أصف بالتفصيل كل ما وقع لدوتلوف في ذلك الصباح، واكتفي بالقول إن الحظ قد أسعده كثيراً. فإن صاحب الأمر الذي كتب له يغور ميخائيلوفيتش، كان قد أعد البديل. كلياً، بعد أن صرف عليه ثلاثة وعشرين روبلاً، وصدق عليه في الهيئة. كان صاحب الأمر يريد لقاء أربعمائة روبل، وكان الشاري، وهو رجل من المدينة ظل يتردد عليه منذ أكثر من أسبوعين، يطلب أن يتنازل عنه إلى ثلاثمائة روبل. وقد حسم دوتلوف القضية بأربع كلمات، إذ قال ماداً يده: «تقبل بثلاثمائة وخمسة وعشرين؟» ولكنه قالها بشكل جعل من الواضح في الحال أنه مستعد لأن يضيف شيئاً، ولكن صاحب الأمر كان يجذب يده، ويصر

على أربعمائة روبل. فكرر دوتلوف: «لا تقبل بثلاثمائة وخمسة وعشرين؟» ممسكاً يد صاحب الأمر اليمنى بيده اليسرى، ملوحاً بأنه سيضربها بيده اليمنى، وقال فجأة: «لا تقبل؟ إذن، مع السلامة» بعد أن ضرب يد صاحب الأمر، وأعرض عنه بكل جسمه بحركة حادة. «هذا ما سيكون، في الظاهر! آخذه بثلاثمائة وخمسين، اكتب الوصل، وأخذ الشاب. والآن سأدفع العربون. يعني ورقتان من أم عشرة روبل؟».

فك دوتلوف حزامه، وأخرج النقود.

ورغم أن صاحب الأمر لم يسحب يده بعده، إلا أنه ما زال وكأنه غير موافق تماماً، يتحدث، دون أن يقبل العربون، عما يريده كإكرامية ووليمة للبديل.

«اتق الله. كسر دوتلوف، وهو يدس له الفلوس. كلنا إلى الموت.»

كررها بلهجة دمثة واعظة واثقة حتى إن صاحب الأمر قال:

«لا حيلة لنا. وضرب يده مرة أخرى، وأخذ يصلي للرب.

وقال - الأعمار بيد الله.

أيقظوا البديل الذي كان نائماً منذ السكرة الشديدة يوم أمس، وعاینوه لغرض في أنفسهم، وذهبوا جميعاً إلى دائرة التجنيد.

كان البديل مرحاً، طلب أن يكسر خمار البارحة بخمرة الرم، فأعطاه دوتلوف فلوساً لذلك، ولم تبد عليه الرهبة إلا حين أخذوا يدخلون رواق الدائرة. وقفوا في الرواق طويلاً؛ صاحب الأمر العجوز في قفطان سيبيري أزرق، والبديل في فروة خروف قصيرة مرفوع الحاجبين، محمق العينين. وتهاهما هناك طويلاً، وقعدا في مكان، ويحشا عن شخص، وكانا،

لغرض ما، يرفعان قبعتيهما أمام كل كاتب، وينحنيان له، ويصفيان باستغراق إلى القرار الذي أصدره كاتب من معارف صاحب الأمر. وأخيراً انتهى كل أمل من إنهاء القضية في هذا اليوم. وعاد البديل من جديد يبدو أكثر مرحاً وانفلاتاً، حتى إن دوتلوف ما إن رأى يغور ميخائيلوفيتش حتى تشبث به وراح يترجاه وينحني له. وساعده يغور ميخائيلوفيتش جيداً، حتى إن البديل استدعي إلى الدائرة في نحو الساعة الثالثة، مما أثار استياءه الشديد ودهشته، وسجلوه في قيد المجندين. وبروح مرحلة عمت الجميع، لسبب ما، ابتداء من الحارس وانتهاءً بالرئيس، خلعوا ملابسهم، وحلقوا رأسه، وألبسوه، وأطلقوه وراء الباب، وبعد خمس دقائق دفع دوتلوف الفلوس، وتسلم وصلاً، وودع صاحب الأمر والبديل، وذهب إلى منزل التاجر الذي كان يقيم فيه المجندون من قرية بوكروفسكويه. كان ايليوشكا وزوجته الشابة يجلسان في ركن من مطبخ التاجر، وما إن دخل العجوز حتى كفا عن الكلام، وتفرسا فيه بخنوع ونفور. صلى العجوز، على عادته دائماً وفك حزامه، وأخرج ورقة، ودعا ابنه الكبير ايغناات، وأم ايليوشكا التي كانت في الفناء وقال، وهو يتقدم من ابن أخيه:

«اتق الله، يا البوخا. يوم أمس قلت لي كلمة معينة. هل من المعقول أنني لا أشفق عليك؟ أنا أتذكر كيف أوصاني أخي بك.

وهل يعقل أنني سأتخلى عنك لو كانت عندي مقدرة؟ ها هو الرب قد وفقني، فلم أبخل. هذه هي الورقة. قال ذلك ووضع الوصل على المائدة، ومسد عليها حريصاً بأصابعه المعوجة المتصلبة المفاصل.

دخل البيت من الفناء جميع الرجال القادمين من بوكروفسكويه،

وشغيلة التاجر، وحتى أناس أغراب. وحس الجميع حقيقة الأمر، ولكن أحداً لم يقطع كلام العجوز المهيب.

ها هي الورقة؛ دفعت أربعائة رويل. فلا توبخ عمك.

نهض ايليوشكا، ولكنه لزم الصمت دون أن يعرف ماذا يقول.

كانت شفتاه ترتجفان انفعالاً، وتقدمت أمه العجوز منه ناشجة.

وأرادت أن تلقي نفسها على رقبته، إلا أن العجوز نحاها بيده

ببطء وبأمر، ومضى يقول:

بالأمس قلت لي كلمة معينة. كرر العجوز مرة أخرى. أنت بهذه

الكلمة طعنت قلبي كما تطعنه بسكين. أبوك، حين كان على فراش

الموت، أوصاني بأن تكون مثل ابني، وإذا كنت قد أسأت إليك بشيء،

فلأننا جميعاً نعيش في الخطيئة. أليس كذلك، يا مؤمنون؟. خاطب

بذلك الرجال الواقفين حوله. هذه أمك أمامك، وهذه زوجتك الشابة،

وهذا هو الوصل. وعفا الله على الفلوس. فاعذروني من أجل المسيح.

وطوى ذيل جيبته، وركع على ركبتيه ببطء، وانكب على قدمي

ايليوشكا، وعلى قدمي زوجته، وعبثاً حاول الشبان إمساكه. فهو لم

ينهض إلا بعد أن مس الأرض برأسه، وبعد ذلك نفض نفسه، وجلس على

التخت. بكت أم ايليوشكا وزوجته الشابة من الفرح، وتردد أصوات

التأييد من المتجمعين. قال أحدهم: «كما يقتضي الحق، كما يأمر الرب»،

وقال ثان: «يا للفرحة، رجل عادل، والحق يقال». والمنسبون للتجنيد

وحدهم لم يقولوا شيئاً، وخرجوا إلى الفناء، لا يسمع لهم صوت.

وبعد ساعتين خرجت عربتا آل دوتلوف من ناحية المدينة.

كان العجوز وايغناث يستقلان العربة الأولى تجرها الفرس الشهباء

بيطنها البارز، ورقبتها العرقة، وعلى ظهر العربة كانت تتأرجح رباط الكعك. في العربة الثانية التي كانت تسير على هداها جلست برصانة وهناء الزوجة الشابة وحمايتها معصوتين بمنديلين. كانت الزوجة الشابة تحتفظ وراء الستار بكوز من الفودكا بينما كان ايليوشكا في المقعد الأمامي يدير ظهره للحصان، مرتعصاً محمر الوجه، مهتزازاً، يتبلغ بكعكة، ولا يكف عن الكلام. وقد اندمجت الأصوات، وكركية العريتين على الجادة، وحممة الحصانين في صوت واحد مرح.

وكان الحصانان يهزان ذيليهما ويزيدان من عدوهما باستمرار مستشعرين مسيرهما نحو البيت. وكان المارة ماشين أو راكبين يلتفتون إلى العائلة المرحّة، دون أن يدروا.

وعند مشارف المدينة قمأماً أخذ آل دوتلوف يلحقون بفريق المجندين. كانت مجموعة المجندين تتحلق بالقرب من مشرب. كان أحد المجندين يعزف على البلايكا بخفة وتلك السحنة التي يضيفها الرأس الحليق على الإنسان، وقد سرح قبعته الرمادية على قفاه. وكان الآخر يرقص في وسط الحلقة حاسر الرأس، وفي يده كوز فودكا، أوقف ايغناات الحصان، ونزل من العربة ليقوي مشد العربة. أخذ آل دوتلوف جميعهم ينظرون إلى الراقص بحب استطلاع واستلطاف ومرح. وكان هذا المجند لا يرى أحداً، على ما يبدو، ولكنه كان يحس بأن الجمهور المتطلع إليه باندهاش، يتعاضم، فكان ذلك يمدّه بالقوة والبراعة. كان المجند يرقص بخفة، وقد انعقد حاجباه، وجمد وجهه الأحمر، وارتسمت على فمه ابتسامة صغيرة فقدت رونقها منذ زمان. وبدا وكأن كل ما في روحه من قوة موجه إلى صف قدم وراء قدم، بأسرع ما يمكن، تارة على الكعب، وتارة على

أطراف الأصابع. وكان أحياناً يتوقف فجأة، ويغمز للعازف على البلايكا، فكان هذا يأخذ بالضرب على جميع الأوتار بخفة أشد، بل وينقر سطح البلايكا بعظام أصابعه.

وكان المجند حتى إذا توقف وجمد يبدو وكأنه ماضٍ في رقصه. كان يبطئ من حركته فجأة مرقصاً كتفيه قليلاً، وإذا به يقفز إلى الأعلى، وينقض ليقرقص ويرقص رقصة القرفصاء دافعاً هذه القدم وتلك زاعقاً زعيقاً وحشياً. وكان الأطفال يضحكون، والنسوة يهزرن رؤوسهن، والرجال يتسممون باستحسان. وكان ضابط الصف العجوز يقف على مقربة من الراقص، وهيئته تقول: «هذا عجيب لكم، بينما هو مألوف جداً بيننا». والظاهر أن عازف البلايكا تعب، فتلفت بكسل، وعزف تنغيماً كاذباً، وإذا به يضرب سطح البلايكا بأصابعه، وانتهى الرقص. هاي! الكسي! - قال عازف البلايكا للراقص مشيراً إلى

دوتلوف. - هذا أبوك في المعمودية!

- أين؟ أوه يا صاحبي اللطيف! - صاح الكسي، وهو نفس المجند الذي اشتراه دوتلوف بديلاً، واتجه نحو العربة، دافعاً قدميه المتعبتين إلى الأمام، رافعاً كوز الفودكا فوق رأسه.

- يا ميشا، هات قدحاً! - صاح، - يا صاحب الأمر! يا صاحبي اللطيف! أية فرحة هذه، حقاً!... وأرخى رأسه المخمور داخل العربة، وراح يقدم الفودكا للرجال والمراةين. قبل الرجال، ورفضت المرأتان. - بم أضيفكما يا عزيزتي؟ - صاح الكسي، وهو يحتضن العجوز.

كانت بائعة متجولة تقف في الحشد ببسطتها من الأطايب، رآها الكسي، فاختطف منها البسطة، وصب كل ما فيها في العربة.

- أظن... سأدفع ثمنها، تفاهه! - صاح بصوت متفجع، وفي نفس اللحظة أخرج من السروال كيس نقوده، وألقاه لميشكا.
وقف مرتفعاً على العربة، ينظر إلى الجالسين فيها بعينين نديتين.
سأل:

- من منكما أُمي بالعمودية؟ هل أنت؟ سأهدي لك.
وغرق في التفكير برهة، ودس يده في جيبه، وأخرج منديلاً جديداً مطوياً، وفوطه كان يتحزم بها تحت معطفه العسكري، ونزع من رقبته بعجالة منديلاً أحمر، وكور كل ذلك، ودسه في ركبتي العجوز.
هذا لك، هدية مني - قال بصوت صار يخفت أكثر فأكثر.
- لأي شيء؟ شكراً، يا عزيزي. انظر، أي شاب مفتوح القلب هو، -
قالت مخاطبة دوتلوف العجوز الذي كان قد جاء إلى عربتهم.
سكت الكسي تماماً، وسهم وراح، كالمهوم، في غفوة ينزل رأسه أكثر فأكثر.

- أنا ذاهب للجيش من أجلكم، وسأقتل من أجلكم! قال ذلك -
ولأجلكم أهدي هداياي.

قال أحد من المتجمعين:

- أظن أن أمه حية ما تزال. يا له من شاب مفتوح القلب! مصيبة!
رفع الكسي رأسه:

- أُمي حية ما تزال - قال الكسي - وكذلك أبي. وقد نبذوني جميعاً،
اسمعي، يا عجوز - أضاف وأمسك يد أم اليوشكا - ها أنا قدمت لك هدايا، فاسمعي من أجل المسيح. اذهبي إلى قرية فودنوبه، واسألي عن العجوز نيكونوفا، إنها أُمي التي حملت بي، تفهمين؟ وقولي لهذه

العجوز، نيكونوفا العجوز، كوخها الثالث من طرف القرية، عند البئر الجديدة، قلبي لها إن اليوخا، ابنك... الحاصل... يا عازف، اعزف! صاح، وعاد يرقص من جديد، وهو يتحدث، ورمى على الأرض الكوز بما تبقى فيه من الفودكا.

صعد ايغناث إلى العربة، وهم بالتحرك. وكانت العجوز تقول، وهي تلف نفسها بالفروة.

. وداعاً... الله يعطيك...

توقف الكسي فجأة.

. ولوا إلى الشيطان - صاح مهدداً بقبضته المضمومتين.

. يا أبناء...

قالت أم اليوشكا، وهي ترسم علامة الصليب: - آه، يا ربي!

ساق ايغناث الحصان، وعادت العربة تتركب. وكان المجند الكسي واقفاً وسط الطريق، مضموم القبضتين، ضاري الوجه، يشتم الرجال بكل ما له من قوة.

كان يصرخ: «لماذا أنتم واقفون؟ ولوا! شياطين! آكلة لحوم البشر! سأستخدم لن تفلتوا من يدي، يا كلاب! أبالسة!».

وبهذه الكلمة تقطع صوته، وسقط بكل قامته على الأرض.

وبعد قليل خرج آل دوتلوف إلى الأرض المنبسطة، وتلفتوا، فلم يروا جمهرة المجندين. سار ايغناث سيراً حثيثاً زهاء خمسة فراسخ، ونزل من عربة أبيه، حيث كان العجوز يغفو، وقعد إلى جانب عربة ايليوشكا.

شرب الاثنان كوز الفودكا الذي اشتراه من المدينة. وبعد قليل أخذ ايليوشكا يغني، والمرأتان تصاحبانه في الغناء، وكان ايغناث يحث

الحصان مرحاً وعلى نغم الأغنية. أقبلت عليهم من الجهة المقابلة عربة صغيرة لنقل البريد منطلقاً بسرعة. صاح سائقها على حصانه بهمة، حين حاذى العربتين بركابها المرحين.

التفت الساعي، الجالس في العربة الصغيرة، وغمز للوجوه المحمرة، وجوه الرجال والنساء المهتزين في العربة، على غناء مرح.

الذراع قصة حصان

إلى ذكرى م. أ. ستاخوفيتش*

الفصل الأول

راحت السماء تملو، وحمرة الفجر تتسع، وفضة الندى الكالحة تبيض، والهلال يزداد ذبولاً، والغابة تزداد صداداً، الناس قد أخذوا ينهضون من مراقدهم، وفي اسطبل الضيعة أخذت تتردد أكثر فأكثر حممة الخيول المتدافعة المتعاركة على شيء ما وتحركها على القش المفروش، بل وحتى صهيلها الغاضب الزاعق.

هوه! تلحق! جعت للعشب! - قال راعي الخيول العجوز، وهو يفتح البوابة الصارفة وصاح - إلى أين؟ - ملوحاً ذراعه على فرس حشر عنقه في البوابة.

كان راعي الخيول نيستر يرتدي سترة قوزاقية مشدودة بحزام ذي حلق، وقد ألقى السوط على كتفه، ولف الخبز في فوطه وضعها خلف حزامه. وكان يحمل في يديه سرجاً ولجاماً.

* الموضوع من ابتكار م. أ. ستاخوفيتش مؤلف «رعي الليل» و«الفرسان». وقد قدمه أ. أ. ستاخوفيتش إلى المؤلف. (الملاحظة من ل. ن. تولستوي).

لم ترتعب الخيول قط، ولم تتكدر من لهجة راعي الخيول المضحكة، ويدا عليها وكأن كل شيء سواء لديها. فابتعدت عن البوابة متماهلة إلا فرساً واحدة عجوزاً كميئاً غزيرة العرف، فقد أسبلت أذنها، واستدارت عنه بكفلها مسرعة. وعندها صوت فرس فتى لا يعنيه الأمر كلياً كان يقف إلى الراء، ورفس بقائمتيه الخلفيتين أول حصان صادفه.

هو! - صاح راعي الخيول بصوت أعلى وأرهب، واتجه إلى ركن الفناء.

كان أكثر خيول الاسطبل صبراً (كانت حوالي المائة عدداً) حصان مخصي أبقع واقف لوحده في زاوية تحت الظليلة، يلحس عمود السقيفة البلوطي وعيناه متقلصتان. ولا أحد يعرف أي مذاق وجد المخصي الأبقع في لحس العمود، ولكنه كان يفعل ذلك باستغراق وجدية.

- تشاكس! - خاطبه راعي الخيول بنفس اللهجة، وهو يقترب منه، ويضع السرج وغطاء الظهر المنصل على تل الروث قربه.

كف المخصي الأبقع عن اللحس، ونظر إلى نيستر طويلاً، دون أن يأتي حركة. ولم يضحك، ولم يغضب، ولم يتجهم بل ارتعص بكل بطنه، وأرسل زفرة عميقة، واستدار. طوق راعي الخيول عنقه، وألبسه اللجام، وقال:

- لماذا تتحسر؟

هز المخصي ذيله، وكأنه يقول: «لا شيء على وجه الخصوص، يا نيستر». وضع نيستر عليه غطاء الظهر والسرج، فأرخی المخصي أذنيه، معبراً بذلك عن استيائه، ربما، ولكنه لم يتلق، على ذلك، غير الشتيمة المقذعة. أخذ نيستر يشد السيور عليه، فنفع المخصي بطنه، ولكنه

عوجل بوضع إصبع في فمه، وبلكرة قطعت أنفاسه لا محالة. ومع ذلك فقد أرخى أذنيه مرة أخرى، حين أحكم نيستر شد الحياصة بسننه، بل ولم يلتفت إليه. وعلى الرغم من أنه كان يعرف بأن هذا لا يساعده في شيء، إلا أنه كان يرى التعبير عنه ضرورياً، ومريحاً له، سيظهره دائماً. وحين أسرج، ترك ساقه اليمنى المنتفخة، وراح يعلك الشكيمة، ولا اعتبارات معينة أيضاً، لأن الأوان كان قد حان ليعرف أن الشكائم لا يمكن أن يكون لها طعم.

وضع نيستر قدمه على الركاب الواطئ، وامتنطى المخصي وفك السوط، وسحب أذيال سترته القوزاقية من تحت ركبته، واستوى على سرجه بتلك الجلسة الخاصة بالحوذي والصياد وراعي الخيول، وجذب الرسن. رفع المخصي رأسه معلناً عن استعدادده للانطلاق إلى حيث يشار إليه، ولكنه لم يتحرك. فقد كان يعرف أن ذلك يسبقه على الدوام صياح كثير يطلقه راعي الخيول من على صهوته مصدراً به الأوامر إلى فاسكا راعي الخيول الآخر، وإلى الخيول. وبالفعل أخذ نيستر يصيح: «فاسكا، يا فاسكا! هل أخرجت الأفراس؟ أين أنت، يا عفريت! هيا! أناثم أنت! افتح، ودع الأفراس تخرج أولاً». إلى غير ذلك.

صرفت البوابة. وقف فاسكا عند عمودها غاضباً ناعساً يمسك الحصان من لجامه، وفسح الطريق للخيول. أخذت الخيول تمر واحداً بعد الآخر، واطئة القش بحذر، متشممة إياه: أفراس فتية، أفلاء مشذبة الأعراف، وأمهار صغار، وأمهات ثقيلات، كن يمررن ذريتهن من خلال البوابة بحذر، وواحداً واحداً. وكانت الأفراس الفتية تتزاحم في الفناء أحياناً، فتخرج مثنى وثلاث، واحداً يضع رأسه على ظهر الآخر،

وتضطرب أقدامها في البوابة، فتتلقى في كل مرة كلمات السباب من الرعاة. كانت الأمهار الصغار أحياناً تندفع نحو أرجل أمهات أخريات. وتسهل سهيلاً صداحاً رادة على حممة الأمهات القصيرة.

ما إن خرجت الفرس المشاكسة من البوابة حتى لوت رأسها إلى الأسفل ثم إلى جانب، ورفعت كفلها ورفست بقائمتيها الخلفيتين، وزعقت، ومع ذلك لم تتجراً على أن تسبق الفرس الرمادية المرقطة العجوز «جولديبا» التي كانت، على عاداتها، تسير أمام جميع الخيول برصانة، وبخطوات ثقيلة مقلقة بطنها من جنب إلى جنب.

وبعد بضع دقائق خلا الاسطبل الذي كان مكتظاً حافلاً بالحركة، واران عليه الحزن. ولاحت الأعمدة تحت الظليلات الفارغة بارزة شجبة ولم يبق للعيان غير القش المسحوق المبقع بالروث. ولعل المخصي الأبقع كان يشعر بالأسى من ذلك، مهما طال تعوده على هذه اللوحة الخالية. رفع وخفض رأسه ببطء، وكأنما يؤدي تحية.

وتنهّد بقدر ما سمح له السير المشدود على بطنه، وسار خلف القطيع مجرّجاً قوائمه المحنية المتصلبة، حاملاً نيستر العجوز على صهوته.

كان الحصان المخصي يفكر «أنا أعرف الآن، حالما سنخرج إلى الطريق، سيقود ناره، ويشعل غليونه الخشبي بإطاره النحاسي وسلسلته. وأنا مسرورة لذلك، لأن هذه الرائحة تلذ لي مع الندى في الصباح الباكر، وتذكرني بأشياء لطيفة أخرى. والمؤسف فقط أن العجوز ما إن يضع الغليون بين أسنانه، حتى يأخذه الاعتداد بالنفس، فيتصور نفسه شيئاً ما، ويميل في جلسته جانباً، وفي كل مرة جانباً، فيوجعني الجنب الذي

يميل إليه. وعلى أية حال عفا الله عنه، فليس جديداً علي أن أتعذب لأجلب المسرة للآخرين، بل أخذت أجد في ذلك بعض المسرة التي تجدها الخيول. فدعوا المسكين يتقنل فإنه لا يفعل ذلك إلا حين يكون وحيداً، ولا أحد يراه. دعوه يجلس إلى جنب»، - إلى هذا التفكير انتهى المخصي، وسار في وسط الطريق واطناً الأرض في حذر بقوائمه المعوجة.

الفصل الثاني

حاش نيستر قطيع الخيول نحو النهر، حيث كان عليها أن ترعى بالقرب منه، ونزل من حصانه، ورفع عنه سرجه. وخلال ذلك أخذ القطيع ينتشر في مرجة لم توطأ بعد، يغطيها الندى والبخار المتصاعد، على قدر واحد، من المرجة والنهر الذي كان بطوقها.

رفع نيستر اللجام عن المخصي الأبقع، وحك أسفل رقبته، واستجابة لذلك أغمض المخصي عينيه إمارة على الامتنان والمتعة. فغمغم نيستر: «العجوز الملعون يلتذ بذلك!» ولم يكن المخصي يلتذ قط من هذا الحك، وللمسجاملة فقط تظاهر بأنه يلتذ، هز رأسه يوافق على رأيه. ولكن نيستر دفع رأس الحصان فجأة، ودون توقع وبدون سابق إنذار، متصوراً، على ما يبدو. أن الإسراف في رفع الكلفة يمكن أن يعطي المخصي أفكاراً كاذبة عن معنى ما دار في خلده، ولوح نيستر باللجام، وضرب قدم الحصان الناحل بأزيم اللجام ضربة موجعة جداً، وصعد الكتيب، دون أن ينطق بشيء، إلى قرمة كان يجلس عليها عادة.

لم يظهر على الحصان الأبقع أي شيء، رغم أن هذه الضربة آلمته، واتجه نحو النهر يهز ذيله الهزيل ببطء، متشعماً ومقتلعاً العشب ليسري عن نفسه لا غير. لم يعر أي التفات إلى ما كانت الأمهار الصغيرة

والأفلاء تفعله مبتهجة بالصباح، وكان يعرف أيضاً أن الأكثر صحة بالنسبة لمن في سنه على وجه الخصوص، أن يشرب جيداً على الريق، وبعد ذلك يأكل، فاختر بقعة من الشاطئ أبعد مكاناً وأرحب، ودس بوزه في الماء مبللاً حوافره والنتوء ما فوق الحافر، وأخذ يشطف الماء من خلال شفتيه المشفقتين، ويحرك جنبه وذيله بأرومته الهزيلة الشعر.

تقدمت من المخصي العجوز فرس صهباء مشاكسة، كانت دائماً تناكده وتسبب له بعض المنغصات، وتظاهرت بأنها جاءت لشأن من شؤونها، ولكنها في الحقيقة جاءت لتعكير صفو الماء، حيث كان يشرب. إلا أن الأبقع كان قد أخذ كفايته من الماء، وأخرج بهدوء قدميه المتوحلتين واحدة بعد الأخرى، وكأنما لم يلحظ نية الفرس الصهباء، ونفض رأسه، وابتعد عن شبيبة الخيول، وراح يعلف.

وظل يعلف ثلاث ساعات كاملة لا يكاد يرفع رأسه، واضعاً حوافره بأشكال مختلفة، حتى لا يطأ من العشب ما لا لزوم لايطائه، أكل وشبع حتى تدلى بطنه كالكبس على أضلاعه المدورة البارزة، ووقف بالتساوي على قوائمه الأربع الموجعة، ليكون الألم أقل ما يمكن، لا سيما بالنسبة لقائمه الأمامية اليمنى، التي كانت أضعفها، وأخذ النوم.

هناك شيخوخة مهيبه، كما هناك شيخوخة مقرفة، وأخرى بائسة. كما هناك شيخوخة مقرفة ومهيبه في آن واحد، وكانت شيخوخة المخصي الأبقع من هذا النوع تماماً.

كان المخصي عالياً، لا يقل عن ذراعين وفتر وكان لون جلده أبقع داكناً. وهذا ما كان من قبل، ولكن البقع الداكنة صارت الآن بلون بني كدر. وكانت له ثلاث شببات: واحدة على رأسه منحرفة جرداء على جانب أنفه، وإلى الأعلى من رأسه حتى منتصف العنق.

وكان عرفه الطويل المبقع بالنتوءات أبيض في موضع وبنياً في موضع آخر. وكانت الشبة الأخرى قمر على طول جنبه إلى نصف بطنه. والشبة الثالثة على كفله لتشمل الجزء الأعلى من الذيل إلى منتصف الفخذ وكانت بقية الذيل مبيضة مبرقشة. وكان رأسه العظمي الكبير بغوريه العميقين تحت العينين، ومشفره الأسود المتدلي الذي شق في وقت ما، يتدلى ثقيلًا واطناً، على رقبتة الممدودة لهزالها، وكالمتخشبة. ومن مشفره المتدلي كان يلوح لسان ضارب إلى السواد، مائل إلى جنب، والبقايا الصفراء من أسنانه السفلى المتأكلة. وكانت أذناه، وإحدهما قد شقت، ترتحيان منخفضتين على الجانبين، ولا تتحركان إلا بتكاسل، ومن وقت لآخر، لتعشا الذباب المتكالب. وكانت إحدى خصائل الناصية الطويلة تتدلى وراء الأذن، وكان الجبين العاري غائصاً مخدداً، وكان الجلد يرتخي كالأكياس على عظام فكيه الواسعة. وكانت العروق على رقبتة ورأسه تتعقد عقدًا تهتز وترتعش عندما تمسها أية ذبابة. وكان وجهه يعبر عن الصرامة والصبر والتأمل العميق والعذاب. وكانت قائمته الأماميتان معكوفتين عند الركبتين بشدة، وعلى حافريهما كليهما انتفاخات تصل إحدهما إلى منتصف الرجل، وقد طلعت عليها، عند الركبة، عجرة بحجم قبضة اليد. وكانت قائمته الخلفيتان أكثر غضارة، ولكنهما محكوكتان عند الفخذين، ومنذ زمان، كما يبدو، والشعر لم يعد ينمو في هذه المواضع.

وكانت جميع القوائم تبدو طويلة بلا تناسق لما في قوامه من نحافة. وكانت الضلوع، رغم تدورها، بارزة ومقوسة، حتى لكأن الجلد قد تيبس على التجاوبف بينها. وكان حاركه والظهر مبقعين بكدمات قديمة، كما

توجد قرحة أخرى إلى الخلف ما تزال طرية ومتورمة متقيحة. وكانت أرومة الذيل السوداء بفقراتها الظاهرة تبرز طويلة وجرداء تقريباً. وعلى كفله البني، قرب الذيل، جرح بحجم الكف، مغطى بشعر أبيض، يبدو كأثر لعضة، وندبة جرح آخر تلوح واضحة في منكبه الأمامي. وكانت ركبته الخلفيتان، والذيل متسخة بسبب اضطراب المعدة المستديم. وكان شعر الجسم كله يبرز منتصباً رغم قصره. ومع ذلك، ورغم شيخوخة هذا الحصان المقرزة لا يمكن للمرء، إذا نظر إليه، ولا سيما إذا كان خبيراً، إلا أن يقول: لقد كان في زمانه حصاناً ذا جمال ملحوظ.

بل ولقال الخبير: لم يكن في روسيا غير فصيلة واحدة يمكن أن تعطى هذه العظام العريضة، وهذه الرضف الضخمة*، وهذه الحوافر، وهذه النحافة لقصات الساق، وهذه الرشاقة للعنق، والأهم عظم الرأس هذا، والعين الواسعة السوداء المضيئة، وهذه العقد الأصيلة للعضلات قرب الرأس والعنق، وهذا الجلد وهذا الشعر. وبالفعل كان هناك ما يبعث على المهابة في قوام هذا الحصان، وفي هذا الجمع الرهيب بين علامي الهرم المقرفة - تعززها برقشة البشرة - وبين الثقة والرصانة المتبدية في طرائق التعبير عن وعيه بجماله وقوته.

وقف وحيداً، كطلل حي، وسط المرجة الندية، وعلى مسافة غير بعيدة عنه كانت تتردد كركبة الرعيل المتناثر، وحممته، وصهيله الفتى، وزعيقه.

* عظم ما فوق الركبة، واحده رضفة، المترجم.

الفصل الثالث

أضحت الشمس فوق الغابة، وراحت تتألق ساطعة على العشب
وتعاريج النهر. وكان الندى يجف، ويتجمع قطرات، وكان البخار
الصباحي الأخير يتبدد في مكان ما، قرب المستنقع وفوق الغابة
كالدخان. وكانت السحب تلتف، ولكن الجو كان خالياً من الريح.

ووراء النهر كان الجودار الأخضر قد اشتدت عيدانه وبدت كالشعر
الحشن، وفي الهواء رائحة خضرة غضرة، وأزهار. وكان وقواق يوقوق من
الغابة ببيحة، ونيستر يعد وهو منطرح على ظهره، ما تبقى له من العمر.
حلقت قباير فوق الجودار والمرجة. وتأخر أرنب فوق رعييل الخيل، إلا
أنه أفلت إلى الخلاء، وجلس عند أجمة، وراح يتسمع. هوم فاسكا في
إغفاعة، وقد دفن رأسه في العشب، وانداحت الأفراس إلى الأسفل في
دائرة أوسع حوله. أما الخيول المسنة فقد كانت تترك على الندى أثراً
مضيقاً، وهي تنخر، وظلت تبحث عن موضع لا يضايقها أحد فيه،
ولكنها لم تأكل بعد، بل تتذوق العشب اللذيذ لا غير. تحرك الرعييل
باتجاه واحد، دون أن يلحظ. ومرة أخرى أظهرت الفرس العجوز جولديبا،
وهي تتقدم الآخرين برصانة، بأن في الإمكان التقدم أبعد. وكانت
موشكا الفرس الدهماء الفتية التي وضعت بكرها، لا تفتأ تناغي
رضيعها الخبازي اللون ونحيم عليه، رافعة ذيلها. وكان هذا المهر يقزل
حولها مرتجف الركب. وكان ثمة سنونو بني اللون أملس كالأطلس، لامع
الشعر يرعى وحيداً.

خفض رأسه حتى غطت ناصيته السوداء الحريرية جبينه وعينه،
وراح يلعب في العشب، ويجتثه ويلقيه، ويضربه بقدمه المشعرة والمبللة

بالندی. وكان أحد الأمهار الرضع قد دار حول أمه ستاً وعشرين دورة، متصوراً، ربما، أنه ابتكر لنفسه لعبة، وقد رفع ذيله القصير، وكانت أمه ترعى العشب بهدوء، وقد لحقت أن تتعود على طبع ابنها، ومن حين لآخر فقط، كانت تلقى عليه نظرة من مؤخر عينها السوداء الواسعة. وكان مهر آخر من أصغر الأمهار الرضع، أسود، كبير الرأس، ذو ناصية مذهشة ببروزها بين أذنيه، وذيل ما يزال منحرفاً إلى جانب، كما كان في بطن أمه، قد صوب أذنيه وعينيه الغبيتين، ثابتاً في مكانه، وراح ينظر إلى مهر رضيع آخر كان يقفز ويترجع، ولا أحد يعرف أينظر إليه عن حسد أو عن استهجان. كان بعض الأمهار يرضع دافعاً ضروع أمه بأنفه، والبعض الآخر يركض لسبب غير معروف، ورغم نداء الأمهات، إلى الجانب المعاكس تماماً في عدو ضئيل أهوج، وكأنما يبحث عن شيء ما، ثم يتوقف، لسبب مجهول، ويصهل بصوت رنان مستميت؛ وفريق ثالث يرقد جنباً إلى جنب، ورابع يتعلم العلف، وخامس يحك ما وراء أذنه بقدمه. وهناك فرسان آخرون ثقيلاًن يسيران على مبعدة، ماضيين في علف العشب، يحركان قوائمهما ببطء. والظاهر أن الآخرين يحترمون وضعهما، فلم يجرأ أحد من الصغار على أن يتقدم منهما، ويضايقهما. وإذا ما عن لمساكس أن يتقدم منهما، فإن حركة واحدة من الأذن، والذيل تكفي لأن تظهر له كل حماقة تصرفه.

الأفراس ذات الأعراف والذبول المشذبة والحوالي تتظاهر بأنها رشدت ورصنت، ونادراً ما تعدد إلى القفز، أو تخالط الرفقة المرحة. إنها ترعى العشب برزانة، حانياً أعناقها المشذبة الشبيهة بأعناق الغرائيق، وتهز مقشاة ذبولها، وكأنما تقول - ولنا أيضاً ذبول. ومثل الكبار تنبطح على الأرض، وتتدحرج، ويحك بعضها للآخر.

ثم إن أصرح عشرة هي تلك التي انعقدت بين أفراس في الثانية والثالثة من العمر وبين الإناث العذارى. فهي دائماً تقريباً تسير سوية وعلى مبعدة في جماعة عذرية مرحلة. وتصدر منها كركبة وزعيق ونخير ورفس. إنها تلتقي، ويضع أحدها رأسه على منكب الآخر، ويتشمم بعضها بعضاً، وتتواثب، وأحياناً تشخر، وترفع أذيالها كالأبواق، وتتراكض أمام رفيقاتها بكبرياء وغنج في عدو ما بين الخشب والرهو. وكان أكثر هذه الجماعة جمالاً ودعابة فرس صهباء لاهية، كلما أنت شيئاً فعل الآخرون مثلها، وأينما ذهبت سار فريق الحسناوات كله وراءها. وفي ذلك الصباح كانت هذه اللاحية في مزاج لاه بشكل خاص. اعترها مرح عفوي مثلما يعترى البشر.

وحتى عندما كانت الخيول ترد الماء كانت هذه تركض على طول حافة النهر تمازح المخصي العجوز، وتظاهرها بأنها مرتعبة من شيء ما، وتنخر، وتنطلق في الحقل بكل قوة قوائمه، حتى اضطر فاسكا إلى أن يجري وراءها، ووراء الخيول الأخرى التي تبعته. ثم علفت قليلاً، وبدأت تتمرغ على الأرض، ثم راحت تناكد الأفراس الكبيرة بالسير أمامهن، ثم فصلت أحد الأمهار الرضع عن أمه، وراحت تركض وراءه، وكأنها تريد أن تعضه. ارتعبت الأم، وكفت عن العلف، وصاح المهر بصوت بائس، ولكن الفرس اللاهية لم تمسه بشيء، أرعبته فقط وسرت مشهداً لرفيقاتها اللواتي كن يراقبن أفعالها بانسجام. وبعد ذلك عن لها أن تدبر رأس فرس رمادي كان أحد الفلاحين يمر عليه وسط الجودار بعيداً وراء النهر.

وتوقفت شماء، ورفعت رأسها منحرفة قليلاً، ونفضت جسدها،

وصهلت بصوت حلو رقيق محدود. وقد انعكس في هذا الصهيل عبث وعاطفة وشيء من الحزن. كما فيه رغبة ووعد بالحب ولهفة إليه.

ها هو طائر السلوى يتنقل من مكان إلى آخر في أعواد القصب الكثيف يدعو إليه صاحبتة بلوعة، وها هو الوقواق والسمان يغنيان الحب، والزهور ينثر بعضها للبعض طلعتها في الريح.

«وأنا أيضاً فتية وحلوة وقوية، . كان صهيل الفرس اللاحية يقول، . ولكن لم يكتب لي حتى الآن أن أتذوق حلاوة هذه العاطفة، ولم يكتب لي أن أتذوقها بل ولم يرني أي عاشق، أي عاشق»..

وانداح هذا الصهيل الكثير الدلالة إلى الحقل في الأسفل بأسى وفتوة، ووصل من بعيد إلى سمع الحصان الرمادي. فرفع أذنيه، وتوقف. رفسه الفلاح بنعالة الليفي، وكان الحصان الرمادي مسحوراً بالصوت الفضي الذي ينشره الصهيل البعيد، فصهل أيضاً. غضب الفلاح، وجذبه من أعنته، وضربه في بطنه بنعالة الليفي ضربة جعلته يواصل السير، دون أن يكمل صهيله. ولكن الحصان الرمادي أحس بحلاوة وحزن ولفترة طويلة ظلت رنات الصهيل العاطفي المنطلق وصوت الفلاح الغاضب تتوارد إلى الرعيل من حقول الجودار البعيدة.

وإذا كانت الفتنة قد بلغت بالحصان الرمادي حد نسيان واجبه لمجرد سماع رنة هذا الصوت، فماذا سيكون معه لو أنه رأى كل جمال هذه اللاحية، وكيف كانت تدعوه إليها موترة أذنيها، فاتحة منخريها، مستنشقة الهواء، تهفو إلى مكان ما، وهي ترتعش بكل جسدها الفتى المعافى.

ولكن اللاحية لم تفكر طويلاً في انطباعاتها. وحين سكنت صوت الحصان الرمادي صهلت مرة أخرى بشيء من السخرية، وخفضت رأسها

وأخذت تحفر الأرض بقدمها، ثم ذهبت لتوقظ الحصان المخصي وتناكفه.
وكان الحصان المخصي دائماً هدفاً لعذاب الفتية السعداء وأضحوكة لهم،
وكان يتعذب منهم أكثر مما يعاني من الناس. وهو لم يلحق ضرراً لا بهؤلاء
ولا بأولئك، كان الناس بحاجة إليه، ولكن لم تعذبه هذه الخيول الفتية؟

الفصل الرابع

كان عجوزاً، وكانت فتية، وكان نحيفاً، وكانت مسمنة، وكان
منقبضاً، وكانت مرحة. ومعنى ذلك أنه كان غريباً تماماً، طارئاً، مخلوقاً
مختلفاً تماماً، ولا يمكن أن يشفق عليه أحد. والخيول لا تشفق إلا على
نفسها، وأحياناً، على من يسهل عليها أن تتصور نفسها في جلده.
ولكن هل كان يبدو المخصي الأبقع مذنباً لكونه عجوزاً ونحيفاً
ودميمياً؟... لا أظن ذلك. ولكنه في نظر الخيول الأخرى كان مذنباً،
والحقون دائماً هم أولئك الأقرباء الشبان السعداء، أولئك الذين يخبئ
لهم المستقبل كل شيء، وليسوا هم بحاجة إلى أن يجهدوا كل عضلة
فيهم، ولا أن ترتفع ذبولهم متصلبة إلى الأعلى. ولربما كان المخصي
الأبقع يفهم ذلك، ويمكن أن يوافق في لحظات الهدوء على أنه مذنب في
تبيد حياته، وأن عليه أن يدفع ثمن هذه الحياة، إلا أنه كان حصاناً،
على أية حال، وما كان في وسعه غالباً أن يتحمل مشاعر المهانة والحزن
والحنق، وهو ينظر إلى هذه الفتية من الخيول، تعاقبه على ما سيتعرض
له جميعاً في آخر العمر. كما أن قساوة الخيول هذه كانت تخفي وراءها
شعوراً بالاستقرارية.

فقد كان لكل واحد منها شجرة نسب عن أبيه أو أمه تصل به إلى

سميتكانكا الشهير، ولم يكن للمخصي أي نسب. فقد كان طارناً
أشتري من السوق الريفية قبل ثلاثة أعوام بشمانين روبلاً من أوراق
النقد.

تظاهرت الفرس الصهباء بأنها تتنزه، ودنت من المخصي الأبقع
تماماً، ودفعته. وكان يعرف ما يعني هذا، أرخى أذنيه وكشر عن أسنانه،
دون أن يفتح عينيه. وأدارت الصهباء كفلها إليه، وتظاهرت بأنها تريد
أن ترفسه. ففتح عينيه، وابتعد إلى ناحية أخرى. وكان النوم قد طار من
عينيه، فأخذ يعلف العشب. ومرة أخرى اقتربت الصهباء منه بمعية
صويحاتها. ودنت معها فرس في الثانية من عمرها، مرطاء، شديدة
البله، كانت تقلد الفرس الصهباء دائماً، وتحذر حذوها في كل شيء،
وأخذت، شأنها شأن جميع المقلدين، تتطرف بكل ما فعلته البائدة، كانت
الصهباء تقترب بشكل اعتيادي، وكأنما لشأن من شؤونها، وقمر أمام
أنف المخصي تماماً، دون أن تنظر إليه، حتى إنه لم يعرف على وجه
التحديد أبغض أم لا بغضب. وكان ذلك مضحكاً بالفعل. وقد فعلت
ذلك هذه المرة أيضاً، ولكن المرطاء التي جاءت وراءها، وأبدت مرحاً
فائضاً، صدمت المخصي بصدورها على المكشوف. كشر هذا عن أسنانه
مرة أخرى، وأرسل صيحة، وانطلق خلفها في عدو سريع لا يمكن توقعه
منه، وعرضها من فخذها. رفست المرطاء بكل قوة قائمتيها الخلفيتين،
وأصابت العجوز بضربة قوية على أضلاع النحيلة العارية. حتى صدرت
من العجوز حشجة، وهم بالاندفاع نحوها مرة أخرى، إلا أنه غير فكره،
وابتعد جانباً، وهو يتنفس بعسر. ولعل فتية الرعيل كلها اعتبرت
الجمسرة التي سوغها العجوز لنفسه بتصرفه هذا مع الفرس المرطاء.

إهانة شخصية لها، فظلت طوال النهار لا تدعه ينال شيعه ولا تتركه بسلام دقيقة واحدة، حتى إن راعي الرعيل كان يهدئها عدة مرات، ولم يستطع أن يفهم ماذا جرى لها. وكان المخصي شديد التكدر، حتى إنه اقترب بنفسه من نيستر، حين أخذ هذا العجوز يعود بالرعيل، وشعر بأنه أكثر سعادة وطمأنينة، حين وضع السرج عليه، وركب.

والله يعلم ماذا كان المخصي العجوز يفكر وهو ينطلق بالعجوز نيستر على صهوته. أكان يفكر بمرارة في شبيبة الخيول القاسية الملحاحة تلك، أم كان يغفر للمعتدين عليه تجاوزهم بذلك الإباء الازدرائي الصموت المتأصل بالشيوخ. فهو لم يفصح عن تأملاته بشيء حتى وصوله إلى البيت.

في ذلك المساء زار نيستر عرابو أولاده، وحين كان يسوق الرعيل عبر بيوت الخدم وقع بصره على عربة بحصان مربوطة إلى مدخل بيته. وما إن أتم سوق الرعيل إلى الاسطبل، حتى بدا عليه الاستعجال، فأطلق المخصي في الفناء حتى دون أن يرفع عنه السرج، وصاح على فاسكا بأن يفك السرج عنه، وأغلق البوابة، وذهب إلى العرابين. وفي تلك الليلة وقع في الاسطبل شيء غير اعتيادي لربما بسبب الإهانة التي ألحقها به المرطاء، ابنة حفيذة سميتانكا الصغرى، «البرذونة الجرباء» المشتراة من سوق الخيول، والتي لا تعرف أباه ولا أمها، وبذلك أهانت الشعور الارستقراطي لكل من في الاسطبل، أو بسبب المشهد الخيالي الغريب على الخيول، والمتمثل بالمخصي وهو واقف بسرجه العالي ويدون راكب.

تراكضت الخيول كلها صغيرها وكبيرها وراء المخصي مكشرة عن أسنانها، مطاردة إياه في الرحبة، وترامت أصوات الخوافر تضرب جنبه

الأعجفين ولهات ثقيل. ولم يعد المخصي قادراً على تحمل ذلك أكثر، ولم يستطع تحاشي الضربات أكثر، فتوقف في وسط الاسطبل، وقد انعكس على وجهه غيظ واهن مقرز، هو غيظ عاجز، ثم يأس، وأرخی أذنيه، وفجأة فعل شيئاً جعل كل الخيول حوله تخدم فجأة. تقدمت الفرس فيازوربورخا، أكثر الخيول سناً، وتشممت المخصي، وتنهدت وتنهت المخصي أيضاً.

الفصل الخامس

وقف المخصي بقوامه العالي النحيل وسط الباحة، وعليه السرج العالي بعجرة القربوس البارزة. وكانت الخيول تقف حوله جامدة وفي صمت عميق، وكأنما عرفت عنه شيئاً جديداً غير مألوف. وبالفعل عرفت عنه شيئاً غير متوقع. وهذا ما عرفت عنه.

الليلة الأولى

نعم، أنا ابن «مهذب» الأول والقروية. واسمي في شجرة النسب القروي الأول. أنا القروي الأول في شجرة النسب، وسميت بالذراع من قبل الناس في الشارع لخطوي الطويل المتساوق الذي لم يكن له ما يضارعه في روسيا. وليس هناك في العالم حصان أرفع دماً مني من حيث الأصل. وما كنت سأقول لكم هذا. وما حاجتي إلى ذلك؟ فما كان في وسعكم أن تتعرفوا علي أكثر مما تعرفت علي فيازوربورخا، التي كانت تعيش معي في خرينوفويا، ولم تعرفني حتى الآن. وحتى الآن ما كنتم ستصدقون بي، لولا شهادة فيازوربورخا هذه. وما كنت سأقول لكم

هذا أبد الآبدن. ولست بحاجة إلى شفقة الخيول، ولكنكم أردتم ذلك. نعم، أنا الذراع، الذي يبحث عنه هواة الخيول ولا يجدونه، نفس الذراع الذي كان الكونت نفسه يعرفه، وأخرجه من المزرعة عقاباً على إهانته لمحبيته البهجة.

عندما ولدت لم أكن أعرف معنى الأبقع، فقد كنت أنصور أنني حصان وحسب. وأتذكر أن الإشارة الأولى إلى لون ويري صعقتني وصعقت أُمي كثيراً. ولعلي ولدت ليلاً، وعند حلول الصباح وقفت على قوائم، بعد أن لحستني أُمي. أتذكر أنني كنت طوال الوقت أشتهي شيئاً وكل شيء يبدو لي مدهشاً للغاية وبسيطاً للغاية.

كانت مربطنا في ممر طويل دافئ له باب مشبك كان كل شيء يرى من خلاله. كانت أُمي تقرب مني حلمها، ولكنني كنت ساذجاً جداً، فكنت أدس أنفي تحت قائمتيها الأماميتين تارة، وتحت قائمتيها الخلفيتين تارة أخرى. وفجأة نظرت أُمي إلى الباب المشبك، وتحت ناقلة ساقها من فوق. كان السائس النهاري ينظر إلينا في مربطنا عبر التشبيكة.

آه، انظر، القروية أنجبت، قال ذلك وأخذ يفتح المزلاج، وسار على بساط القش الطازج، وطوقني بذراعيه، وصاح:
انظر، يا تاراس، إنه أبقع، كالعقق تماماً.
انتزعت نفسي منه، وكبوت على ركبتي. فقال هذا:
انظر إليه، هذا العفريت الصغير.

قلقت أُمي، ولكنها لم تعزم على الدفاع عني، واكتفت بأن ابتعدت ناحية، بعد أن زفرت زفرة ثقيلة جداً، جاء السواس وأخذوا يتفحصونني.

هرع أحدهم لببليغ مدير الاسطبل. ضحك الجميع، وهم ينظرون إلى شباتي، وأطلقوا علي مختلف الأسماء الغريبة. ولم أكن أنا، ولا حتى أمي، نفهم معاني تلك الكلمات. وإلى ذلك الحين لم يكن بيننا، ولا بين جميع أقاربي، حصان أبقع واحد. وما كنا نتصور أن في ذلك شيئاً قبيحاً. وحتى آنذاك أننى الجميع على تكويني الجسدي وعلى قوتي. كان السانس يقول:

ـ أنظر أية خفة نشطة فيه، لن نستطيع الإمساك به.

وبعد بعض الوقت جاء مدير الاسطبل، وأخذ بيدي دهشته من لوني بل بدا مغموماً أيضاً وقال:

ـ على من طلع هذا الدميم؟ لن يتركه الجنرال في المزرعة الآن. آه، يا قروية، نكت بي، قال ذلك مخاطباً أمي. ـ على الأقل لو ولدت مهرأً أجرد، فإن هذا أبقع تماماً. لم ترد أمي عليه بشيء، وكما هي في مثل هذه الأحوال، زفرت مرة أخرى.

ومضى يقول:

ـ على من طلع هذا الشيطان، قروي تماماً. ولا يجوز إبقاؤه في المزرعة، فذلك عيب. ولكنه حلو، حلو جداً. ـ كان يقول ذلك، وكان الجميع يقولونه، وهم ينظرون إلي. وبعد بضعة أيام جاء الجنرال نفسه ينظر إلي، وإذا بالجميع قد ارتعبوا لسبب ما، وراحوا يكيلون السباب لي ولأمي على لون وبري. وكان كل من رأيي يكرر: «ولكنه حلو، حلو جداً».

وعشنا في اسطبل الأمهار، كل على انفراد، ومع أمه، إلى حين أخذ

الثلج على سطوح الاسطبل يذوب من حرارة الشمس، فقد أخذوا يطلقوننا أحياناً مع أمهاتنا إلى الباحة العريضة المفروشة بالقش الطازج. وفيها عرفت لأول مرة كل أقاربي، الأقربين والأبعدين. وفيها رأيت كل الأفراس الشهيرة في ذلك الحين تخرج مع صغارها من أبواب مختلفة. فكانت بينها العجوز غولانكا، وموشكا ابنة سميتانكا، وكراسنوخا، وفرس الركوب دوبروخوتبخا، وجميع شهيرات ذلك الزمن، كلها كانت تجتمع هناك مع أمهاتها الرضع، وتتمشى في الشمس، وتبختر على القش، وتشم إحداها الأخرى، مثل سائر الخيول البسيطة. وحتى الآن لا أستطيع أن أنسى منظر ذلك الاسطبل المملوء بحسناوات ذلك الزمن. وغريب عليكم أن تتصوروا وتصدقوا بأنني كنت فتياً أيضاً ولعوباً، ولكن هذا ما كان بالفعل. وكانت هناك أيضاً فيازوبوريخا نفسها، حيث كانت حولية آنذاك، فرساً لطيفة مرحة ولعوباً، إلا أنها، وأنا لا أقول ذلك نكاية بها، كانت من بين أسوأ خيول تلك الذرية، رغم أنها تعتبر الآن نادرة بينكم من حيث الأصل. وستؤكد لكم هذه الحقيقة بنفسها.

وبرقشتي التي لم تعجب الناس على هذا النحو، وقعت في نفوس الخيول كلها وقعاً جميلاً للغاية، فأحاطت بي، وراحت تتصلائي وتلعب معي. وقد أخذت أنسى ما يقوله الناس عن برقشتي، وشعرت بالسعادة من نفسي ولكن سرعان ما عرفت أول غم في حياتي، وأمي كانت السبب فيه. حين أخذت الثلوج تذوب، وبدأت العاصفير تترقز تحت الظليلات، وبدأت أنفاس الربيع تضمخ الهواء بقوة أشد، أخذت أمي تتغير في معاملتها لي. تغير خلقها كله. كانت تبدأ باللعب فجأة، وبدون أي سبب، راکضة في الباحة مما لا يناسب أبداً سنّها المعتبرة، أو تستغرق في

التفكير، وتأخذ بالصهيل، أو تعض وترفس أخواتها الأفراس، أو تتشممني، وتنخر مستاءة، أو تضع رأسها على ظهر ابنة خالتها كوتشبخا، حين تخرج للشمس، وتحك لها ظهرها طويلاً، ويسهوم وتدفعني عن ضروعها. وذات مرة جاء مدير الاسطبل، وأمر بأن يوضع عليها الرسن، وأخرجت من المربط. راحت تصهل، فرددت على صهيلها، وانطلقت وراءها، ولكنها لم تتلطف حتى بالالتفات والنظر إلي.

احتضني السائس تاراس، وفي تلك الأثناء أغلقوا الباب على أمي بعد أن أخرجوها. انتزعت نفسي، وأوقعت السائس على القش، ولكن الباب كان مقفلاً، ولم أسمع غير صهيل أمي، وهو يزداد ابتعاداً. ولم أعد أسمع في هذا الصهيل دعوة، بل شيئاً آخر.

ومثلما عرفت فيما بعد رد على صوتها من بعيد صوت جبار، صوت الحصان دوبري الأول الذي كان يسير للقاء أمي الغرامي يكتنفه سائسان من يمين وشمال. أنا لا أتذكر كيف خرج تاراس من مربطي، فقد غرقت في حزن عميق. وأحسست بأنني فقدت حنان أمي إلى الأبد. وكل ذلك لأنني أبقع، فكرت بذلك، وأنا أتذكر كلام الناس عن وبري، ومملكتني قوة شريرة، حتى أخذت أضرب حيطان المربط برأسي وركبتي، ورحت أضرب حتى تسربت بالعرق، وأصابني الانهاك.

بعد بعض الوقت عادت أمي إلي. سمعتها ترقل بخطو دائب عبر الممر إلى مربطنا. فتحوا لها الباب، ولم أعرفها، من كثر ما احلوت وارتد إليها شبابها. تشممتني، ونخرت، وأخذت تصهل. ورأيت بكل ما ارتسم عليها أنها لا تحبني. راحت تحكي لي عن جمال دوبري، وحبها له. واستمرت هذه اللقاءات الغرامية، وصارت علاقاتي مع أمي أكثر برودة فأكثر.

وبعد قليل أطلقونا للرعي. ومنذ ذلك الحين عرفت مسرات جديدة عوضتني عن فقدان حب أمي. وكانت لي صويحبات وأصحاب، تعلمنا سوية كيف نعلف العشب، ونسهل كما يسهل الكبار، وندور حول أمهاتنا رافعين ذيولنا. لقد كانت تلك فترة سعيدة في حياتي. غفروا لي كل شيء، وأحبوني وقللوا بي، ونظروا بتلطف إلى كل ما فعلته. ولم يستمر ذلك طويلاً. بعد قليل حصل لي شيء مرعب. - وتنهد المخصي تنهيدة ثقيلة جداً، وانصرف مبتعداً عن الخيول.

كان الفجر قد طلع منذ وقت طويل. وصرفت البوابة، ودخل نيستر. وتفرقت الخيول، وعدل الراعي السرج على المخصي، وخرج بالرعي.

الفصل السادس

الليلة الثانية

وما إن أعيدت الخيول إلى مرابطها حتى تحلقت حول الأبقع من جديد. ومضى الأبقع يقول:

- في شهر آب فصلوني عن أمي. ولم أشعر بحزن شديد. فقد رأيت أنها حامل بأخي الأصغر المعروف باسم أوسان، ولم أعد كما كنت من قبل. لم أكن أغار، ولكنني شعرت ببرودة نحوها. وفضلاً عن ذلك كنت أعرف أنني، بعد أن أفارق أمي، أدخل في القسم العام للأمهارة، حيث كنا نقف مشنئاً أو ثلاث، وفي كل يوم نخرج إلى الهواء الطلق في مجموعة من الشبيبة. وكنت أشارك «المحبوب» في مريط واحد. وكان المحبوب فرس ركوب استخدمه الامبراطور نفسه لركوبه فيما بعد، وقد صوروه في اللوحات والتماثيل. وأتذكّر أن كان مهراً بسيطاً بوبر لامع

ناعم، وعنق كعنق البجعة، وقوائم مستقيمة نحيلة كالأوتار. كان مرحاً دائماً، طيب النفس، لطيفاً، وكان مستعداً دائماً إلى أن يلعب ويلعب ويمزح الخيول أو الناس. وتصادقنا بشكل لا إرادي، ونحن نعيش سوية، واستمرت هذه الصداقة طوال شبابتنا. كان بهيجاً، ولعوباً. وكان في ذلك الحين قد بدأ يحب، ويعايب الأفراس ويضحك من سذاجتي. ومن سوء حظي أنني أخذت أحاكبه بسبب من عزة النفس، وسرعان ما انغمرت بالحب. وهواي المبكر هذا كان السبب في التغير العظيم في مصيري. فقد شاء القدر أن انجذب بهذا الشكل.

كانت فيازوربورخا أكبر مني بسنة واحدة، وكنت معها على علاقة ودية بشكل خاص، ولكنني في أواخر الخريف لاحظت أنها أخذت تنفر مني... لا أريد أن أتحدث عن مجمل القصة البائسة لحبي الأول، وهي نفسها تتذكر هواي الجارف الذي انتهى بالنسبة لي بأهم تغير في حياتي. انطلق الرعاة يصرفونها عني، ويضربونني. وفي المساء ساقوني إلى مربيث انفرادي، فأخذت أصهل طوال الليل، وكأنني أتوجس أحداث الغد.

في الصباح جاء الجنرال ومدير الاسطبل، والسواس والرعاة إلى مربيثي، وبدأ صراخ رهيب. صرخ الجنرال على مدير الاسطبل، ومدير الاسطبل يتعذر بأنه لم يأمر بإطلاقي، وأن العمل قام به السواس من تلقاء أنفسهم. قال الجنرال إنه سيجلد الجميع، كما لا يجوز إبقاؤه فحلاً. ووعد السواس بتنفيذ كل شيء.

وهذا، وانصرفوا. ولم أكن أفهم شيئاً، ولكنني عرفت أنهم أضرموا لي شيئاً.

وفي اليوم الذي تلا ذلك كففت عن الصهيل إلى الأبد. وصرت كما أنا الآن. وتغيرت الدنيا كلها في نظري. ولم يعز علي أي شيء، وتعمقت في نفسي، وغرقت في التأملات. في البداية فتر حماسي لكل شيء. بل وامتنعت عن الشراب والطعام والسير، وناهيك عن اللعب. وأحياناً كان يعن لي أن أقفز، وأترب، وأصهل قليلاً، ولكن سرعان ما أطرح على نفسي هذا السؤال الرهيب: ولم؟ ولأي شيء؟ فتنهار قواي الأخيرة.

ذات مرة أخرجوني للتمشي مساءً، حين كان الرعيل يعود من الحقل. ومن مسافة بعيدة رأيت سحابة الغبار، تغطي الملامح الأليفة المغبشة لجميع أمهاتنا الأفراس. ورحت أسمع صهيلها المرح وكركتها. توقفت، رغم أن جبل الرسن الذي كان السانس يسحبني به كان يحز في علبائي، وأخذت أنظر إلى الرعيل المقرب مثلما ينظر الناس إلى سعادة فقدوها إلى الأبد ويدون رجعة. صارت الأفراس تقترب، وأتبين كل الشخص المألوفة إلي، الجميلة، الضخمة، المعافاة الشبعانة واحدة واحدة. والتفت إلي بعضها أيضاً. ولم أعد أشعر بالألم من جذب السانس للرسن. ونسيت نفسي، وأخذت أصهل لا إرادياً، وحسب العادة القديمة، وانطلقت أعدو، ولكن صهيلي طلع حزناً مضحكاً وسخيفاً. لم يضحك من في الرعيل، ولكنني لاحظت أن الكثيرين من أفرادهم أشاحوا وجوههم عني حشمة. والظاهر أنهم شعروا بالتقرز، والإشفاق، والخجل، والضحك مني. وهذا الأهم. ضحكوا من رقبتي النحيلة الشوها، ومن رأسي الكبير (كنت قد نحلت في ذلك الوقت) ومن قوائمي الطويلة الخرقاء، ومن الطريقة الحمقاء التي عدوت بها، العدو الذي ألفتته، وأنا

أطوف حول السائس في الزمن القديم. ولم يرد أحد على صهيلي، واستدار الجميع عني. ووعيت كل شيء فجأة، وعيت إلى أي حد صرت بعيبداً، عنهم، وإلى الأبد، ولا أتذكر كيف وصلت إلى البيت وراء السائس.

كنت من قبل أيضاً أظهر ميلاً إلى الجدية والتأمل العميق، والآن حصل معي تحول حاسم. فقد حملتني إلى التعمق في نفسي برقشتي التي أثارت ازدراء غريباً في نفوس الناس، وسوء حظي الغريب غير المتوقع، ووضعني الخاص في المزرعة، ذلك الوضع الذي كنت أشعر به، ولا أستطيع توضيحه قط. أخذت أتأمل في ظلم الناس الذين أدانوني لأنني ابقع، وأفكر في هشاشة الحب الأمومي، والحب النسائي بشكل عام، واعتماده على الشروط الجسدية، والأهم أنني رحت أفكر في خصائص ذلك النسل الغريب من الحيوانات التي ارتبطنا بها هذا الارتباط الوثيق، والتي يطلق عليها اسم «البشر»، تلك الخصائص التي نشأت عنها خصوصية وضعي في المزرعة، والتي كنت أحس بها، ولا أستطيع إدراكها. وقد كشف لي الحادث التالي معنى هذه الخصوصية والطبائع البشرية التي أقيمت عليها.

حدث ذلك شتاء، أثناء الأعياد. لم يقدموا لي علفاً طوال اليوم، ولم يسقوني. لأن السائس كان سكراناً، كما عرفت فيما بعد. وفي ذلك اليوم دخل مدير الاسطبل علي، ولم يجد علفاً حولي، وأخذ يشتم السائس بأقذع الشتائم وكان السائس غائباً، ثم انصرف المدير.

وفي اليوم التالي دخل السائس مع رفيق آخر إلى مريطنا، وقدم لنا العلف، وقد لاحظت أنه كان ممتنع الوجه بشكل مخصوص وحزيناً. وكان

ظهره الطويل على وجه الخصوص، يعكس شيئاً ذا دلالة ومثيراً للعطف.
ألقى العلف وراءه المشبك في غضب؛ مددت رأسي عبر كتفه، ولكنه
ضربني على أسفل بوزي بقبضته ضربة موجعة جعلتني أثب مبتعداً عنه.
ثم تنهأ بضربة أخرى على بطني بحذائه وقال:
- ما كان سيحدث شيئاً لولا هذا المقرح.

فسأل السانس الآخر:

- وماذا في الأمر؟

- أعتقد أنه لا يريد أن يتفقد أفراس الكونت، ولكنه يتفقد مهره

«هو» مرتين في اليوم.

سأل الآخر:

- وهل أعطوه الأبقع؟

- باعوه أو أهدوه، الشيطان يعرف. لا يهمه لو ماتت جميع أفراس

الكونت جوعاً، ولكن كيف تجسر فلا تقدم العلف لمهره.

يقول «استلق» وينزل عليك بالجلد. بلا رافة. يشفق على الدابة

أكثر مما يشفق على إنسان. ولا يعرف المسيح، على ما يظهر، كان هذا

الهمجي يعد الجلدات بنفسه. الجنرال لم يجلد مثله. حز ظهري كله

بالسياط، بلا خلق مسيحي، في الظاهر.

لقد فهمت جيداً أنهما كانا يتحدثان عن الجلد والروح المسيحية،

ولكنني آنذاك كنت أجهل تماماً معنى تعبير «مهره» الذي عرفت منه أن

الناس كانوا يفترضون وجود علاقة بيني، وبين مدير الاسطبل. ولم

أستطع أن أفهم آنذاك ما هي هذه العلاقة.

وبعد ذلك بوقت طويل، حين فصلوني عن الخيول الأخرى، فهمت ما

معنى أن يصفوني بملك لإنسان. فقد بدت لي كلمة «حصاني» التي تعينني كحصان حي، غريبة مثل كلمة أرضي، وهوائي، ومائي.

ولكن هذه الكلمات كان لها تأثير هائل في نفسي. فقد كنت أفكر في ذلك بلا انقطاع، وليس إلا بعد وقت طويل من العلاقات المختلفة مع الناس فهمت أخيراً المعنى الذي يعنيه الناس بهذه الكلمات الغريبة. والمعنى كالآتي: الناس يهتدون في الحياة بالأقوال لا بالأفعال. إنهم لا يحبون القدرة على أن يفعلوا ولا يفعلوا شيئاً من الأشياء، بقدر ما يحبون القدرة على التحدث بكلمات متداولة بينهم عن أشياء مختلفة. ومن الكلمات التي يعتبرونها مهمة جداً بينهم ما يتعلق بضمان الملكية المطبقة على مختلف الأشياء والمخلوقات والأغراض، حتى حين يتحدثون عن الأرض، والناس، والخيول. لقد اتفقوا فيما بينهم على أن يكون لواحد منهم فقط الحق في أن يقول عن أحد الأشياء إن هذا «لي».

ويعتبرون أسعد الناس فيهم من يستطيع أن يقول عن أكبر عدد من الأشياء إن هذه «لي»، حسب هذه اللعبة المتفق عليها بينهم. وأنا لا أعرف لم هذا، ولكن هذا هو الجاري بينهم. لقد حاولت طويلاً ومن قبل أيضاً، أن أستوضح لنفسي فائدة مباشرة من ذلك، ولكنني وجدت ذلك منافعاً للحقيقة.

إن الكثيرين من أولئك الذين سموني حصانهم، على سبيل المثال، لم يركبوني، ولكن الذي ركبني أناس آخرون. كما أنهم لم يطعموني، بل أطعمني آخرون مختلفون تماماً. والذين فعلوا لي خيراً ليس هم الذين كانوا يسموني حصانهم، بل الحوذية والبياطرة، والغرباء بشكل عام. وفيما بعد، بعد أن وسعت نطاق ملاحظاتي، اقتنعت بأن مفهوم هذا

«لي» وهذا «لك» الذي لا يطبق علينا، نحن الخيول، فقط لا يقوم على أساس غير غريزة الناس الحيوانية الوضيعة التي سموها الشعور أو حق الملكية. يقول الإنسان: «هذا بيتي» ولا يعيش فيه أبداً، ويهتم فقط في بناء البيت وصيانتته ويقول التاجر «هذا دكاني». «هذا دكاني للأجواخ»، مثلاً، وهو لا يضع على نفسه ثياباً من أحسن الأجواخ التي يحفظها في دكانه. وهناك أناس يسمون الأرض أرضي، وهم لم يروا تلك الأرض أبداً، ولا مروا بها قط. وهناك أناس يقولون عن أناس آخرين بأنهم تابع لهم، بينما هم لم يروا أولئك الناس، وكل ملاقاتهم مع هؤلاء الناس لا تتعدى إنزال الضرر بهم. وهناك أناس يسمون نساء بأنهن نساؤهم أو زوجاتهم. بينما هؤلاء النسوة يعيشن مع رجال آخرين. إن الناس لا يسعون في الحياة إلى أن يفعلوا ما يعتبرونه خيراً، بل إلى أن يسموا أكثر ما يمكن من الأشياء بأنهم أشياء «هم». وأنا موقن الآن أن هذا هو الفارق الجوهرى الذي يفصل الناس عنا. ولهذا نستطيع أن نقول بجرأة من هذه الناحية وحدها، ناهيك عن مزايانا الأخرى التي تفضلنا عن الناس، بأننا نقف على سلم المخلوقات الحية في مرتبة أعلى من الناس؛ فإن نشاط الناس، وعلى الأقل أولئك الذين كنت على علاقة معهم، توجهه الكلمات، بينما العمل يوجه نشاطنا. وقد حصل مدير الاسطبل على هذا الحق في أن يسميني حصاناً «ه» ومن جراء هذا الحق جلد السائس. وقد أذهلني هذا الاكتشاف بشدة، وهو، بالإضافة إلى الأفكار والأحكام التي أثارها لوني الأبقع في الناس، وما تركته خيانة أُمي من تأمل عميق في نفسي، جعلني أصير ذلك المخصي الجاد والعميق التفكير الذي هو أنا الآن.

لقد كنت سيئ الطالع ثلاثاً. فقد كنت أبقع، وكنت مخصياً.
وكان الناس لا يتصوروني ملك الرب، وملك نفسي، مثل أي كائن
حي، بل ملك مدير الاسطبل.

وقد نجم عن هذا التصور عني أشياء كثيرة. أولها أنهم احتفظوا بي
على انفراد، وأطعموني أفضل، وربوني أكثر، ووضعوا اللجام علي في
وقت أبكر. وضعوا اللجام علي لأول مرة وأنا في العام الثالث من
عمري. وأتذكر في المرة الأولى كيف أن مدير الاسطبل نفسه، ذلك الذي
كان يتصورني ملكاً له، أخذ بضع عدة الحصان علي مع جمهرة من
السواس منتظرين مني خفة وإزواراً.

وشرطوا شفتي وشدوني بالحبال، وحصروني بين عريشين، ووضعوا
على ظهري سيراً عريضاً متصالباً، وربطوه بالعريشين، حتى لا أرفس
برجلي الخلفيين، بينما كنت أتحين الفرصة فقط لأظهر رغبتني وحيي
للعمل.

واندهشوا من أنني سرت كحصان محنك. وأخذوا يسوسونني وصرت
أتدرب على العدو السريع. ومع كل يوم كنت أقوم بنجاحات كبيرة وكبيرة،
حتى إن الجنرال نفسه بعد ثلاثة أشهر وآخرين كثيرين أثنوا على سيرتي.
ولكن الغريب في الأمر أن سيرتي اتخذ عندهم معنى آخر، لا لشيء إلا
لأنهم لم يتصوروني حصانهم بل حصان مدير الاسطبل.

أما أخوتي الفحول، فكانوا يدرّبونها على العدو ويقبسون سرعتها،
ويخرجون للتفرج عليها، ويشدونها إلى العجلات المذهبة، ويلقون على
ظهورها البرادع الغالية. وكنت أجز عجلة مدير الاسطبل البسيطة لقضاء
شؤونه في تشيسمينكا، والقرى الأخرى.

وكل ذلك لأنني أبقع، والأهم لأنني لم أكن، حسب رأيهم، من
أفراس الكونت، بل ملكاً لمدير الاسطبل.
غداً إذا بقينا أحياء، سأحدثكم عن الأثر الذي خلفه في حق الملكية
هذا الذي أعطاه مدير الاسطبل لنفسه.
طوال ذلك اليوم عاملت الخيول الذراع باحترام. ولكن معاملة نيستر
بقيت فظة، كما كانت. تقدم حصان الفلاح الرمادي من الرعيل، وأخذ
بصهل، وعادت الفرس البنية إلى غنجها.

الفصل السابع

الليلة الثالثة

طلع الهلال كالمنجل النحيل، وأضاء قوام الذراع الواقف وسط
الفناء. وكانت الخيول تتجمهر حوله.
ومضى الأبقع يقول:

وكانت العاقبة الرئيسية المدهشة بالنسبة لي باعتباري ملكاً لمدير
الاسطبل وليس لله ولا للكونت، هي أن مشيتي السبطة التي هي منقبتنا
الأساسية، نحن الخيول، صارت سبباً لطردي. أخذوا يركبون البجعة
للتدريب في الحلبة، بينما ركبني مدير الاسطبل من تشبسينكا، ووقف
عند الحلبة. مرت البجعة بنا. كانت تسير سيراً حسناً، ولكنها كانت
تسبختر، على أية حال، وتفتقر إلى الحذاقة التي طورتها في نفسي
وتتمثل في أن يمس حافري الأرض في اللحظة التي يرتفع فيها الحافر
الآخر دون تضبيب أقل جهد جزافاً، وتوفير كل جهد للاندفاع إلى الأمام.
مرت البجعة بنا. صبوت إلى الحلبة، ولم يعني مدير الاسطبل من ذلك.

وصاح «ماذا لو يجرب حصاني الأبقع؟»، وحين حاذتنا البجعة للمرة الثانية تركني أذهب. وكانت البجعة قد أخذت المضمار في السرعة، ولهذا تأخرت عنها في الدورة الأولى، ولكنني في الدورة الثانية أخذت أضيق المسافة، وأقترب من العجلة، وصرت أحاذيها، وأسبقها حتى سبقتها. أعادوا المحاولة، وإذا بالنتيجة نفسها. كنت أسرع منها. فتملك الجميع الرعب. فقررروا أن يبيعوني إلى أبعد مشتر، حتى لا يسمعوا خيراً عني. وكانوا يقولون: «مصيبه لو يعرف الكونت». وياعوني إلى تاجر الخيول كحصان رئيسي في الجر. مكثت عند تاجر الخيول أسبوعاً. بعده اشترائني ضابط فرسان جاء لشراء الخيول لوحده. وكل ذلك كان من الغبن والقسوة، بحيث سررت حين أخرجوني من خرينوفيا، وفرقوني إلى الأبد عن كل أقاربي وأحبائي. فقد كان العيش بينهم يرهقني كثيراً. لقد كان لهم الحب والاحترام والحرية، ولي العمل والإذلال، الإذلال والعمل إلى آخر حياتي! ولأي شيء؟ لأنني كنت أبقع، ويسبب ذلك كان علي أن أكون ملكاً لأحد.

لم يتمكن الذراع من الاستمرار في الحديث في ذلك المساء. فقد وقع في الاسطبل حادث أوقع الفزع الشديد في الخيول كلها. كانت كويتشيخا الفرس الحبلى التي لم تلد بعد تصغي إلى القصة في البداية، وإذا بها تستدير فجأة، وتنصرف إلى تحت السقيفة، ومن هناك أخذت تولول ولولة عالية لفتت انتباه جميع الخيول، وبعد ذلك انطرحت، ثم نهضت ثانية، وعادت فانطرحت. وفهمت الأمهات الكبيرات ما بها، ولكن الخيول الشابة قلقن، وتركت المخصي، وأحاطن بالعليلة. وعند الصباح ولد مهر جديد كان يتمايل على قوائمه. صاح نيبستر على مدير

الاسطبل، وسبقت الفرس ومولودها إلى مريط، وخرجت الخيول إلى المرعى بدونها.

الفصل الثامن

الليلة الرابعة

في المساء، حين أغلقت البوابة، وهذا كل شيء، تابع الأبقع حديثه قائلاً:

- استطعت أن أجمع الكثير من الملاحظات حول الناس والخيول، أثناء كل تنقلاتي من أيد إلى أخرى. وأطول مدة قضيتها هي عند مالكين لي أحدهما أمير هو ضابط فرسان، والثاني امرأة عجوز قرب كنيسة القديس نيكولا صانع المعجزات*.

قضيت عند ضابط الفرسان أحسن فترة في حياتي. ورغم أنه كان سبباً في تهلكتي، ورغم أنه لم يكن يحب أحداً من الناس ولا غير الناس، إلا أنني كنت أحبه لهذا السبب بالذات، وما أعجبني منه بالذات كونه جميلاً، سعيداً، غنياً، ولهذا لم يحب أحداً. أنتم تفهمون هذه العاطفة الرفيعة عندنا، نحن الخيول. لقد كانت برودته، وقسوته، واعتمادي عليه تعطي قوة خاصة لحبي نحوه. وكنت أفكر في أيامنا السعيدة تلك: «اقتلني، اركبني قدر ما تشاء، فإني سأكون أسعد حالاً».

وكان قد اشترايني من بائع الخيول الذي باعني مدير الاسطبل له لقاء ثمانمائة روبل. وقد اشترايني لأن ما من أحد كان يملك حصاناً أبقع. وكان

* كنيسة بهذا الاسم في مونكو في شارع أرباط . الناشر .

ذلك أحسن فترة في حياتي. وكانت لضابط الفرسان عشيقة. وقد عرفت ذلك لأنني كنت أحمله إليها كل يوم، وأحملها، وأحياناً كنت أحملها سوية. وكانت عشيقته جميلة، وهو أيضاً كان وسيماً، وحوزيه كان وسيماً. وقد أحببتهم جميعاً على جمالهم. وكنت ألتذ في حياتي. وكانت حياتي تسير على المنوال التالي: في الصباح يأتي السائس لينظفني، لا يأتي الحوذي نفسه، بل السائس. وكان السائس فتى حيوياً أخذ من الفلاحين. وكان يفتح الباب، ويترك بخار الحبول يخرج، ويرفع الروث، ويخلع البرادع، ويأخذ بقشط جسدي بالمحسة، ويترك القشور تسقط في صفوف بيضاء على قش الأرضية المحفورة المثلمة وكنت أعض رذنه مزاحاً، وأضرب بحافري. ثم كانوا يأخذوننا واحداً بعد الآخر إلى صهريج الماء البارد، ويتمعن الفتى بحافري العريض، وفي كفلي اللامع وظهري المستقيم كالفراش. وكانوا يضعون الدريس وراء المشبكات العالية، ويصبون الشوفان في مزاود بلوطية. وبعد ذلك كان يأتي فيوفان رئيس الحوذية.

كان المالك والحوذي متشابهين. فهذا وذاك لم يكونا بخشيان شيئاً، ولا يحبان أحداً ما عدا نفسيهما، وعلى ذلك كان الجميع يحبونهما. كان فيوفان يرتدي قميصاً أحمر وسروالاً من الحمل القطني الرخيص الأسود، وقفطاناً داخلياً قصيراً بلا أكمام. وكنت أحبه حين كان يأتي إلى الاسطبل في العيد بقفطانه ذاك مدهون الشعر بمرهم عطري، ويصيح: «أها، يا حيوان، نسيتني!» ويوخز فخذي بمقبض المذراة، ولكن دون أن يؤلمني قط، بل لمجرد المزاح. وكنت أفهم المزحة فوراً، وأرخي أذني، وأطقطق بأسناني.

كان عندنا فعل أسحم يعمل مع حصان آخر. وكانوا يشدونني معه إلى عربة في الليالي. كان «بولكان» هذا لا يحب النكات، وكان شيطاناً غضوباً تماماً. كنت أقف إلى جانبه في المربط المجاور، وأخذنا بعض الآخر عن جد، وليس عن مزاح. وكان فيوفان لا يهابه.

فكان أحياناً يتقدم منه تماماً، ويصيح، وكأنما سيفقله، ولكنه يمر به، ويعود ليلبسه الرسن. وذات مرة انطلقت أعدو معه إلى الأسفل في شارع كوزنيتسكي موس. لم يرتعب مالكننا ولا الحوذي، وراح كلاهما يضحك، ويصيح بالناس ويكبحنا، ويستدير فلم يصب أحد.

لقد ضيعت في خدمتهم أفضل صفاتي، ونصف عمري. فقد تركوني أشرب كثيراً وأتلفوا قوائمي. ومع ذلك، فقد كان ذلك أفضل فترة في حياتي. وفي الساعة الثانية عشرة كانوا يأتون، ويشدونني، ويدهنون حوافري، ويبللون ناصيتي وعرفي، ويضعونني بين العريشين.

كانت الزلاجة من القصب المضفور المذبح بالمخمل، والعدة ذات أبازيم فضية صغيرة، والأعنة حريرية وكذلك الشبكة وكانت العدة محكمة بحيث إذا ربطت كل السيور والأحزمة وشبكت لا تستطيع أن تبين أين تنتهي العدة، وأين يبدأ الحصان. وغالباً ما يشدون العدة في السقيفة. وكان فيوفان وكشفاه أعرض من الخلف، ونطاقه تحت إبطيه، يتقدم ويتفقد العدة، ويركب، يعدل قفطانه، يضع قدميه في الركاب، ويمزج بشيء على عادته دائماً، ويعلق السوط الذي لا يكاد يسوطني به للمظهر فقط، ويقول: «انطلق»، وأغادر البوابة، متفنناً بكل خطوة، فتتوقف الطباخة على العتبة، وقد خرجت لتسكب ماء الغسيل، ويحملق الرفيون الذين كانوا يجلبون الحطب إلى الفناء. ونخرج. ونمر بهم، ونتوقف.

ويخرج الخدم، ويقترب الحوذية، وتجري الأحاديث. وننتظر جميعاً، ثلاث ساعات أحياناً واقفين عند المدخل، وأحياناً نروح ونجبي،، ونتوقف ثانية.

وأخيراً تحدث ضجة عند الباب، ويأتي تيسخون الأشيب الأكرش راكضاً في سترته الفراك: «قدم العربة!». في تلك الأوقات لم تكن هذه الطريقة الحمقاء في حث الحصان: «إلى الأمام»، وكأنني لا أعرف أن العربة تسير إلى الأمام، وليس إلى الخلف. ويتمطق فيوفان. ويقترب، ويخرج عجولاً متهاوناً، وكأنما لا شيء، يشير الدهشة لا في هذه الزلاجة، ولا في الحصان، ولا في فيوفان الذي يحني ظهره، ويمد ذراعيه بشكل يجعلك تظن أن من المستحيل أن يظل على هذا الوضع وقتاً طويلاً، ويخرج الأمير في قبعة عسكرية، ومعطف ذي ياقة رمادية من فراء السمور، يحجب وجهه المتورد الجميل الأسود الحاجبين، وهو في غنى عن حجه. يخرج مصلصلاً بسيفه ومهمازيه، وكعبيه النحاسيين، يطاء البساط كالمستعجل، ودون أن يلتفت إلي ولا إلى فيوفان مخالفاً بذلك جميع الناس الذين لا يكفون عن النظر والاستمتاع به ويصدر فيوفان مطقة بلسانه، فأسحب الأعنة، وأسير في خطى رصينة ونتوقف. وألقي نظرة جانبية على الأمير، وأهز رأسي الأصيل بناصيته الناعمة. والأمير رائق المزاج، يمزج مع فيوفان، وفيوفان يرد عليه ميملاً رأسه الجميل قليلاً، ويحرك العنان دون أن يخفض يديه، حركة لا تكاد تلاحظ، أفهمها أنا، فأخب موسعاً خطاي، وكل عضلة تنبض في، فاذفاً الثلج المرحل من تحت حوافري إلى مقدمة الزلاجة. في تلك الأوقات أيضاً لم تكن هناك تلك الصيحة البلهاء «ايخ!» وكان الحوذني يعلن بها عن شيء بوجهه، بل كان

هناك شيء آخر غير مفهوم هو «احترس!» وفيوفان يصرخ به «احترس» هذه، والناس يتنحون، ويتوقفون، ويميلون برقابهم لينظروا إلى المخصي الجميل، والحوذي الجميل، والسيد الجميل.

كنت أحب أن أسبق العداء من الخيول. فحين تبصر - فيوفان وأنا - عربة بعيدة تستحق منا بذل الجهد، نأخذ بالتسابق في انطلاقة العاصفة، ونأخذ بالاقتراب أكثر فأكثر، حتى يصيب رشاش الوحل ظهر الزلاجة، وأحاذي الراكب فيها، وأسهل فوق رأسه، وأصاقب وسط الحصان، والقوس، ثم أخلفه ورائي فلا أبصره، بل أسمع صوته المتناثري عنه. وجميعنا صامتون: الأمير وفيوفان وأنا، نتظاهر بأننا سائرون في شؤوننا غير ملتفتين إلى من يصادفنا من المستقلين عربات تجرها خيول رديئة. لقد كنت أحب التسابق، ولكنني كنت أحب أيضاً أن ألتقي بعداء جيد قادم من الجهة المقابلة فما هي إلا لحظة وصوت ونظرة، نفرق بعدها، ثم نعود إلى السير وحيدين، كل إلى وجهته.

صرفت البوابة، وتردد صوت نيستر وفاسكا.

الليلة الخامسة

أخذ الطقس يتغير. السماء مليدة منذ الصباح، ولا قطرة ندى، ولكن الجو دافئ، والبعوض بضائق. وما إن عاد الرعيل إلى مرابطته حتى تحلق حول الأبقع، فأنهى هذا قصته على هذا النحو:

انتهت حياتي السعيدة سريعاً، ولم تستمر غير عامين. وفي نهاية الشتاء الثاني وقع أبهج حدث بالنسبة لي، أعقبه أكبر فاجعة حلت بي. وكان ذلك في أيام المرافع، حين حملت الأمير للسباق الذي جاء أطلس

وبيتشوك للاشتراك فيه. أنا لا أعرف ماذا فعل الأمير أثناء وجوده في التعريشة، ولكنني أعرف أنه خرج منها، وأمر فيوفان بأن يأخذني إلى الحلبة. أتذكر أنهم أنزلوني إلى الحلبة. وأنزلوا أطلس أيضاً. وكان أطلس مربوطاً إلى عجلة خفيفة، وأنا إلى زلاجة المدينة، كما كنت. تخطيته في المنعطف، فاستقبلت بالضحك وهدير الانشراح.

وحين أخرجوني من الحلبة سار وراني حشد من الناس، وعرض خمسة أشخاص ألوف الرويلات على الأمير. فاكتمنى هذا بالابتسام كاشفاً عن أسنانه البيضاء.

وكان يقول:

ليس هذا حصاناً، بل صديق، لن أبادله بتل من الذهب. إلى اللقاء، يا سادة.

وأزاح غطاء الزلاجة وجلس فيها.

إلى ستوجينكا*.

وكان منزل عشيقته يقع هناك. فانطلقنا إليه. وكان ذلك يومنا السعيد الأخير.

وصلنا إليها. كان يقول إنها لي. ولكنها أحبت رجلاً آخر، ورحلت معه. وقد عرف ذلك لدى وصوله إلى منزلها. كانت الساعة تشير إلى الخامسة، ولكنه لم يفكني من الزلاجة، وانطلق بي يلاحقها. وحدث ما لم يحدث من قبل، إذ أخذوا يسوطونني، ويحشونني على العدو. وتعشرت لأول مرة، فخجلت من نفسي، وأردت أن أكفر عن زلتي، إلا أنني سمعت الأمير يصرخ فجأة بأعلى صوته: «اسرع!»، وهز السوط في

* أو «أوستوجينكا». تسمية قديمة لأحد شوارع موسكو. الناشر.

الهواء، وساطني، فانطلقت أعدو ضارباً رجلي بحديدة المقدمة. ولحقنا بها بعد خمسة وعشرين فرسخاً. أوصلته إليها، ولكنني ظلمت أرتعش طوال الليل، ولم أستطع أن أكل شيئاً. وفي صباح اليوم التالي قدموا لي الماء. شربت، ومنذ ذلك الحين لم أعد ذلك الحصان الذي كنته وإلى الأبد. مرضت، فعذبوني وعقروني - أو على حد تعبير الناس: عالجوني. ارتخت حوافري، وأصابتها القرحة، وتقوست قوائمي، وانخسف صدري، ودب الوهن والضعف في كل جسمي. فباعوني إلى تاجر خيول. فكان هذا يطعمني الجزر، وطعاماً آخر، وجعل مني مخلوقاً لا يشبهني تماماً، إلا أن الجاهل في الخيول يمكن أن ينخدع به. ولكنني لم أعد أقوى على شيء، ولا أقدر على الجري. وفضلاً عن ذلك أخذ تاجر الخيول هذا يعذبني بالدخول إلى مربطي حالماً بأنني راغب في شرائي، ويضربني بالسوط لتخويفي، حتى جن جنوني. وبعد ذلك كان يمسح آثار السياط عني، ويخرج بي. اشترتني امرأة عجوز من تاجر الخيول هذا.

فظلت تسير بي إلى كنيسة القديس نيكولا صانع المعجزات، وتضرب حوذيتها بالسوط. فكان الحوذي يبكي في مربطي. وعند ذلك عرفت أن للدموع مذاقاً مالحاً لطيفاً. ثم توفيت العجوز. فأخذني وكيل أعمالها إلى القرية، وباعني إلى صاحب حانوت، وبعد ذلك أكثرت من أكل القمح فتفاقم دائي. فباعوني إلى فلاح. أخذت أحرق له. ولا أكاد أتناول شيئاً من الطعام، وأضرت سكاكين المحراث بقدمي. فعادوني المرض. فقايضني مع عجري. وعذبني عذاباً مريراً وأخيراً باعني إلى الوكيل الحالي. وها أنا هنا.

الفصل التاسع

في مساء اليوم التالي حين كان الرعيل عائداً إلى مرابطه التقى بمالك الخيول ومعه ضيف. وبينما كانت جولديا تقترب من البيت رمقت بمؤخر عينها شخصين أحدهما المالك الشاب بقبعته القشبية، والثاني عسكري طويل القامة بدين مترهل. رمقت الفرس العجوز هذين الشخصين، ومرت سائرة على مقربة. أما الخيول الأخرى، الشابة، فقد ارتبكت، واضطربت، لا سيما حين دخل المالك وضيفه بينها عن قصد. وراحا يتحدثان وأحدهما يشير بشيء إلى الآخر.

كان مالك الخيول يقول:

. اشتريت هذا الحصان الرمادي الأرقط من فوبيكوف.

وكان الضيف يسأل:

. لمن هذا الحصان الأسحم الفتى الأبيض القوائم؟ إنه حصان جميل.

وتفقدوا خيولاً كثيرة، راكضين وراءها، موقوفين إياها. كما وقع

اختيارهما على المهر البني. قال المالك:

. لقد بقي هذا من نسل خرينوفويا لخيول الركوب.

لم يستطع الرجلان تفقد كل الخيول، أثناء سيرها. صاح المالك

ينادي نيستر، فجاء العجوز هذا يرقل على الحصان الأبقع واخراً جنبه

بكمبيه. راح الأبقع يرقل برجل واحدة، باذلاً قصارى جهده، فبدا واضحاً

أنه لن يتردد في العدو إلى آخر الدنيا قدر ما تسعفه قواه. بل وكان

مستعداً لأن يرقل، ويجهز على قدمه اليمنى.

. أنجراً على الفول إن هذا المهر أفضل حصان في روسيا. قال

المالك مشيراً إلى أحد الأمهار. وأبدى الضيف إعجابه. كان المالك يسير

هنا وهناك منفعلاً، ويركض، ويشير ويتحدث عن تاريخ ونسل كل حصان. والظاهر أن الضيف ضجر من الاستماع إلى مالك الخيول، فكان يخلق الأسئلة ليظهر بمظهر المهتم بذلك. كان يردد ساهماً:

نعم، نعم.

وكان المالك يقول دون أن يرد على أسئلته:

أنظر، أنظر إلى هذه القوائم... كلفتني ثمناً باهظاً، ولكنها ولدت للمرة الثالثة حصاناً عداً.

قال الضيف:

يعدو جيداً؟

وعلى هذا المتوال تفقد الرجلان جميع الخيول تقريباً، ولم يبق شيء. يشاهدانه. فسكتا.

طيب، هل نذهب؟

لنذهب. وسارا في البوابة. وكان الضيف مسروراً بانتهاء العرض، والذهاب إلى البيت، حيث كان من الممكن أن يأكل ويشرب ويدخن، وبدا عليه الانشراح. وحين مر الضيف بنيسر الذي كان راكباً على صهوة الأبقع منتظراً الأوامر، ريت بيده الكبيرة الممتلئة على كفل الأبقع وقال:

يا له من مزركش! كان لي حصان أبقع مثله. لقد حدثتك عنه. أنت تذكر.

ولم يول المالك أذناً لمحدثه، وهو يذكر حصاناً آخر وراح يتفقد خيوله منقلاً بصره بينها.

وفجأة بلغ سمعه صهيل واهن شائع. وكان هذا الصهيل صادراً من الأبقع، إلا أنه بدا كالمرتبك، فانقطع دون أن يتمه.

ولم يثر هذا الصهيل انتباه الضيف، ولا مالك الخيول. سار الرجلان إلى البيت. وعندئذ عرف الذراع في شخص ذلك العجوز المترهل صاحبه المحبوب سيريوخوفسكي الثري الوسيم اللامع فيما سبق.

الفصل العاشر

ظل المطر ينث. وكان الاسطبل مظلماً، بينما كان الوضع في بيت السيد مختلفاً جداً. فقد كانت مائدة الشاي المسائية الفاخرة معدة في غرفة الطعام الفاخرة. وقد جلس السيد والسيدة والضيف القادم يحتسون الشاي.

كانت سيدة البيت حاملاً، يبدو ذلك بوضوح شديد من بطنها المرتفع، ومن وضعها المتصلب المقوس، ومن امتلاتها، ومن عينيها الواسعتين على الأخص، المستفرقتين في الداخل بدمائة خلق، وهي جالسة وراء السماور.

كان سيد البيت يحمل في يده علبة سيفار فاخر مخمر لعشر سنين لا يملكه أحد غيره، على حد تعبيره، وقد تهيأ ليفخر به أمام ضيفه. كان هذا السيد وسيماً في نحو الخامسة والعشرين من العمر، غضاً، متأنقاً، مصفف الشعر. وكان وهو في بيته، يرتدي بدلة قشبية من القماش الصوفي السميك مفصلة في لندن. وفي سلسلة ساعته تحلبات ثمينة كبيرة. وفي كمي قميصه زران كبيران، ضخمان أيضاً من الذهب والفيروز. ولحيته على طراز نابليون الثالث، وطرفا شاربيه الشبيهان بذيل الفأر مدهونان ناتنان بطريقة لا تؤتى إلا في باريس. وسيدة البيت في ثوب حريري شفاف محلى بباقات زهور زاهية، تضع على رأسها

دبابيس ذهبية كبيرة ذات طراز خاص تصف بها شعرها الكتاني الكثيف الجميل رغم أنه ليس شعرها الأصلي. وفي يديها الكثير من الأساور والخواتم وكلها ثمينة. والسماور فضي، وعدة الشاي من الصيني الرقيق. والخادم المهيب في سترة الفراك والصدار الأبيض والرباط يقف عند الباب كالصنم، منتظراً الأوامر. والأثاث محفور ومدور وساطع، وورق الحائط داكن ذو أزهار كبيرة. وقرب المائدة كلب بيتي أصيل يصلصل بسلسلته الفضية، ناعم بشكل غير اعتيادي، له اسم إنكليزي صعب جداً، لا يستطيع كلاهما أن ينطق به، لجهله باللغة الإنجليزية. وفي الركن بيانو *incrusté يقف وسط الزهور. وكل شيء يشع جدة وترفاً وندرة. وكل شيء جيد جداً، لولا ذلك الطابع المعين من البذخ والشراء وغياب الاهتمامات العقلية.

كان سيد البيت مولعاً بسباق الخيول، قوياً بادي الحيوية، من أولئك الذين لا تنطفئ شعلتهم أبداً، والذين يرتدون معاطف فراء السمور، ويلقون باقات الزهور للممثلات، وشربون أغلى أنواع الخمور، ومن أجد الماركات، في أغلى المطاعم، ويقدمون الجوائز بأسمائهم، ويعيلون أغلى المحظيات.

والضيف، نيكيتا سيريوخوفسكوي، رجل في نحو الأربعين من العمر، مديد القامة، أصلع، له شاربان كبيران، وقذالان. لا بد أنه كان وسيماً جداً في صباه. أما الآن فقد انههد، كما يبدو، جسدياً، ومعنواً، ومالياً.

* مرصع . (بالفرنسية في الأصل) .

كان غارقاً في الديون بحيث اضطر إلى أن يخدم في وظيفة لبقية نفسه من طائفة السجن للتعويض عن ديونه. وقد جاء هذه المرة إلى الولاية يرأس مؤسسة تربية الخيول. وقد حصل له على هذه الوظيفة أقرباؤه ذوو الشأن. كان يرتدي صدرية عسكرية، وينظفوناً أزرق. والصدرة والبنطلون كلاهما لا يتوفران إلا للأغنياء من الناس، وثيابه الداخلية أيضاً وساعته إنجليزية، وحذاءه الطويل ذو نعلين رائعين بسمك الاصبع.

كان نيكيتا سيريوخوفسكوي قد بذر في حياته ثروة تقدر بمليون رويل، وهو الآن مدين بمائة وعشرين ألف رويل. ومثل تلك الثروة توفر للإنسان دائماً أهلية وإمكانية لأن يعيش عشر سنين إضافية عيشة رفاة تقريباً. وقد انقضت هذه السنون، واستنفدت نيكيتا أهليته، وصارت حياته كئيبة. فأخذ يلجأ إلى الشراب، أي يسكر، وهو شيء لم يحصل له من قبل. وفي الحقيقة لم يبدأ نيكيتا بالشرب ولم ينته منه قط. لقد كانت حالته المنهارة تلوح، قبل كل شيء، في قلق نظراته (بدأت عيناه تزيفان) وفي تخلخل كلامه وحركاته. والمبهر في هذا القلق أنه حديث النشأة، على ما يبدو، فقد كان واضحاً أن نيكيتا قد تعود منذ زمن بعيد على أن لا يخاف شيئاً ولا أحداً من الناس طوال حياته، وأن همومه المضنية الحديثة قد أوصلته منذ أمد ليس بالبعيد إلى حالة الرعب هذه، الطارئة جداً على طبيعته. وكان سيد البيت وسيدته يلحظان ذلك، ويتبادلان النظرات فيما بينهما دلالة على أن أحدهما يفهم الآخر، ويؤجلان إلى وقت النوم مناقشتها المفصلة عن هذا الموضوع، صابرين على نيكيتا المسكين، بل ومهتمين به. وكان لألاء السعادة البادي على

صاحب الدار الشاب يجعل نيكيتا يشعر بالضعة، ويقسره على أن يحسده بشكل محرض، متذكراً ماضيه الذي لا يعود.

- ألا تتزعجين من تدخيننا السيفار، يا ماري؟ قال مخاطباً السيدة بتلك اللهجة المعينة المراوغة التي لا تتأني إلا لمن له خبرة كبيرة - اللهجة المهذبة الودود وغير المترعة بالاحترام التام، والتي يتحدث بها رجال المجتمع مع عشيقاتهم وليس مع زوجاتهم. لا لأنه كان يريد أن يهينها، بل على العكس، كان يريد التودد إليها وإلى سيد البيت، وإن كان من غير الممكن أن يعترف بذلك. ولكنه كان قد تعود على أن يتحدث بهذا الشكل إلى سيدات مثلها. وكان يعرف أنها ستندهش، بل وستتكبر لو يعاملها كما يعامل سيدة. وفي الوقت ذاته كان عليه أن يحتفظ بتلك النبرة المعروفة من الاحترام ليخاطب بها زوجة حقيقية لصديق ند له. إنه كان يعامل مثل هؤلاء السيدات باحترام دائماً، لا لأنه يعتقد ما يسمى بالمعتقدات التي يبشر بها في المجالات (فقد كان لا يقرأ قط مثل هذه السفساف) عن احترام شخصية كل إنسان، وتفاهة الزواج وما إلى ذلك، بل لأن جميع الناس الاعتباريين يتصرفون هذا التصرف، وقد كان إنساناً معترفاً، ولو كان منهاراً.

أخذ سيفارا. ولكن سيد البيت تناول حفنة من السيفارات بطريقة سمة وقدمها للضيف.

- خذها، وسترى كم هي جيدة.

رفض نيكيتا السيفارات بحركة من يده، ورف في عينيه طيف لا يكاد يبين من الإهانة والحجل.

- شكراً، وأخرج علبة سيفاراته - جرب سيفاراتي.

كانت السيدة ذات إحساس رفيف. فطنت إلى ذلك، وأسرعت
تتحدث إليه:

. أحب السيفار كثيراً. ولولا أن الجميع حولي يدخنون، لدخنت أنا
نفسي.

وابتسمت ابتسامتها الجميلة اللطيفة. فرد عليها بابتسامة مترددة
كشفت عن فراغ سنين مفقودتين من أسنانه. ومضى صاحب الدار القليل
الإحساس:

. لا، الأفضل أن تأخذ هذا. السيفارات الأخرى أضعف، . ونادى:

يا فريتز - Bringen sie noch eine Kasten-

ثم أضاف: *don zwei

جلب الخادم الألماني علبة أخرى.

. أي السيفارات تحب أكثر؟ القرية منها؟ هذه جيدة جداً. خذها

كلها، . مضى على إصراره. والظاهر أنه كان مسروراً بأن يتفاخر بنواده
أمام شخص ما، ولم يكذب يلاحظ شيئاً. أشعل سيريوخوفسكوي سيفاراً،
وأسرع يتابع ما انقطع من الحديث:

. إذن، كم كلفك أطلسنى؟

. كلفني غالباً، ما لا يقل عن خمسة آلاف، ولكنه عوض لي ما

دفعته ثمناً له. ثم ما أروع ذريته!

سأل سيريوخوفسكوي:

. عداة؟

* اجلب علبة أخرى . هناك اثنتان (بالألمانية في الأصل) .

- جداً. في هذه السنة حصل ابنه على ثلاث جوائز: في تولا، وموسكو، ويطرسبورغ. تسابق مع حصان فوييكوف الأسحم. ولولا ارتكاب راكمه الوغد أربع غلطات لنال قصب السبق.
قال سيريوخوفسكوي:

- رطب بعض الشيء. فيه الكثير من الدم الهولندي. هذا رأيي.
- وماذا عن المهترين؟ سأريك إياهما غداً. دفعت ثلاثة آلاف عن دوبرينيا وألفين عن لاسكوفيا.

وعاد المالك يعدد ثروته من جديد. فطنت سيدة البيت إلى أن ذلك يشغل على سيريوخوفسكوي وأنه يتكلف الاستماع. سألت:
- ألا تريدان المزيد من الشاي؟
- لا أريد.

قال سيد البيت، ومضى في حديثه. فنهضت. أوقفها الرجل، وعانقها، وقبلها.

شرع سيريوخوفسكوي يبتسم لهما وهو ينظر إليهما، ابتسامة مصطنعة، ولكن وجهه تغير فجأة، حين نهض صاحب الدار، وخرج معها إلى الباب وهو يحتضنها، وزفر سيريوخوفسكوي زفرة ثقيلة، وارتسم القنوط فجأة على وجهه المترهل. بل ولاح الغيظ عليه.

الفصل الحادي عشر

عاد صاحب الدار، وجلس مقابل نيكيتا مبتسماً صمت الاثنان.
ثم قال سيريوخوفسكوي، وكأنما ذلك عرضاً:
- أها، قلت إنك اشتريته من فوييكوف.

نعم، اشتريت أطلسنني منه، كما كنت أقول. ولدي رغبة مستديمة
في أن أشترى فرساً من دويوفيتسكي. ولكن لم يبق لديه غير التوافه.
لقد أفلس. قال سيريوخوفسكوي، وتوقف فجأة، وتلفت فيما
حوله. فقد تذكر أنه مدين لهذا المفلس بعشرين ألف روبل.
وإذا كان بصفه بـ «المفلس» فماذا سيقول الناس عنه هو؟ لزم
الصمت.

غرق كلاهما ثانية في صمت طويل. كان صاحب الدار يستجمع في
ذهنه ما يفخر به أمام الضيف. وكان سيريوخوفسكوي يفكر في أن يقول
شيئاً ينفي عنه الإفلاس. ولكن كليهما كان في ضنك من التفكير، رغم
أنهما كانا يحاولان أن يختارا لنفسيهما سيفاراً. فكر سيريوخوفسكوي:
«متى سيقدم لي شرباً؟» وكان صاحب البيت يفكر: «يجب أن نحتمي
شيئاً، وإلا سيقتلني الضجر منه».

قال سيريوخوفسكوي:

هل ستمكث هنا مدة طويلة؟

حوالي شهر آخر. حسناً، هل نتعشى؟ فريتس، هل العشاء جاهز؟
وخرجوا إلى غرفة الطعام، حيث وضعت تحت المصباح مائدة صفت
عليها الشموع وأغرب الأشياء: صفاح المياه الغازية، وزجاجات عليها
سدادات من الدمى ونبيذ غير اعتيادي في قوارير، ومشهيات غير
اعتيادية، وفودكا. شربا وأكلا، ثم شربا مرة أخرى وأكلا، وانعقد
الحديث بينهما. احمر سيريوخوفسكوي وأخذ يتحدث دون تهيب.
صارا يتحدثان عن النساء. هذا له عشيقه غجرية، وذلك راقصة،
وهذا فرنسية. وسأل المضيف:

• يعني ما تركت ماتيه؟

وهي العشيفة التي خربت سيريوخوفسكوي.

• ليس أنا الذي تركتهما، بل هي التي تركتني. آه، يا أخ، حين يتذكر المرء ما ضيع في حياته! والآن أنا سعيد بالحصول على ألف روبل، وسعيد بالابتعاد عن الجميع. لا أستطيع العيش في موسكو بعد الآن. ذلك مؤكد.

كان المضيف يشعر بالضجر من الاستماع إلى سيريوخوفسكوي فقد كان يريد التحدث عن نفسه، والتباهي. بينما كان سيريوخوفسكوي يحب التحدث عن نفسه، وعن ماضيه اللامع. صب المضيف قدحاً لضيفه، وانتظر أن يفرغ من حديثه، ليحدثه عن نفسه، وكيف أقام منشأته على نحو لم يكن لأحد مثيل له من قبل.

وأن ماريا لا تحبه لماله فقط، بل ومن صميم قلبها. وأنشأ يقول:

• كنت أود أن أحدثك أن في منشأتي...

إلا أن سيريوخوفسكوي قاطعه، وقال:

• يمكنني القول إنني في وقت من الأوقات أحببت وقدرت أن أعيش.

ها أنت تتحدث عن ركوب الخيل، طيب، قل لي ما هو أسرع حصان لديك؟

سر صاحب البيت من سنوح الفرصة للتحدث مرة أخرى عن خيوله،

فشرع يقول، ولكن سيريوخوفسكي قاطعه ثانية قائلاً:

• نعم، نعم، هذا عندي، عند مربّي الخيول، للمباهاة فقط، وليس

للاستمتاع، وليس للحياة، ولم يكن هذا شأني. لقد كنت أحدثك قبل

قليل أنني كنت أملك حصان ركوب أبقع، كذلك الذي كان يمتطيه راعي

خيولك. آه، أي حصان كان! ما كنت ستصدق. كان ذلك عام ١٨٤٢، وكنت قد وصلت إلى موسكو لتوي، وذهبت إلى بائع خيول فرأيت عنده حصاناً مخصياً أبقع، مواصفاته جيدة، أعجبتني. والسعر؟ ألف روبل. أعجبتني فاشتريته، وأخذت أستخدمه لركوبي. لم يكن لي، ولن يكون لك أيضاً، مثل هذا الفرس. لم أعرف أحسن منه عدواً ولا ضلّاعة ولا جمالاً. كنت في ذلك الحين صبيّاً، وما كان لك أن تعرف، ولكنك سمعت عنه، على ما أظن. كانت موسكو كلها تعرفه.

قال صاحب الدار على مضض:

- نعم، سمعت. ولكن كنت أريد أن أحدثك عن خيولي.
- كيف سمعت. لقد اشتريته على الماشي، دون أن أعرف أصله ولا فصله، وقد عرفت فيما بعد. توصلت إلى ذلك مع فوييكوف، فعرفت أنه ذراع بن مهذب الأول. يذرع الأرض ذراعاً. وهبوه لدير الاسطبل في منشأة خرينوفوا بسبب تبقعه، فخصاه هذا. وباعه لبائع خيول. لا نظير له في الخيول، يا أخ! آه، كان ذلك زمناً مشهوداً! آه، يا شبابي! - تغنى بهذا البيت من أغنية غجرية. فقد بدأ يسكر. - كان زمناً رائعاً. كنت في الخامسة والعشرين، وكان لي آنذاك سبعون ألف روبل فضي من الدخل، وما من شعرة شيب واحدة، وأسنانني كلها منضودة كاللآلئ، وأوفق في كل ما أقدم عليه، وقد ضاع كل شيء. قال صاحب الدار منتهزاً التوقف عن الكلام:

- في ذلك الزمان لم تكن للخيول هذه السرعة. سأريك كيف صارت خيولي الأولى تسير بلا...

. خيولك! في ذلك الزمان كانت هناك خيول أسرع.

. كيف أسرع؟

. أسرع. وكما أتذكر الآن خرجت عليه لأشاهد السباق في موسكو ذات مرة. ولم تكن لي خيول سباق، فقد كنت لا أحبها، كانت لي خيول أصائل: جنرال، وشوليه، وماغوميت. وكنت أستخدم الأبقع في عرستي، كما كان لي حوذي شاب رائع كنت أحبه. صار يعكف على الشراب أيضاً. وقد ذهبت إلى هناك، فقالوا لي: سيريوخوفسكوي، متى ستربي خيول سباق؟ قلت لهم: اللعنة على خيولكم الريفية كلها، فإن حصاني الأبقع الذي يجر عرستي سيفلب كل خيولكم. قالوا: لن يغلبها. قلت لنتراهن على ألف روبل. فاتفقنا. وأطلقنا الخيول. وسبقها بخمس ثوان وكسبت الألف روبل من الرهان. وهذا لا شيء. ذات مرة قطعت على ترويكما من ثلاث خيول عداءة مائة فرسخ في ثلاث ساعات. وموسكو كلها تعرف ذلك.

وأخذ سيريوخوفسكوي يكذب ببراعة وطلاقة، حتى إن مضيفه لم يستطع أن يتدخل بكلمة واحدة، فجلس قبالة جزع الوجه، يصب النبيذ في الأقداح لضيفه ولنفسه للهو فقط.

بدأت الدنيا تتنور، وهما ما يزالان على جلستهما. وقد ضجر المضيف ضجراً موجعاً. فنهض.

. إذا حل النوم فمنا، قال سيريوخوفسكوي وهو ينهض مترنحاً، وسار إلى الحجرة المخصصة له نافخاً الهواء بخديه.

كان صاحب الدار بضطجع مع عشيقته.

. لا، إنه لا يحتمل مطلقاً. سكر وظل يكذب طوال الوقت.

- ويغازلني.

- أخشى أن يستدين نقوداً مني.

واستلقى سيريوخوفسكي في السرير في كامل ثيابه، ونفخ خديه.
وفكر: « يبدو أنني كذبت كثيراً. ولكن لا يهم. النبذ جيد، ولكن الرجل
خنزير كبير. متاجر. وأنا أيضاً خنزير كبير - قال محدثاً نفسه وضحك. -
كنت أعبّل الآخرين، وهم الآن يعبلونني.

أجل، امرأة فينكلر تعبلني. وأنا آخذ منها فلوساً. هذا ما
يستحقه. على أية حال يجب أن أخلع ملابسي. صعب أن أخلع حذائي». -
هاي! هاي! - نادى سيريوخوفسكي، ولكن الخادم الذي خصص له
كان قد ذهب لينام منذ وقت طويل.

جلس، وخلع صدرته، وصدره، واستطاع أن يخلع البنطلون عنه
بطريقة ما، ولكنه ظل يعالج طويلاً ليسجر حذاءه، وكشره الرخو كان
يعيقه. سحب فردة على نحو ما، وظل يصارع الأخرى، ويصارع، ويلهث
حتى تعب. وبهذا الشكل ارقى، والفردة الأخرى ما تزال في ساقه، وراح
يشخر، ماثلاً الحجرة كلها برائحة التبغ والنبذ والشيخوخة العفنة.

الفصل الثاني عشر

كان من الممكن أن يتذكر الذراع أشياء أخرى في تلك الليلة، لو لم
يشغله فاسكا. ألقى عليه قماشة الظهر، وانطلق عليه، وأبقاه حتى
الصباح عند باب حانة مع حصان عائد إلى فلاح. لحس أحدهما الآخر،
وفي الصباح انضم الذراع إلى الرعيل، وظل يهرش جلده. وكان يقول
لنفسه: « شيء يوجعني فاهرشه».

مضت خمسة أيام. واستدعي الطبيب البيطري. فقال بسرور:

- جرب. بيعوه إلى الفجر.

- ولم؟ انحره ولن تبقى له على أثر منذ اليوم.

الصباح هادئ صاف. خرج الرعيل إلى المرعى، وبقي الذراع في مربطه. جاء رجل غريب، نحيل، أسود، قذر، في قفطان ملطخ بشيء ما. كان ذلك هو السلاح. تناول رسن الذراع دون أن ينظر إليه، وساقه إلى الخارج. سار الذراع بهدوء، دون أن يتلفت، يجرجر أرجله، كما هو دائماً، مشربكاً قائمتيه الخلفيتين بالقش. ولما ترك البوابة، دفع جسمه نحو البشر، إلا أن السلاح جذبته، وقال: «لا حاجة بك للماء بعد الآن».

وصل السلاح وفاسكا الذي كان يسير في الخلف إلى هدة وراء سقيفة آجرية. وتوقفا وكأن في هذا المكان الاعتيادي شيئاً ملفتاً للنظر، وأعطى السلاح المقود إلى فاسكا، وخلع قفطانه، وطوى رذنيه، وأخرج من رأس حذائه سكيناً ومسنناً، وأخذ يشحذ السكين على المسن. مال المخصي إلى الرسن يريد أن يعلكه دفعا للضجر، ولكن ذلك كان بعيداً عنه، فتنهد، وأغمض عينيه.

وتدلى مشفره، وتكشفت أسنانه الصفراء المنخورة، وصار يهوم ناعساً على أصوات السكين وهي تشحذ، لولا اختلاجة رجله الموجعة المقرحة. وفجأة شعر بأنه يؤخذ من بلعومه، ويرفع رأسه إلى فوق. فتح عينيه. فرأى أمامه كلبين، أحدهما يتشمم الهواء باتجاه السلاح، والثاني جالس ينظر إلى المخصي وكأنما ينتظر شيئاً منه بالذات. نظر المخصي إليهما، وأخذ يحك وجنته باليد التي تمسك به.

وفكر مع نفسه: «أعتقد أنهم يريدون أن يعالجوني. فليعالجوني!».

وبالفعل شعر بأنهم فعلوا شيئاً لخنجرته. شعر بالألم، وارتعش، ورفس بقدمه، ولكنه تحامل على نفسه وأخذ ينتظر ما سيحصل فيما بعد، وما حصل فيما بعد هو أن سائلاً انسكب في دفق غامر على عنقه وصدره. استنشق الذراع الهواء بكل جنبه، وأحس بأن ضيقه قد خف كثيراً. خف كل ثقل حياته. أغمض عينيه، وأخذ يميل برأسه، ولم يعد أحد يمسك به. ثم أخذ يحني رقبتة، ثم راحت قوائمه ترتعش، وجسمه يترنح بكليته. كان مندهشاً أكثر مما هو مرتعب. صار كل شيء جديداً عليه كل الجدة. وفي دهشته صار يحاول الاندفاع إلى الأمام، إلى الأعلى. ولكن بدلاً من ذلك انزلت أرجله، وارتجت، فأخذ يتهاوى على جنبه. حاول أن يحرك رجليه، إلا أنه سقط إلى الأمام على جنبه. حاول أن يحرك رجليه، إلا أنه سقط إلى الأمام على جنبه الأيسر. انتظر السلاح انقضاء اختلاجاته وطرد الكلبيين اللذين راحا يقتربان، ثم أمسك رجل المخصي، وقلبه على ظهره، وأمر فاسكا بأن يمسك رجله، وأخذ يسلخه.

قال فاسكا:

كان حصاناً جيداً في زمانه.

قال السلاح:

لو كان مغذى أكثر لكان جلده جيداً.

في المساء، بينما كان الرعيل يسير على التل، رأت الخيول التي كانت تسير في الحافة اليسرى شيئاً أحمر في الأسفل تحوم قرية كلاب نشطة، وتحلق غريان وحذاء. أنشب أحد الكلاب مخالفه في ذلك السقط المهمل، وعرز أنيابه فيه مديراً رأسه، حتى انتزع قطعة منه محدثاً

صوتاً. توقف الفرس البني، وأشرأب برأسه ورقبته، وظل يستنشق الهواء، وقتاً طويلاً. ولم يصرف عن ذلك إلا بالقوة.

في الفجر أعولت صغار الذؤبان الكبيرة الرؤوس في فرخ، عند وهدة الغابة القديمة المتحولة في الأسفل إلى فرجة مكشوفة.

كانت خمسة ذئاب، أربعة منها متقاربة الأحجام وواحد صغير ذو رأس أكبر من جسده. خرجت ذئبة نحيلة حائلة اللون من أجمة تخرجر على الأرض بطناً كاملاً بحلماته المتدلية، وجلست مقابل الذؤبان الصغار التي وقفت أمامها في نصف دائرة. دنت من أصغرها، وأسبلت ذيلها، وعكفت بوزها إلى الأسفل، وقالت بحركات مرتعصة، ثم فتحت شقوقها ذا الأنياب، ووترت عضلاتها، وأخرجت من فمها قطعة كبيرة من لحم الحصان، وألقته. اندفعت الذئاب الأكبر حجماً نحو القطعة، إلا أن الذئبة اقتربت منها مهددة، وقدمت القطعة كلها للصغير. هدر الصغير كالغاضب، وأمسك القطعة تحته، وراح يأكلها. وبهذه الشكل أخرجت الأم قطعة للابن الثاني، والثالث، وللخسة جميعاً. وعند ذاك انطرحت قبالة أولادها تستريح.

وبعد أسبوع لم يبق عند السقيفة الآجرية غير جمجمة كبيرة، وعظمي الحوض، أما قطع الجسد الأخرى فقد جرجرت في أنحاء شتى. وفي الصيف أخذ الفلاح جامع العظام هذين العظمين والجمجمة، واستخدمها في غرض من أغراضه.

أما جسد سيريوخوفسكوي الميث فقد دفن في الأرض بعد ذلك بزمان طويل، بعد أن مشى في دروب الدنيا، وأكل وشرب. ولم ينفع لشيء لا جلده، ولا لحمه، ولا عظامه. ومثلما كان جسده الذي فارق الحياة وقرأ

كبيراً على الجميع خلال عشرين عاماً قضاها يضرب في دروب الدنيا، كذلك لم يكن دفن ذلك الجسد في الأرض، غير عناء زائد للناس الذين دفنوه. فقد كف ذلك الجسد منذ زمان عن أن يكون نافعاً لأحد، وظل منذ زمان رهقاً على الجميع. ومع ذلك فإن الأحياء الذين يدفنون الأموات وجدوا من اللازم أن يلبسوا هذا الجسد الذي تقلص فوراً، وانتفخ بزة جيدة، وحذاء طويلاً جيداً، ويضعوه في تابوت جديد جيد، له شرائيب جديدة في أركانه الأربعة، ثم أن يضعوا هذا التابوت الجديد في تابوت قصديري آخر، وأن ينقلوه إلى موسكو، وأن ينبشوا هناك عظام الموتى منذ زمن بعيد، وأن يدفنوا في تلك البقعة بالذات ذلك الجسد الآخذ بالتفسخ، والحافل بالدود في بزته الجديدة، والحذاء المصقول، ويواروا عليه التراب.

عام ١٨٥٦

أسير القفقاس (قصة حقيقية)

.١.

كان يخدم في القفقاس ضابط يدعى جيلين.
تلقي رسالة مرسله إليه من بيته، تكتب فيها أمه العجوز: «صرت
عجوزاً، وأريد أن أرى ابني الحبيب، قبل أن أموت. فتعال لوداعي، ولدني،
وبعد ذلك عد، في رعاية الرب، إلى الخدمة. وجدت لك عروساً عاقلة، حلوة،
ولها ضيعة أيضاً. وقد تعجبك، فتتزوج، وتبقى عندنا نهائياً».
وراح جيلين يفكر: «حقاً أن العجوز قد تردت حالها، ولربما لا الحق
أن أراها. فلأسافر. وإذا كانت العروسة جيدة، فقد أتزوج».
وذهب إلى العقيد، وحصل على إذن بإجازة، وتودع مع رفاقه،
وقدم لجنوده أربعة جرادل من الفودكا للتوديع، وتهياً للرحيل.
كانت الحرب ناشبة في القفقاس آنذاك. لا حركة على الطرق لا في
الليل ولا في النهار. والروسي، ما يكاد يبتعد عن القلعة راكباً أو
ماشياً حتى يقتله التتار، أو يأخذوه إلى الجبال.
وقد جرت العادة أن يخرج جنود مرافقون من قلعة إلى قلعة مرتين
في الأسبوع. يسير الجنود في المقدمة وفي الخلف، والناس في الوسط.

كان ذلك صيفاً. تجمعت طوابير العربات وراء القلعة فجراً، وخرج الجنود المرافقون، وساروا في الطريق، كان جيلين يركب فرساً، والعربة الحاملة لأمتعته تسير في طابور العربات.

وكان يجب قطع ٢٥ فرسخاً. سار الطابور على مهل. تارة يتوقف الجنود، وتارة تخرج عجلة إحدى العربات، أو يتوجع حصان. ويقف الجميع، ينتظرون.

تجاوزت الشمس سمت الظهيرة، ولم يقطع الطابور غير نصف الطريق. غبار، وحر، والشمس ترسل شواظها، وما من مخبأ عنها. سهب أجرد. وما من شجيرة، ولا مجمع عشب في الطريق.

كان جيلين يسير في المقدمة. توقف ينتظر اقتراب الطابور. إلى الخلف منه يسمع صوت البوق. هذا توقف آخر. وفكر جيلين: «ماذا لو ذهبت لوحدي، بدون حماية جنود؟ الحصان الذي أمتطيه لطيف. وإذا وقعت على التتار، هربت به. أم لعلي لا أسافر؟...».

توقف يقلب الأمر في ذهنه. فيتقدم منه ضابط آخر، هو كوستيلين، يمتطي فرساً، ومعه بندقية، ويقول:

لنذهب، يا جيلين، لوحدها. لم تعد لي قوة على التحمل. وأنا جوعان. ثم هذا القيظ، وقميصي يمكنك أن تعصره. وكوستيلين رجل ثقيل الجرم، بدين، أحمر بكمليته، والعرق يتصبب منه دائماً. ويفكر جيلين قليلاً، ويقول:

لنذهب، ولكن لتعاهد على ألا نفترق.

معاً.

لنذهب، إذن. ولكن لتعاهد على ألا نفترق.

وسارا متقدمين في الطريق. يشقان السهب، ويتحدثان، ويتلفتان
يمينه ويسرة. ومدى البصر حولهما بعيد.

وما كاد السهب ينتهي، حتى امتد الطريق بين جبلين في مضيق
جبلي. فيقول جبلين:

- يجب أن نصعد على الجبل، ونتطلع. فقد يشبون علينا هنا، من
حيث لا ندري.

فيقول كوستيلين:

- وما الحاجة إلى التطلع؟ لنواصل السير.

ولا يطبعه جبلين، ويقول:

- لا، انتظر أنت في الأسفل. وسأصعد أنا لألقي نظرة.

وأطلق فرسه في الجبل إلى اليسار، كان الحصان الذي يمتطيه جبلين
حصان صيد (اشتراه بمائة رويل في رعييل للأمهار، وروضه بنفسه) وقد
صعد به المرتقى، وكأنما على جناحين. وما كاد يبلغ رأس الجبل، ويلقي
نظرة حتى أبصر قدامه زهاء ثلاثين رجلاً من التتار على خيولهم
متجمهرين. ولما رآهم أخذ يستدير للعودة، والتتار رأوه أيضاً، ونزلوا
نحوه، وهم يخرجون بنادقهم من أغلفتها أثناء عدوهم. هبط جبلين
المنحدر بكل ما لدى حصانه من أيد، ويصبح بكوستيلين:

- اخرج بندقيتك! - بينما يقول هو لحصانه في سره: «يا حبيبي،

اطلع بي، ولا تتعشر، فتسقط، وأهلك أنا. إذا بلغت البندقية، لن
أستسلم لهم».

أما كوستيلين، فبدلاً من أن ينتظره، انطلق نحو القلعة، بكل ما
فيه من قوة، حالما وقع بصره على التتار. ويلهب الحصان بسوطه على
هذا الجنب، وعلى ذاك. ومن خلال الغبار لا يرى غير الحصان يدور ذيله.

ويرى جيلين أن الوضع سيئ. فالبندقية قد رحلت، وبالسيف وحده لا يمكن أن يفعل شيئاً. أطلق الحصان عائداً به إلى الجنود، يظن أنه سيتخلص. ويرى ستة رجال منحدرين يعترضون طريقه.

تحت حصانه كريم، وتحتهم خيولهم أكرم، ثم إنهم يأخذون عليه طريقه. شرع يوقف حصانه، وأراد أن يديره ليعود به، ولكن الحصان انطلق لا يلوي على شيء، متجهاً نحوهم تماماً. ويصر، فإذا بتتري ذي لحية حمراء، على فرس رمادي يقترب منه. ويهر التتري، وقد كشر عن أسنانه، وهياً بندقيته.

يفكر جيلين في نفسه: «أنا أعرفكم، أيها الشياطين. إذا مسكتم أحداً حياً، حبستموه في حفرة، وهرأتم جلده بالسوط. فلن أستسلم حياً». ولم يكن جيلين طويلاً، وإن كان شديد البأس. استل سيفه، وأطلق حصانه صوب التتري تماماً، وهو يفكر: «إما أن أدقه بحصاني، أو أقطعه بسيفي».

وما كاد جيلين يصل قيد حصان من التتري حتى أصابت حصانه رصاصات أطلقت عليه من بنادق خلفه. وسقط الحصان على الأرض بكل ثقله، وانهد على رجل جيلين.

أراد جيلين أن ينهض، ولكن تترين منتنين لحقا أن يبركا عليه ويلوبا ذراعيه وراء ظهره. حرر نفسه، وألقى عنه التترين، إلا أن ثلاثة آخرين قفزوا عليه من خيولهم، وأخذوا يضربونه بأخامص بنادقهم، غامت عيناه، وراح يترنج.

أمسك التتار به، ونزعوا السيور الإضافية من السروج، وقيدوا ذراعيه وراء ظهره، وربطوه ربطة تترية، وجروه إلى السرج.

خلعوا عنه قبعته، وانتزعوا حذاءه. وتلمسوا كل شيء، وأخرجوا النقود والساعة، ومزقوا جلبابه إرباً. نظر جيلين إلى حصانه، فإذا هو راقد على جنبه على سقطته الأولى، سوى أنه، يا ويل قلبي، يرفس بأرجله، ولكن دون أن يصل الأرض، وفي رأسه ثقب، ومن الثقب يشخب دم أسود، وقد بلل الثرى حوله بمقدار ذراع.

تقدم أحد التتار من الحصان، وأخذ يخلع عنه سرجه. وهو ما يزال يرفس، فاستل خنجره، وحز حلقومه. وأرسل الحلقوم صغيراً، وارتعص الحصان، وزهقت الروح.

فك التتار السرج والعدة. وركب التتري ذو اللحية الحمراء حصانه، ورفع الآخرون جيلين، وأجلسوه وراء سرجه، وخشبة سقوطه ربطوه بحزام التتري، واقتادوه إلى الجبال.

وجيلين وراء التتري يهتز، ووجهه يضرب في ظهر التتري المتنن. ولا يرى أمامه غير ظهر التتري الناصح، وغير الرقبة المعروقة، والقفا الحليق الأزرق يلوح من تحت القبعة. ورأس جيلين مصاب، والدم تخش فوق عينيه. ولا مجال له لأن يعدل جلسته على الحصان، ويمسح الدم. فقد لويت ذراعه لياً يوجع عظم الترقوة.

ساروا وقتاً طويلاً من جبل إلى جبل، وقطعوا نهراً مخاضة، وطلعوا إلى الطريق، ومضوا في هدة.

أراد جيلين أن يلحظ إلى أين يؤدي الطريق، ولكن عينيه ملطختان بالدم، والالتفات متعذر عليه.

أخذ المساء يغسوسق. اجتازوا نهيراً آخر، وراحوا يرتقون جبلاً صخرياً. وفاحت رائحة دخان، وطفقت كلاب تنبح.

لقد وصلوا إلى «أوول»*. ترجل التتار من خيولهم، وتجمع صبيان تتاريون، وأحاطوا بجيلين متلهللين، وراحوا يقذفونه بالحجارة. طرد التتري الصبيان، وأنزل جيلين من الحصان، ونادى شغياً. فجاء رجل ناغاني بارز الوجنتين ليس عليه غير القميص. والقميص ممزق، والصدر عار بكليته. أمره تتري بشيء. جاء الشغيل بالقيد، وهو خشبتان من البلوط ملبستان بطوقين من الحديد، وفي أحد الطرفين مشد وقفل.

فكوا ذراعي جيلين، ووضعوه في القيد، وساقوه إلى سقيفة، ودفعوه في داخلها، وقفلوا عليه الباب. سقط جيلين على روث. ظل منطرحاً بعض الوقت، وتلمس، في الظلام، مكاناً أليناً، واستلقى.

٢٠.

لم ينم جيلين الليل كله تقريباً. كانت الليالي قصيرة. وينظر فإذا بضوء الفجر يتسرب من خلال خصاصة. نهض جيلين، ووسع الخصاصة قليلاً، وأخذ ينظر.

كان يرى، من خلال الخصاصة، طريقاً يسير عند سفح جبل، وإلى اليمين بيتاً، بالقرب منه شجرتان. وعلى العتبة يرقد كلب أسود، وعذرة تسير مع صفارها، تهز ذبولها. ويرى تترية شابة آتية من سفح الجبل، في ثوب ملون غير محزم، وسروال، وحذاء عالي العنق. ورأسها مغطى بقفطان، وعلى الرأس جرة ماء كبيرة من الصفيح. وتسير الشابة، وظهرها يهتز قليلاً، ويتقصف.

* الأوول : قرية تترية (الملاحظة لليف تولستوي).

والشابة تقود بيدها طفلاً تقريباً صغيراً حليق الرأس، ليس عليه غير القميص. دخلت التتريّة حاملة الماء إلى البيت، وخرج منه تتري الأصم ذو اللحية الحمراء، في قفطان حريري، وفي حزامه خنجر فضي، ينتعل حذاء على قدمين عاريتين وعلى رأسه قبعة طويلة من فراء الخروف، سوداء، مائلة إلى القفا. خرج يتمطى ويمسد على لحيته. وقف برهة، وأوعز للتشغيل بشيء، وذهب إلى جهة ما.

وجاء، بعد ذلك، شابان إلى المسقى على فرسيهما. وللفرسين خطم رطب. ثم طلع صبيان آخرون حليقو الرؤوس، ليس عليهم غير القمصان، بدون سراويل، والتأموا في ثلة، وجاءوا إلى السقيفة، وتناولوا غصناً طويلاً، وحشروه في الخصاصه. زجرهم جيلين، فارسلوا زعيقاً، وتراكضوا مبتعدين، لا تلوح إلا ركبهم العارية لامعة.

وجيلين عطشان، حنجرته يبست. فيقول لنفسه: لبتهم على الأقل، يأتون ليتأكدوا من وجودي. ويسمع قلقلة المفتاح في باب السقيفة. جاء التتري ذو اللحية الحمراء ومعه آخر أقصر منه له شعر أسود وعينان سوداوان، وضيثتان، وخده مورد، ولحيته صغيرة، مشذبة. وجهه جدل، دائم الضحك. وصاحب الشعر الأسود أحسن لباساً. قفطانه حريري، أزرق، مطرز بشراشيب صغيرة.

وخنجره في الحزام كبير، فضي، والحذاء صغير أحمر من الجلد المراكشي مطرز بالفضة أيضاً، وعلى الحذاء الصغير حذاء آخر سميك. والقبعة عالية من فراء الجدي الأبيض.

دخل التتري الأحمر، وتكلم شيئاً، وكأنه يشتم. وتوقف. وضع مرفقه على عضادة الباب، وحرك خنجره، وكالذئب راح ينظر شزراً إلى

جيلين. أما الأسود - السريع، النشيط، فكأنما يسير على زنبركات - فقد أقبل على جيلين رأساً، وجلس القرفصاء، مكشراً عن أسنانه، وريت على كتفه، وراح يرطن بلفته سراعاً، ويغمز بعينيه، ويتمطق بلسانه، ويردد: «كروشو أوروس! كروشو أوروس!».

لم يفهم جيلين شيئاً، فيقول: «أريد أن أشرب. أعطني شيئاً من الماء لأشرب!».

ويضحك الأسود، ويظل يرطن بلفته - «كروشو أوروس».

أشار جيلين بشفتيه، ويديه يريد أن يعطوه ماء.

فهم الأسود، وضحك، وتطلع في الباب، ينادي أحداً: «دينا!».

جاءت فتاة راكضة، رقيقة الجسم، نحيلة، في نحو الثالثة عشرة من العمر، تشبه الأسود في الوجه. والظاهر أنها ابنته. عيناها أيضاً سوداوان، وضيشتان، والوجه مليح، ترتدي ثوباً طويلاً أزرق عريض الكمين، وبلا حزام، مؤطراً بشرط عند الذيل، وعلى الصدر، وعلى الكمين. في ساقها سروال، وفي قدميها حذاء صغير، فوقه حذاء آخر عالي الكعبين. وفي رقبتها قلادة من قطع النقد الروسية من فئة الخمسين كوبيكاً. رأسها حاسر، وضيشتها سوداء، وفي الضفيرة شريط، وعلى الشريط علقت قطع معدنية، وروبل فضي.

أمرها أبوها بشيء. فخرجت راكضة، وعادت ثانية تحمل جرة من الصفيح. قدمت الماء، وجلست القرفصاء أيضاً، وتكورت حتى إن كتفيها كانتا أسفل ركبتيها. وظلت جالسة، وقد فتحت عينيها، تنظر إلى جيلين يشرب الماء، وكأنها تنظر إلى حيوان غير أنيس.

أعاد جيلين الجرة لها. فوثبت عائدة، كالمعزة البرية. حتى انتزعت

الضحك من أبيها. أرسلها في مهمة أخرى. تناولت الجرة، وركضت، وجاءت بخبز ماسخ على لوحة مستديرة، وجلست ثانية، وتكورت ترنو إليه لا يرف لها جفن.

انصرف التتار، وقفلوا الباب من جديد.

بعد قليل يأتي النوغائي إلى جيلين، ويقول:

- آيدا، يا أوسطه، آيدا!

لا يعرف الروسية أيضاً، ولكن جيلين فهم أن النوغائي يأمره بأن يأتي معه.

سار جيلين في قيده، يعرج، لا يستطيع أن يطأ الأرض، فكان يحرف قدمه جانباً. خرج جيلين مع النوغائي، فرأى قرية تترية؛ نحواً من عشرة بيوت، وكنيستهم ذات البرج*. عند أحد البيوت ثلاثة خيول مسرجة، يمسك صبيان بمقاودها. خرج من هذا البيت التتري الأسود، ولوح بذراعه يريد أن يأتي جيلين إليه، ويعود إلى ضحكه، ويظل يتكلم بلغتهم، ويختفي في الباب. دخل جيلين البيت. حجرة الجلوس لطيفة، والجدران ملساء مملوطة بالطين. وعند الجدار المقابل، نضدت وسائد زاهية الألوان من الريش؛ وعلى الحائطين الجانبين عُلقت أبسطة غالية، وعلى الأبسطة بنادق، ومسدسات، وسيوف، وكلها في فضة. وعند حائط موقد صغير في مستوى الأرض. والأرض ترابية، نظيفة كالمدري. والركن الأمامي كله مفروش باللباد، وعلى اللباد أبسطة، وعلى الأبسطة وسائد من ريش. وعلى الأبسطة يجلس التتري الأحمر، وثلاثة ضيوف، وأحذيتهم في أقدامهم. وظهورهم جميعها مسندة إلى وسائد الريش،

* هكذا ورد بالأصل، ويعني به الجامع. المترجم.

وأمامهم على بسطة خشبية مستديرة أرغفة الدخن، ودهن بقري مذاق في طاسة، وجعة تترية أو بوزة في جرار صغيرة. ويأكلون بأيديهم، وأيديهم مشبعة كلها بالدهن.

نهض الأسود، وأمر بأن يجلس جيلين في ناحية، على الأرض العارية، لا على البساط، وانسل ثانية ليقعد على البساط، مقدماً لضيوفه الخبز والبوزة. أجلس الشغيل جيلين في موضع، وخلع هو هذا الخارجى، ووضع عند الباب، إلى جانب الأحذية الأخرى، وجلس على لبادة، أقرب إلى أهل البيت. ينظر إليهم يأكلون، ويمسح لعابه.

أكل التتار الأرغفة. جاءت تترية تلبس مثل الثوب الذي تلبسه الفتاة، وفي سروال أيضاً، والرأس معصوب بمنديل، ورفعت الدهن، والأرغفة، وجاءت بطست جميل، وإبريق ضيق الرقبة. أخذ التتار يغسلون أيديهم. ثم صفوا أيديهم، وركعوا على ركبهم، ونفخوا في جميع الجهات، وقرأوا الدعوات. تكلموا بلغتهم قليلاً. ثم التفت أحد الضيوف إلى جيلين، وأخذ يتكلم بالروسية:

«أسرك قاضي محمد». ويشير إلى التتري الأحمر. «وأعطاك لعبد المراد». ويشير إلى التتري الأسود. «وعبد المراد الآن سيدك». وجيلين صامت.

أخذ عبد المراد يتكلم، ويشير إلى جيلين أثناء كلامه، ويضحك ويقول: «سولدات أوروس. كوروشو أوروس».*

ويقول المترجم: «بأمرك بأن تكتب رسالة إلى أهلك، ليرسلوا فدية عنك. سيطلق صراحك، حالما تأتي النقود».

* ما معناه بالروسية المحرفة: «هندي روسي. روسي جيد». المترجم.

فكر جيلين قليلاً، ويقول: «وهل يريد فدية كبيرة؟».

تحدث التتار قليلاً فيما بينهم، ويقول المترجم:

. ثلاثة آلاف.

فيقول جيلين:

لا. أنا لا أستطيع أن أدفع ذلك.

نهض عبد المراد بحدة، أخذ يشمر ذراعيه، ويقول شيئاً لجيلين، يظن

أن جيلين يفهمه. ترجم المترجم، فيقول: «كم ستدفع؟».

فكر جيلين قليلاً، ويقول: «خمسمائة روبل».

وهنا أخذ التتار يتكلمون سريعاً، وكلهم دفعة واحدة. أخذ عبد

المراد يصيح على الأحمر، ويرطن بسرعة شديدة حتى إن اللعاب صار

يتطاير من فمه. ويكتفي الأحمر بتضييق عينيه، والتمطق بلسانه.

خلدوا إلى الصمت. ويقول المترجم:

. قليل على سيدك خمسمائة روبل فدية. فقد دفع عنك مائتي روبل

كانت له ديناً على قاضي محمد. أخذك لقاء دينه. لا يمكن إطلاق

سراحك بأقل من ثلاثة آلاف روبل. وإذا لم تدفع ستوضع في حفرة،

وتجلىد بالسوط.

ويفكر جيلين مع نفسه: «آه، الجبن معهم يجعل الأمر أسوأ».

ويشب على قدميه، ويقول:

. ولكن قل لهذا الكلب. لن أدفع له فلساً إذا كان يريد أن يرهبني،

بل ولن أكتب لأهلي. أنا لم أخف، ولن أخاف منكم يا كلاب!

نقل المترجم كلامه. وعادوا يتكلمون كلهم دفعة واحدة.

رطنوا طويلاً، وثب الأسود، اقترب من جيلين، ويقول:

• أوريوس جيكيث، جيكيث أوريوس؛

والجيكيث بلغتهم تعني «الصنديد». ويضحك الأسود، ويقول شيئاً للمترجم، فيقول المترجم:
• أعط ألف روبل.

أصر جيلين على رأيه: «لن أدفع أكثر من خمسمائة روبل. وإذا قتلتموني لن تحصلوا على شيء».

تحدث التتار قليلاً، وأرسلوا الشغيل إلى جهة ما، وظلوا يتطلعون تارة إلى جيلين، وتارة إلى الباب. جاء الشغيل، وخلفه رجل بدين حافي القدمين، ممزق الثياب، وفي قدمه قيد أيضاً.

أرسل جيلين آهة. لقد عرف كوستيلين. يعني، أسروه أيضاً. أجلسوا كوستيلين إلى جانبه. أخذ الاثنان يقص أحدهما للآخر، والتتار صامتون ينظرون. قص جيلين ما حدث له. وروى كوستيلين أن الحصان تحته توقف، والبندقية كبت، وأن عبد المراد هذا نفسه طارده، وقبض عليه.

نهض عبد المراد قائماً، يشير إلى كوستيلين، ويقول شيئاً. ترجم المترجم أن كليهما الآن ملك لملك واحد، ومن سيدفع الفدية قبل، سيطلق صراحه قبل.
ويقول لجيلين:

• أنت تحقد، بينما رفيقك وديع، كتب رسالة لأهله ليرسلوا خمسة آلاف روبل. وها هم يطعمونه وسيكرمونه، ولا يسبون إليه.
فيقول لجيلين:

• ليفعل الرفيق ما يشاء، فقد يكون غنياً، بينما أنا لست غنياً.

أنا أعني ما قلته. فإذا أردتم قتلي فلن تحصلوا على فائدة. لن أكتب عن أكثر من خمسمائة روبل.

لزموا الصمت. وفجأة يقفز عبد المراد من مكانه، ويتناول صندوقاً صغيراً، ويخرج منه ريشة، وقصاصة ورق، وحبراً، ويضعها في يد جيلين، ويرت على كتفه، يشير: «اكتب». وافق على خمسمائة روبل. فيقول جيلين للمترجم:

انتظر قليلاً. قل له أن بطعمنا بشكل جيد، ويوفر لنا اللباس والحذاء، كما ينبغي، وأن يبقينا سوية، فذلك أبهج لنا، وأن يرفع القيد عن أقدامنا.

وينظر إلى مالكة هذه المرة، ويضحك. فيضحك المالك أيضاً. استمع إلى كلامه. ويقول:

سأعطيها أحسن الثياب. سترة تشركسية، وحذاء طويلاً يصلح للعرس، وسأطعمهما كأmirين. وإذا أرادا أن يقيما سرية، فليقيما في السقيفة. أما القيد فلا يمكن خلعه، فسيهريان. سنخعله في الليل فقط. وتقدم منه يرت على كتفيه. يا حلوتي، يا حلوتي!

وكتب جيلين رسالة. وعنون الرسالة بحيث لا تصل. وفي سره يفكر: «سأهرب».

اقتادوا جيلين وكوستيلين إلى السقيفة، وجلبوا لهما إلى هناك قش ذرة، وجرة ماء، وخبزاً، وسترتين تشركسيتين قديمتين، وحذائين مستهلكين من أحذية الجنود. والظاهر أنهم أخذوا من جنديين قتيلين. وفي الليل خلعوا عنهما القيد، وقفلوا الباب.

على هذا النحو عاش جيلين ورفيقه شهراً كاملاً، والمالك يضحك طوال الوقت، ويرطن بكلمة أو كلمتين روسيتين محرقتين، ولا يقدم إلا هزيل الطعام: خبز الدخن الماسخ على شكل أرغفة مخبوزة، وأحياناً عجينة غير مخبوز البتة.

كتب كوستيلين رسالة أخرى إلى أهله، وظل ينتظر النقود، ويستوحش. يقضي أياماً كاملة في السقيفة، بحسب الأيام التي تستغرقها الرسالة لتصل إليه، أو ينام. بينما كان جيلين يعرف أن رسالته لن تصل، فلم يكتب رسالة أخرى.

وهو يفكر مع نفسه من أين ستأخذ أمي كل هذه النقود، لترسلها إلي. لا سيما وأنها كانت تعيش على ما أرسل لها من الفلوس. وإذا كان لها أن تجمع خمسمائة روبل، فإنها ستفقد كل ثروتها تماماً. الله كريم. سأخلص نفسي بنفسي».

ومضي وقته في تفحص الأشياء، والتعرف على سبيل هربه. يسير في القرية صافراً، أو يقعد ليصنع شيئاً يدوياً، يصنع دمي من الطين، أو يضفر مضفورات من الأغصان. وكان جيلين بارعاً في كل عمل يدوي. صنع ذات مرة دمبة لها أنف ويدان ورجلان، وعليها رداء تتري، ووضع الدمبة على السطح.

مرت تتريات للاستقاء. ورأت ديناً، ابنة مالكه، الدمبة، ودعت التتريات. تركن جرارهن، ينظرن، ويضحكن. أنزل جيلين الدمبة، وقدمها لهن. وهن يتضحكن ولا يجروئن على تناولها. وضع الدمبة، وانصرف إلى السقيفة، ينظر ماذا سيحدث.

ركضت دينا، وتلفتت، واختطففت الدمية، وهربت.

ويتطلع في اليوم التالي، فيرى دينا تخرج على عتبة بيتها عند الفجر، تحمل الدمية، وقد زينتها بالخرق الحمراء، ونهدهدها كالطفلة، وتترنم لها بلغتهم. خرجت أمها العجوز، وشرعت تفرعها، واختطففت الدمية، وحطمتها، وأرسلت دينا في شغل.

صنع جيلين دمية أخرى، أحسن من الأولى، وأعطاهما لدينا.

ذات مرة جلبت دينا جرة صغيرة، ووضعتها، وجلست تنظر إليه، وتضحك، وتشير إلى الجرة الصغيرة.

ويفكر جيلين مع نفسه: «ما هذا الذي يشير ضحكها؟». تناول الجرة، وأخذ يشرب مما فيها. يظنه ماء، فإذا هو حليب. شرب الحليب، ويقول «لطيف». وتضاعفت فرحة دينا كثيراً!

. لطيف، إيفان، لطيف!

ووثبت قائمة، وصفت بيديها، وانتزعت الجرة، وركضة منصرفة.

ومنذ ذلك الحين أخذت دينا تجلب الحليب إليه كل يوم خلسة. والتتار يصنعون من حليب الماعز رقائق، ويجففونها على السطوح، وهذه أيضاً كانت تجلبها إليه خلسة. وحين نحر المالك خروفاً، جلبت إليه قطعة من لحم الضأن في ردها. تلقبها، وتنصرف راكضة.

ذات مرة وقعت عاصفة رعديّة شديدة، وانصب المطر طوال ساعة، وكأنما ينسكب من قرية. وجاشت الجداول بالماء، في مخاضة العبور، وارتفع الماء هناك ثلاثة أذرع، وراح يقلب الصخور.

والنهرات تهدر في كل مكان، والهدير يدوي في الجبال. وحالما هدأت العاصفة، راحت الجداول تسيل في كل أرجاء القرية. طلب جيلين

من سيدة سكيناً، ونحت محوراً وألواحاً وهياً عجلة، وثبت دميّتين على العجلة من كلا جانبيها.

جلبت الفتيات له خرقاً، فكسى الدميّتين. إحداهما بلباس رجل، والأخرى بلباس امرأة، وضبطهما، ووضع العجلة على جدول. فتدور العجلة، وتتقاذز الدميّتان.

اجتمعت القرية كلها صبياناً، فتيات، نساء. وجاء رجال أيضاً، يتمطقون بألستهم.

آه، أوروس! أوه، إيفان!

كانت لدى عبد المراد ساعة روسية معطلة. دعا جيلين، وراح يشير إليها، ويتمطق بلسانه. فيقول جيلين:
- أعطها لي لأصلحها.

أخذها. فك أجزاها بالسكين. رتب هذه الأجزاء أمامه، وجمعها من جديد، وأعادها. فإذا الساعة تعمل.

فرح المالك. جلب إليه قفطانه القديم، المهلهل، وأهداه له. قبله جيلين مضطراً. هذا أيضاً يتفع، يتغطى به ليلاً.

ومنذ ذلك الحين شاع أن جيلين صانع ماهر. أخذوا يتوافدون عليه من قرى بعيدة. بعضهم يجلب متراس بندقية أو مسدساً ليصلحه، وبعضهم ساعة. وجلب المالك إليه أدوات: كلابتين، مثاقب، مبرداً.

مرض تترى ذات مرة. جاءوا إلى جيلين بدعونه لعلاج. وجيلين لا يعرف كيف يعالج المرضى. ذهب وفحص. وهو يفكر «أظنه سيشفى لحاله». عاد إلى السقيفة. تناول شيئاً من الماء، والرمل، وخلطهما.

ووسوس على الماء بحضور التتار، وأعطاه ليشربه المريض. وشفي

المريض لحسن حظه. أخذ جيلين يفهم لغتهم قليلاً. وبعض التتار ألفوه. وعند الحاجة ينادونه «إيفان، إيفان!»، وبعضهم ظل ينظر إليه شزراً، وكأنه وحش.

لم يحب التتري الأحمر جيلين. ما أن يراه حتى يتجههم، ويعرض عنه أو يشتمه. وكان هناك عجوز أيضاً لا يسكن القرية، بل كان يأتي من سفح الجبل. كان جيلين لا يراه إلا حين يأتي ليصلي في المسجد. كان قصير القامة، يلف فوطة بيضاء على قبعته. لحيته وشارباه مشذبة بيضاء كالريش وجهه متغضن، أحمر كالقرميد. أنفه معكوف كأنف العقاب. يسير لابساً عمامته، متكناً على عكازة، ينظره ما نظرة الذنب. وما أن يرى جيلين، حتى يفتح، ويشيح وجهه.

ذات مرة جاء جيلين إلى سفح الجبل ليرى أين يسكن العجوز. نزل في درب، فرأى حديقة صغيرة، وسياجاً حجرياً، ومن وراء السياج رأى كرزاً، ومشمشاً مجففاً، وبيتاً خشبياً صغيراً ذا سطح مستو. اقترب، فشاهد بيوت نحل، مصفورة من القش، والنحل يطير، يطن. أما العجوز فكان يركع قرب بيت نحل ينشغل بشيء ما. صعد جيلين أعلى، ليعاين، طقق القيد. يلتفت العجوز، وتصدر منه زعقة، يختطف المسدس من تحت حزامه، ويطلق النار على جيلين. كادت الرصاصة تصيبه، لو لم يلحق ليحتمي وراء صخرة.

جاء العجوز ليشتكيه إلى مالكة. دعا المالك جيلين. ويضحك المالك، ويسأل:

لماذا ذهبت إلى العجوز؟

لم أرد أن أمسه بسوء. أردت أن أرى كيف يعيش.

نقل المالك كلامه. يحتدم العجوز، ويهس، ويرطن بشيء. وتبرز أنيابه، ويشمر ذراعيه على جيلين.

لم يفهم جيلين كل شيء، ولكنه فهم أن العجوز يأمر المالك بأن يقتل الروسيين، ولا يبقيهما في القرية. انصرف العجوز.

أخذ جيلين يسأل سيده: أي رجل هذا العجوز؟ فيقول المالك:

- رجل كبير! كان أول جيكييت. قتل روساً كثيرين، وكان غنياً.

كانت له ثلاث زوجات، وثمانية أبناء، كان جميعهم يعيشون في قرية واحدة. وجاء الروس، وهدموا القرية، وقتلوا سبعة من أبنائه. وبقي ابن واحد انحاز للروس. سافر العجوز، وانحاز أيضاً للروس. وعاش عندهم ثلاثة أشهر، ووجد ابنه، وقتله بيده، وهرب. ومنذ ذلك الحين ترك القتال، وسافر إلى مكة للحج. ولأجل ذلك صارت له عمامة. من يسافر إلى مكة يسمى حاجاً، ويلف عمامة. إنه لا يحب قومك، ويأمرني بأن أقتلك، ولكن لا يجوز أن أقتلك، فقد دفعت عنك نقوداً. كما إنني. يا إيفان، أحببتك ولولا الكلمة التي أعطيتها لما تركتك ترحل، فكيف أن أقتلك. ويضحك، ويرطن بالروسية كلمات مفككة.

- ٤ -

عاش جيلين على هذا النحو شهراً. في النهار يتجول في القرية، أو يصنع شيئاً يدوياً. وحالما يهبط الليل، وتسكن القرية، يحفر في السقيفة، وكان من الصعب الحفر في الصخور. فكان يبرد الصخور بالمبرد، حتى صنع ثقباً تحت الجدار يتسع لجسمه. ويفكر مع نفسه: «فقط أن أتعرف على المكان جيداً، لأعرف إلى أي جهة أنجه. إلا أن التتار لن يدلوه.

واختار للهروب ساعة رحيل المالك. خرج بعد الغذاء إلى الجبل، وراء القرية يريد أن يتفقد المكان من هناك. ولكن المالك ساعة رحيله، كان قد أمر ابنه الصغير بأن يلاحق جيلين، وألا يصرف عنه بصره. ويركض الصغير وراء جيلين، ويصيح:

« لا تذهب! نهى أبي عن ذلك. سادعو الناس حالاً.

راح جيلين يستميله، ويقول:

« أنا لا أذهب بعيداً. فقط أن أصعد إلى هذا الجبل. لأجمع العشب.

وأعالج قومكم. لنذهب سوية. فأنا لا أستطيع الفرار، والقيد في رجلي. وبالمقابل سأصنع لك قوساً وسهاماً يوم غد.

وأقنع الصغير، وذهبا. الجبل يبدو غير بعيد، إلا أن القيد يعيقه.

سار جيلين وسار، حتى صعد الجبل بعسر شديد. وجلس، وراح يتفحص

المكان. في الجنوب، وخلف الجبل وهدة، ورعيل من الخيول يسرح، وفي

المنخفض قرية أخرى. وبعد القرية جبل آخر أشد ارتفاعاً. ووراء هذا

الجبل جبل آخر. وبين الجبلين تلوح غابة مزرقّة، وبعدها جبال أخرى ترتفع

أعلى فأعلى أكثرها ارتفاعاً جبال بيضاء، كالسكر، قائمة تحت الثلج.

وأحد الجبال الثلجية يقف كالقبة أعلى من الجبال الأخرى. والجبال لا

تتغير في الشروق والغروب. وفي الشعاب الجبلية قرى ترسل أدخنتها.

ويفكر جيلين « تلك هي ناحيتهم ». وراح ينظر إلى الجانب الروسي: تحت

قدميه نهير صغير، قريته التتية، والحدائق فيما حوله. وفي النهر تقعد

النسوة كالدمى الصغيرة يشظفن غسيلهن. ووراء القرية، إلى الأسفل،

جبل، وبعده جبالان آخران، عليهما غابة. وبين الجبلين يلوح مكان منبسط

مزروق. وعلى هذا المكان المنبسط، في المدى البعيد ما يشبه الدخان

المفروش. أخذ جيلين يتذكر أين كانت تشرق الشمس وتغرب، حين كان يقيم في منزله في القلعة. ويدقق النظر. لا بد أن قلعتنا في هذا الوادي بالضبط. وبين هذين الجبلين بالذات يجب أن يسلك طريقه إلى الهروب. أخذت الشمس تأفل، والجبال الثلجية تتحول من بيضاء إلى قرمزية، وتعمت الجبال الداكنة، ويتصاعد بخار من الوهدة، وذلك الوادي، حيث توجد قلعتنا، على ما يبدو، يشتعل بالشفق وكأنما يشتعل بنار. راح جيلين يمعن النظر. في الوادي يتراءى شيء كأنه دخان خارج من مدخنة. فيتصور أن ذلك هو القلعة الروسية.

حل العشاء. وتردد آذان المؤذن. القطيع يعود، والأبقار تخور. والصغير لا يفتأ يقول: «لنعد»، وجيلين لا يحب مغادرة المكان. عادا إلى البيت. ويفكر جيلين مع نفسه «الآن أعرف المكان. ويجب أن أهرب». وأراد أن يهرب في تلك الليلة. والليالي كانت مظلمة. القمر في محاقه. ومن سوء الطالع أن التتار عادوا في المساء. أحياناً كانوا يأتون فرحين يسوقون معهم ماشية. وفي هذه المرة لم يسوقوا معهم شيئاً، بل كانوا يحملون على السرج تترياً قتيلاً، هو أخو الأحمر. جاءوا غضاباً، واجتمعوا سوية ليدفنوه. وخرج جيلين أيضاً ليتفرج. لفوا الميت في كفن، بدون تابوت، وحملوه تحت أشجار الدلب وراء القرية، ووضعوه على العشب.

جاء الملا، واجتمع الشيوخ، وشدوا القوط وتعمموا حول قبعاتهم، وخلعوا أحذيتهم، وجلسوا جنباً إلى جنب على أعقابهم أمام الميت. الملا في المقدمة، وخلفه ثلاثة شيوخ في عمام، وإلى جانبهم، وإلى الخلف منهم تتار آخرون. جلسوا مطرقين صامتين. وطال صمتهم. رفع الملا رأسه وقال كلمة واحدة:

الله!

وعادوا فنكسوا رؤوسهم، وصمتوا طويلاً، لا يبدون حراكاً. رفع الملا رأسه ثانية ويقول:

الله! - وصاح الجميع: «الله». وغرقوا في صمتهم مرة أخرى. الميت راقد على العشب ساكن لا يريم وهم أيضاً ساكنون كالموتى. لا يتململ واحد منهم. وأوراق الدلب الصغيرة وحدها تتقلب من النسيم. ثم تلا الملا دعاء. ونهض الجميع. رفعوا الميت على أيديهم. وحملوه إلى حفرة. الحفرة ليست بسيطة، بل لها تجويف جانبي كالسرداب. حملوا الميت من إبطيه ومن ظهر ركبتيه، وطووه وأنزلوه باحتراس، ودسوه في التجويف قاعداً، وعدلوا بديه على بطنه.

جلب النوغاني قصباً أخضر، وغطوا الحفرة به، ونثروا التراب عليها على عجل وسوها، ووضعوا حجراً قائماً في موضع رأس الميت. ودكوا الأرض بأقدامهم. وجلسوا ثانية جنباً إلى جنب أمام القبر. وصمتوا طويلاً.

الله! الله! الله! - وتنهذوا، ونهضوا.

وزع الأحمر النقود على الشيوخ، ثم نهض، وتناول سوطاً، ولطم به جبهته ثلاث مرات، وعاد إلى بيته.

في صباح اليوم التالي يرى جيلين الأحمر يقود فرساً وراء القرية، وخلفه ثلاثة تثار. طلّعوا من القرية. خلع الأحمر قفطانة. طوى رذنيه. ذراعاه ناصحتان، أخرج خنجرأ، شحذه على مسن. رفع التثار رأس الفرس إلى الأعلى. تقدم الأحمر، وشق حلقوم الفرس، وألقاها أرضاً، وراح يسلمخها، داساً قبضتيه تحت جلدها. جاءت نسوة وفتيات، وأخذن

يفسلن الأمعاء والأحشاء الأخرى. ثم قطعوا الفرس أجزاءً، وحملوها إلى البيت. واجتمعت القرية كلها في بيت الأحمر للنواح على الميت. ظلوا يأكلون لحم الفرس ثلاثة أيام، وشربون البوزة، ويكون على الميت. كان التتار جميعهم في القرية لا يهرحونها. وفي ظهيرة اليوم الرابع يراهم جيلين يتهبأون للطلوع. أخرجوا خيولهم، وأعدوا أنفسهم، وخرجوا زهاء عشرة أشخاص، وخرج الأحمر أيضاً. ولم يبق في بيته إلا عبد المراد. كان الهلال في أوله، والليالي ما تزال ظلماء.

ويفكر جيلين مع نفسه: «يجب أن أهرب اليوم» ويخبر كوستيلين. ولكن كوستيلين يعلن عن مخاوفه.

. ولكن كيف نهرب؟ حتى الطريق لا نعرفه.

. أنا أعرف الطريق.

. ثم إن الليل لا يكفينا للوصول.

. سنبيت في الغابة، إذا لم نصل. هيأت أرغفة. فلماذا تظل قاعداً؟

لطيف أن يرسلوا النقود. ولكن ربما لا يجمعونها. والتتار الآن حانقون، لأن الروس قتلوا واحداً منهم. يتحدثون فيما بينهم، ينوون قتلنا.

فكر كوستيلين ملياً.

. إذن، لنذهب.

. ٥ .

انسل جيلين من الشفرة، ووسعها ليستطيع كوستيلين أن ينسل منها هو الآخر، ويجلسان منتظرين أن تسكن القرية.

ما كاد الناس في القرية يخلدون إلى بيوتهم، حتى انسل جيلين من

تحت الجدار، وخرج. ويهمس لكوستيلين: «انسِل». انسِل كوستيلين أيضاً. ولكنه تعثر على حجر برجله، وأحدث صوتاً. وكان لصاحب البيت حارس: كلب حاد الطبع، يسمونه «أولياشين». كان جيلين قد أطعمه مقدماً. سمع أولياشين الصوت.

فأخذ ينيح: واندفع، وراء كلاب أخرى. صفر جيلين صفيراً خفيفاً، ورمى قطعة خبز. عرفه أولياشين. أطبق ذيله. وكف عن النباح. سمع صاحب البيت النباح. فرد عليه من داخل البيت «غابت! غابت! أولياشين!».

وجيلين يحك أولياشين من خلف اذنيه. ويصمت الكلب، ويحتك بقدميه، ويحرك ذيله.

لبثا وراء المنعطف بعض الوقت. هداً كل شيء. لا شيء غير سعال الغنم في الزريبة، وخرير الماء بين الصخور في الأسفل. ظلام. النجوم عالية في السماء الهلال أخذ يحمر فوق الجبل، وقرناه إلى الأعلى. في الوهاد ضباب يبدو أبيض كالحليب. نهض جيلين، ويقول لرفيقه «هيا، يا أخ، لنذهب!».

غادرا مكانهما. وما كادا يتعدان، حتى سمعا أذان الملا على السطح: «الله! بسم الله! الرحمن!»* يدعو الناس إلى المسجد. كمنا ثانية مختفين تحت جدار واطئ. قعدا وقتاً طويلاً، ينتظران أن يمر الناس. ساد الهدوء مرة أخرى. والآن، في رعاية الرب! - رسماً علامة الصليب، وسارا.

* هكذا ورد في الأصل، والتعريف واضح. المترجم.

اجتازا الفناء، تحت المنحدر نحو الجدول. وقطعا الجدول. وسارا في الوهدة. وجيلين يهتدي بالنجوم ليعرف الجهة التي يسلكها. في الضباب طراوة، والسير سهل، سوى أن الحذاء غير مريح لميلان كعبه من كثرة الاستعمال. خلع جيلين حذاءه، وألقاه، وسار حافياً. ويقفز من صخرة إلى أخرى، ويعاين النجوم. أخذ كوستيلين يتأخر عنه. يقول:

ـ على مهلك. حذائي لعين حك قدمي كلها.

ـ اخلعه، وسيسهل عليك المشي.

سار كوستيلين حافياً. فكان الخفي أسوأ عليه. جرحت الصخور كل قدميه، فظل يتأخر. ويقول جيلين له:

ـ لا بأس عليك إذا جرحت قدميك. سيندملان. ولكن إذا لحقوا بك قتلوك. وهذا أسوأ.

وكوستيلين لا يقول شيئاً. يسير ويئن لا غير. سارا في الوهدة وقتاً طويلاً. وهما يسمعان الكلاب تنبح إلى اليمين. توقف جيلين. أجال بصره فيما حوله. تسلق في الجبل، متمسكاً طريقه بيديه. ويقول:

ـ أوه، أخطأنا الطريق. انحرفنا يمينا. هذه قرية أخرى. رأيتها من الجبل. يجب أن نعود، ونميل يساراً في الجبل. هناك غابة، على الأرجح. ولكن كوستيلين يقول:

ـ انتظر قليلاً، على الأقل، دعني أستريح. قدماي دامبتان كلية.

ـ أوه، يا أخي، سيندملان. أقفز بخفة أكثر. هكذا!

أخذ جيلين يركض، متجهاً يساراً إلى الجبل، إلى الغابة.

وكوستيلين لا يفتأ يتأخر، ويتوجع. وجيلين يستحثه، ويواصل سيره.

صعدا إلى الجبل. هناك غابة بالفعل. دخلا الغابة. مزقت الأشواك
آخر رداء لهما. وقعا على درب في الغابة. يسيران فيه.
قف!

كرربة على الطريق. توقفا يتسمعان. كركبة، مثل كركبة حصان،
كركبت قليلاً، وتوقفت. تحركا. عادت الكركبة من جديد. يتوقفان،
فتتوقف الكركبة. زحف جيلين، ينظر إلى الطريق في الضوء. هناك
شيء. واقف، يشبه الحصان. وعلى الحصان شيء أسود لا يشبه الإنسان.
حممة. يرهف جيلين السمع. «آية أعجوبة هذه!» ويصفر جيلين صغيراً
خفيفاً. وينطلق شيء هادر من الطريق إلى الغابة، وتهتز الغابة، كأنها
العاصفة، وتتكرر أغصان.

وقع كوستيلين من الذعر. وجيلين بضحك ويقول:
هذا أيل. ألا تسمع الأغصان تتكسر بقرونها؟ نحن نخافه، وهو
يخافنا.

واصلا سيرهما. أخذت الثريا تتفور. الصباح غير بعيد، ولا يعرفان
إلى أين ينجهان ويتصور جيلين أنهم سلكوا هذا الطريق، حين جلبوه،
وأن القلعة لا تبعد الآن إلا ما يقرب عن عشرة فراسخ.
وما من علامة موثوقة يستدل بها. وهناك الليل، والإنسان بصعب
عليه الاهتداء في الليل. خرجا إلى فرجة في الغابة. جلس كوستيلين،
ويقول:

افعل ما تشاء. أما أنا فلن أصل. رجلاي لا تطيعانني.
أخذ جيلين يستميله. ويصر كوستيلين:
كلا، لن أصل. لا أقوى.

احتدم جيلين غيظاً، بصق، شتمه.

ـ سأذهب لوحدي إذن. وداعاً!

وثب كوستيلين قائماً، وسار قاطعاً حوالي أربعة فراسخ. تكاثف الضباب في الغابة أكثر من ذي قبل. والمرء لا يرى أمامه شيئاً. والنجوم لا تكاد ترى.

وفجأة يسمعان كركبة فرس إلى الأمام. يسمعان ارتطام حذواته بالصخر. انبطح جيلين على بطنه، وأخذ يتسمع من خلال الأرض. بالضغط. خيال قادم نحونا.

انحرفا عن الطريق، وقعدا في أجمة ينتظران. زحف جيلين نحو الطريق، فيرى خيلاً تترى قادمًا، يدمدم بينه وبين نفسه. مر التتري. عاد جيلين إلى كوستيلين.

ـ وقانا الرب شره. انهض، لنذهب.

أخذ كوستيلين ينهض، فوقع.

ـ لا أقدر. والله العظيم، لا أقدر. لا قوة لي.

والرجل جسيم، مترهل. فأخذ يعرق. ومسه الضباب البارد في الغابة، وتقرحت قدماء فتفكك. أخذ جيلين ينهضه بالقوة. ويزعق كوستيلين:

ـ آه، بوجعني!

ذهل جيلين ذهولاً شديداً:

ـ ما هذا الصراخ؟ والتتري على مقربة. وسيسمع.

ويفكر في سره: «حقاً إنه وهن. فماذا أفعل معه؟ لا يجوز التخلي

عن رفيق». ويقول:

هيا، انهض. اقعد على ظهري لأحملك، إذا كنت لا تقوى على السير.

وأجلس كوستيلين على ظهره، وأمسك فخذه بيديه، وخرج إلى الطريق يجرجره. ويقول:

فقط أن لا تضغط بيدك على حلقومي، بحق المسيح.
أمسكني من كتفي.

ناء جيلين بحمله. وقدماه دامبتان أيضاً. فأصابه التعب. يحني قامته، ويعدل حمله، يدفعه إلى أعلى، ليستقر عليه بشكل جيد، ويسير مثقلاً به في الطريق.

والظاهر أن التتري سمع صيحة كوستيلين. يسمع جيلين شخصاً يسير وراءه، ويزعق بلغة قومه، اندفع جيلين إلى داخل الأجمة. أشهر التتري بندقيته، وأطلق رصاصة. طاشت الرصاصة فزعق التتري بلغته بشيء ما وانطلق مبتعداً في الطريق.
ويقول جيلين:

وقعنا، يا أخ! سيجمع هذا الكلب التتار الآن، وسيلاحقونا.
سنقع بأيديهم إذا لم نقطع ثلاثة فراسخ. ويقول بينه وبين نفسه عن كوستيلين: «وهذا الشيطان يضايقني. لو كنت وحدي لخلصت بنفسي منذ زمان».

ويقول كوستيلين:

أذهب لوحذك، فلا حاجة لأن توقع نفسك من أجلي.
كلا، لن أذهب. لا يجوز التخلي عن رفيق.
حمله على كتفيه ثانية، وسار ينوء به. سار زهاء فرسخ آخر، عبر

الغابة طوال الوقت، ولا يرى مخرجاً. أخذ الضباب ينقشع، والسحب أيضاً، كما يظهر، ولا يرى نجوماً. تعب جيلين تعباً شديداً.
وجد في الطريق ينبوعاً صغيراً أحيط بالصخور. توقف، وأنزل كوستيلين، ويقول:

- دعني أستريح، وأشرب ماء. ولنأكل رغيفاً، فالقلعة غير بعيدة، على ما يبدو.

وما كاد ينطرح ليشرب، حتى سمع كركبة خلفهما. اندفعا مرة أخرى إلى أجمة، ناحية اليمين، تحت المنحدر واختفيا هناك.
ويسمعان أصوات تثار. توقف التثار في نفس البقعة التي انحرفا منها عن الطريق. تحدث التثار قليلاً، ثم بدا وكأنهم يستعدون الكلاب. يسمعان خشخشة في الأجسام ويتجه نحوهما كلب أسود غريب. توقف الكلب. وراح ينيح.

وينسل تثار، غرباء أيضاً. أمسكوهما، شدوا وثاقهما، وأجلسوهما على حصانين، ومضيا بهما.

ساروا زهاء ثلاثة فراسخ، فبلنقي بهم مالكهما عبد المراد ومعه تتران. تحدث قليلاً مع التترين، أجلسهما على فرسين له، وعادوا بهما إلى القرية.

وعبد المراد لا يضحك، ولا يتكلم معهما كلمة واحدة.
وصلوا بهما إلى القرية عند الفجر، وأنزلوهما في الشارع. وجاء الصبيان متراكضين، يضربونهما بالحجارة، والمقارع، ويزعقون.

اجتمع التثار في حلقة. وجاء العجوز الساكن في سفح الجبل. أخذوا يتكلمون. وسمع جيلين أنهم يتناقشون في شأنهما، وماذا

يفعلان بهما. يقول بعضهم: يجب إقصاؤهما في مكان أبعد في الجبال، ويقول العجوز: «يجب أن يقتلا». وعبد المراد يجادل، ويقول: «دفعت عنهما نقوداً، وسأحصل على فدية عنهما» فيقول العجوز: «لن يدفع لك شيئاً، ولن تحني منهما غير البلايا ومن الإثم إطعام الروس. اقتلتهما، وينتهي الأمر».

تفرقوا. تقدم المالك من جيلين، وصار يقول له:
- إذا لم يرسلوا لقاء، كما فدية، فسأجلدكما حتى الموت بعد أسبوعين. وإذا عمدتما إلى الهرب ثانية، قتلتكما قتل الكلب. اكتباً رسالة، اكتبها بشكل جيد!
جلبوا إليهما أوراقاً. فكتباً رسالتين. شدوا القيد عليهما، واقتادوهما وراء المسجد، حيث كانت هناك حفرة بعمق خمسة أذرع تقريباً، وأنزلوهما في هذه الحفرة.

٦.

صارت عبستهما سيئة تماماً. لم يعودوا يرفعون القيدين عنهما، ولم يطلقوهما خارج الحفرة. كانوا يلقون إليهما عجينة غير مخبوز، كما يلقي للكلاب، وينزلون إليهما جرة ماء. وفي الحفرة نتانة، واحتباس هواء، ورطوبة. تكالب المرض على كوستيلين تماماً، وانهد، ودب الوجع في كل جسمه، فظل يئن أو ينام. وركب المجزع جيلين، فالوضع سيئ. وهو لا يعرف كيف يخرج من الحفرة.
بدأ بحفر الأرض، ولكن أين يلقي التراب؟ رأى المالك ذلك، وهدد بأن يقتله.

يجلس، ذات مرة، في الحفرة مقرصاً، يفكر في الحياة الطلقة، ويحس بالوحشة. وفجأة سقط رغيف خبز على ركبتيه، ثم آخر، وتناثرت حبات الكرز. رفع بصره إلى فوق، فرأى ديناً. نظرت إليه برهة، وضحكت، وانصرفت راكضة. ويفكر جيلين: «لعل ديناً تساعد؟».

نظف في الحفرة موضعاً صغيراً، واستخرج منه الطين، وراح يصنع دمي. صنعها على هيئة رجال، وخيول، وكلاب، ويقول لنفسه: «حالماً تأتي ديناً، سأرميها لها».

ولكن ديناً لم تأت في اليوم التالي. ويسمع جيلين كركبة خيول. جاء رجال، واجتمع التتار عند المسجد يتناقشون، ويتصايحون، ويرد ذكر الروس في كلامهم. ويسمع صوت العجوز.

لم يسمعه بشكل جيد، ولكنه يحدس أن الروس على مقربة، والتتار خائفون من أن يدخلوا القرية، ويجهلون ما يفعلونه، بالأسيرين.

تحدثوا وقتاً، ثم انصرفوا. وفجأة يسمع جيلين خشخشة في الأعلى. فيرى ديناً جالسة القرفصاء، وركبتها تبرزان أعلى من رأسها. أنزلت رأسها، فتدلت قلاذتها، وتأرجحت فوق الحفرة. وعيناها الصغيرتان تلمعان كنجمتين. أخرجت من رذنها فطيرتين بالدبنة، وألقتهما له. تناولهما جيلين، ويقول:

- لماذا لم تأتي منذ زمان؟ لقد صنعت لك لعباً. هذه هي، خذها، - وأخذ يقذفها لها واحدة واحدة. ولكنها تهز رأسها، ولا تنظر.
- لا أريد، - تقول ذلك، وتصمت قليلاً، وتلبث قاعدة، ثم تقول: - إيفان! يريدون أن يقتلوك. - وتشير بيدها إلى رقبته.
- من يريد قتلي؟

أبي. الشيوخ أشاروا إليه بذلك. وأنا مشفقة عليك.

فيقول جيلين:

اجلبي لي عصا طويلة، إذا كنت مشفقة علي.

فتهز رأسها محتنة. طوى ذراعيه، وراح يتضرع إليها.

دينا، أرجوك! اجلبيها لي، يا حلوة!

فتقول:

غير ممكن. الجميع في البيت: وسبروني، - وانصرفت.

ويقعد جيلين في المساء يفكر: «ما العمل؟». ويظل يتطلع إلى

فوق. النجوم طالعة، والهلال لم يطلع بعد. وأذن المؤذن. وهذا كل شيء.

وأخذ جيلين ينعس ويفكر أيضاً: الفتاة خائفة.

وفجأة تناثر طين على رأسه. فرفع بصره إلى فوق. فإذا بعصا

طويلة تتخبط على حافة الحفرة هناك. تخبطت برهة. وراحت تهبط،

وتنزل في الحفرة. فرح جيلين، وأمسكها بيده، وأنزلهما. كانت عصا

متينة. وكان من قبل قد رأى هذه العصا على سطح بيت المالك.

نظر إلى فوق. النجوم تلمع عالية في السماء، وفوق الحفرة تماماً

تلمع عينا دينا في الظلام، مثل عيني قطرة. تطل بوجهها من حافة

الحفرة، وتهمس: «إيفان! إيفان!» وتشور بذراعيها قرب وجهها تريد أن

تقول: «على مهلك، إيفان!».

فيقول جيلين:.

ماذا؟

غادر الجميع، ولم يبق إلا اثنان في البيت.

فيقول جيلين:

. هيا، كوستيلين، لنذهب. لنحاول للمرة الأخيرة. سأعينك.
وكوستيلين لا يريد حتى سماع ذلك. فيقول:
. لا. يظهر أنني لن أخرج من هنا. إلى أين أذهب، وأنا لا أقوى
حتى على أن أدير جسمي؟
. إذن، وداعاً، لا تعتب علي.
وتبادلا القبل.

أمسك بالعصا، وطلب من دينا أن تمسكها، وتسلق عليها. أفلت
مرة أو مرتين، فقد كان القيد يعيقه. أسنده كوستيلين، فصعد إلى فوق
أخيراً. وتجذبه دينا بيديها من قميصه، بكل ما لها من قوة، وتضحك.
أخذ جيلين العصا، ويقول:

. أعيدوها إلى مكانها، يا دينا. فقد يتذكرونها، ويضربونك.
أخذت العصا، بينما سار جيلين إلى سفح الجبل. وتسلق المنحدر،
وأخذ حجراً حاداً، وأخذ يعوج قفل القيد. القفل قوي، فلا ينكسر، وفي
الأمس خرج. ويسمع جيلين شخصاً ينزل من الجبل، قافزاً بخفة. ويفكر:
«لعلها دينا مرة أخرى». جاءت راکضة، وتتناول الحجر وتقول:
. هات عنك.

جلست على ركبتها، وأخذت تلوى القفل. ولكن يديها رقيقتان
كعودين. ولا تقوى على ذلك. ألقت الحجر. وأخذت تبكي. وعاد جيلين
يعالج القفل من جديد، وقد جلست دينا القرفصاء جنبه، تمسك بكتفه.
أجال جيلين بصره، فرأى وراء الجبل وهجاً أحمر يأخذ بالتوهج. الهلال
يطلع. ويفكر جيلين: «يجب أن أقطع الوهدة وأصل إلى الغابة قبل
طلوع القمر». نهض جيلين، وألقى الحجر. إذ يجب أن يذهب، ولو
بالقيد. فيقول:

ـ وداعاً، يا ديننا، سأذكرك طوال عمري.

أمسكته ديننا، وتلمسته بيديها، تبحث أين تضع الأرجفة له.
تناول جيلين الأرجفة، ويقول:

ـ شكراً، عاقلة. من يصنع لك الدمى بعدي؟ ـ ومسد على رأسها.

وتبكي ديننا، حاجبة وجهها بيديها، وركضت في الجبل، قافزة
كالعنزة. وفي الظلام لا تسمع إلا وسوسة القطع المعدنية في ضفيرتها،
وهي تتقافز على ظهرها.

رسم جيلين علامة الصليب، وأمسك قفل القيد بيده، حتى لا يصدر
صوتاً، وسار في الطريق معوجاً قدمه، مديم النظر إلى الوهج، حيث
القمر آخذ بالطلوع. وكان يعرف الطريق الذي يسلكه، أن يسير باتجاه
مستقيم حوالي ثمانية فراسخ. فقط أن يصل إلى الغابة قبل أن يطلع
القمر تماماً. قطع جدولاً. كان النور يلوح قليلاً وراء الجبل. سار في
الوعدة، يتطلع أثناء سيره. القمر لم يطلع بعد. الوهج صار فاتح اللون،
وتتنور ناحية من الوعدة أكثر فأكثر. ويزحف ظل على سفح الجبل، ظل
يقترّب منه ويقترّب.

ويسير جيلين ملازماً الظلال طوال الوقت. ويسرع جيلين، والقمر
يطلع أسرع منه. وإلى اليمين أخذت قمم الجبال تتنور. صار يقترّب من
الغابة. القمر طلع من وراء الجبال، تنورت الدنيا. واستضاءت تماماً، كما
في النهار. وأوراق الشجر كلها تلوح للعيان. والجبال هادئة متنورة، كأن
كل شيء قد لفه الموت. لا يسمع غير خرير جدول في الأسفل.

وصل جيلين إلى الغابة، دون أن يصادف أحداً. واختار مكاناً أكثر
ظلاماً، وجلس ليستريح.

استراح، وأكل رغيف الخبز. ووجد حجراً وعاد يعمل ليكسر قيده. قرح يديه كلتاهما، ولم يكسر القيد. نهض، وسار في الطريق. سار زهاء فرسخ، وأنهكت قواه، وقدماه تشنان عليه. سار خطوات عشرة أو نحوها، وتوقف. ويفكر: «لا مفر من الأمر. سأجر نفسي، ما دامت لي قوة. لو جلست، لن أستطيع أن أنهض. لا أصل إلى القلعة في هذه الليلة. عند الفجر، سأرقد في الغابة، وأقضي النهار فيها، وفي الليل أواصل السير».

سار الليل بطوله. لم يصادف غير تترين على فرسين. سمعهما جيلين من بعيد، فاخباً وراء شجرة.

أخذ القمر يشحب، وتساقط الندى، والفجر قاب قوسين أو أدنى إلا أنه لم يصل إلى حافة الغابة. ويفكر مع نفسه: «سأقطع ثلاثين خطوة أخرى، وانحرف إلى الغابة، وأقعد هناك». قطع ثلاثين خطوة، فيرى الغابة توشك أن تنتهي. خرج إلى حافتها. الدنيا متنورة تماماً، وأمامه السهل والقلعة مكشوفان له وكأنهما على راحة كفه، وإلى اليسار، على مسافة دانية، عند سفح الجبل، تشتعل نيران، وتهمد، وينتشر دخان، والناس قرب النيران.

يعلن النظر، فيرى البنادق تتلأأ. قوزاق، جنود.

فرح جيلين، وجمع بقايا قواه، وسار في سفح الجبل. وهو يقول لنفسه: «معاذ الله لو رأي في هذه الأرض المنبسطة خيال تترى. فلن أتخلص، ولو أنني قريب من جماعتي».

وما كاد يدبر ذلك في ذهنه، وينظر، حتى يرى ثلاثة تترين واقفين على رابية على بعد أذرع. رأوه، فنزلوا إليه. تفتت قلبه كمدأ وانقطاعاً. راح يلوح بيديه، ويصيح:

ـ إخواني! أنقذوني! أخواني!

سمعه رجالنا. وطلع قوزاق فرسان. ونزلوا نحوه يعترضون التتريين. القوزاق أبعد عنه، والتتريون أقرب. ثم إن جيلين جمع آخر ما لديه من قوة، وأمسك القيد بيده، وركض نحو القوزاق، غير واع بنفسه، يرسم علامة الصليب، ويصيح:

ـ إخواني! إخواني! إخواني!

خاف التتريون، ولما لم يبلغوه، أخذوا يتوقفون. ووصل جيلين إلى القوزاق.

أحاط به القوزاق يسائلونه «من أنت، ومن أين؟» وجيلين لا يعي نفسه، يبكي ويردد:

ـ إخواني! أخواني!

جاء الجنود متراكضين، واجتمعوا حوله. منهم من يقدم له خبزاً، ومن يقدم عصيدة، ومن يقدم فودكا، ومن يذرته بمعطف، ومن يكسر القيد عنه.

عرفه الضباط، وأخذوه إلى القلعة. وسر الجنود، واجتمع الرفاق في غرفة جيلين.

روى لهم جيلين كل ما وقع له، ويقول:

ـ وها أنتم ترونني منذ سافرت إلى أهلي. وتزوجت! لا! الظاهر هذا

هو نصيبي.

وبقي يخدم في القفقاس. أما كوستيلين، فلم يعتق إلا بعد شهر بفدية قدرها خمسة آلاف روبل. وجاءوا به، وليس فيه من الحياة غير رمق.

عام ١٨٧٢

روايات قصيرة وقصص ملاحظات

في علم الأدب لم تتحدد حتى يومنا هذا المعالم الدقيقة التي تميز أشكال الأعمال الأدبية بعضها عن بعض. وينطبق هذا بشكل خاص على أشكال النثر كالقصة والرواية القصيرة. وكثيراً ما يسمي الباحثون في إبداع ل. ن. تولستوي عملاً واحداً من أعماله بالقصة تارة، وبالرواية القصيرة تارة أخرى. ويسري هذا الأمر، بشكل خاص، على العاملين اللذين يضمهما كتابنا، وهما: «بوليكوشكا»، و«الذراع».

وتبعاً لهذا الرأي نستطيع أن ننسب «بوليكوشكا» و«الذراع» من بين كل الأعمال الموجودة في هذا الكتاب إلى شكل الرواية القصيرة، معتبرين جميع الأشياء الأخرى فيه قصصاً.

وبعد هذه الملاحظة التمهيدية نتوقف بشكل موجز على تاريخ كتابة كل عمل من الأعمال المجموعة في هذا الكتاب. وعلى المادة الحياتية التي وضعت في صلبه، ونذكر تاريخ صدوره لأول مرة، وبعض آراء قرائه ونقاده الأوائل.

غارة

في هذه القصة يصور تولستوي الشاب لأول مرة الانطباعات التي تركها القفقاس في نفسه، حيث سافر إليه ربيع ١٨٥١، والحرب التي اندلعت هناك في ذلك العام ضد الجبلين، حيث اشترك فيها بصفة متطوع في بادئ الأمر، وبعد ذلك كطالب عسكرية وكضابط شاب.

بعض الشخصيات المرسومة في «غارة» مستوحاة من نماذج واقعية لضباط في جيش القفقاس تعرف عليهم تولستوي بعد أن انضم إلى الوسط العسكري. فالضابط العجوز خلويوف، على سبيل المثال، قريب الشبه بالرائد خيلكوفسكي الذي كان يخدم مع تولستوي، والذي كان تولستوي يكن له عطفاً كبيراً («الجندي العجوز، البسيط، والنبيل في الوقت ذاته، والشجاع والطيب النفس»).

نشرت «غارة» في العدد الثالث من مجلة «سوفرنيك» لعام ١٨٥٣، وقد أعجب تورغينيف بهذا العمل إعجاباً شديداً، كما كتبت ت. أ. يرغولسكيّا خالة تولستوي. وقال تورغينيف عن مؤلفها بعد أن قرأها وقرأ روايته القصيرة «المراهقة»: «إذا كان هذا الشاب سيستمر كما بدأ... فإنه سيذهب بعيداً».

ثلاث ميّات

كتب تولستوي قصة «ثلاث ميّات» في كانون الثاني عام ١٨٥٨. وصدرت في عدد كانون الثاني من مجلة «مكتبة المطالعة» لعام ١٨٥٩.

كتبت «ثلاث ميّات» خلال بضعة أيام. وقد راقّت القصة للمؤلف كثيراً، وهو الذي يزن أعماله بطريقة صارمة جداً.

كتب تولستوي إلى أصدقائه القريبين، موضحاً فحوى تلك الرواية، فقال إنه كان يريد في هذه القصة أن يمس القضية الفلسفية عن الحياة والموت، ويظهر في الوقت ذاته أفضلية البسطاء من الشعب على الأرستقراطيين، الذين كان موقف الكاتب منهم يزداد انتقاداً عاماً بعد عام. قيم الناقد الشهير د. ي. بيساريف قصة «ثلاث ميتات» تقيماً عالياً، وذلك في مقالته المنشورة في مجلة «راسفيت» (العدد ١٢ لعام ١٨٥٩). ويتحدث بيساريف في هذه المقالة عن تولستوي كـ «سايكولوجي عميق» ويرى أن ما من أحد من الكتاب «تعمق في نفس الإنسان» كما فعل تولستوي. ويطور يساريف في مقالته الأفكار التي طرحها ن. غ. تشيرنيشيفسكي في مطالعاته عن خصائص طريقة تولستوي الفنية.

بوليكوشكا

حصلت الوقائع الموصوفة في قصة «بوليكوشكا» في ضيعة الأمراء من آل دوندوكوف. كورساكوف، وهي الضيعة الموجودة في ولاية بسكوف. إلا أن النماذج الأصلية لبطل القصة الفلاح بوليكي والشخصيات الأخرى استوحاها الكاتب من فلاحين أقنان وخدم، كانوا يعيشون في قرية وبيت ضيعة ياسنيا بولانا.

في يوميات تولستوي في نهاية الخمسينات جاء ذكر اسم الفلاح الخادم بوليكي غير مرة. وأسماء عوائل الفلاحين الموصوفة في القصة أسماء من ياسنيا بولانا. وهي عوائل دوتلوف وبرميلين، وكوبيلوف، وريزانوف، وكان تولستوي يعرف حياتها ومعيشتها معرفة جيدة. كما أن

تولستوي استقى شخصيتي الوصيفة أغافيا ميخايلوفنا، ووكيل الأعمال يغور ميخايلوفيتش من واقع ياسنيا بولانا أيضاً.

ومسكن الخدم في ياسنيا بولانا كما يذكر س. ل. تولستوي، ابن الكاتب الأكبر، يشبه إلى حد كبير ذلك «الجناح» ذا العشرة أذرع، حيث كان بوليكوشكا ينزوي مع عائلته في أحد أركانه.

وحتى الحصان الأبقع العريض العظام باريان كان في ياسنيا بولانا.

وقد ذكر تولستوي في يومياته أنه لشيخوخته أطلق ليرعى.

وقد حمل الأشراف من مالكي الأبقان تولستوي على ترك الوسطاء المصالحين الذين كانوا يشتغلون في تطبيق الإصلاحات، وقد أسخطهم أنه حسم جميع المسائل المتنازع عليها بين مالكي الأراضي والفلاحين «المعتوقين» من تبعية القنانة، لصالح الفلاحين.

فلا عجب أن يستقبل المنتقدون من مالكي الأبقان أعمال الكاتب الشبيهة بقصة «بوليكوشكا» بعداء سافر.

نشرت هذه الرواية القصيرة لأول مرة في عدد شباط من مجلة «روسكي فيستنيك» لعام ١٨٦٣.

الذراع

في أواسط الخمسينات سمع ل. ن. تولستوي من صديقه الأديب أ. أ. ستاخوفيتش قصة حصان عداء شهير، كان يسمى بـ «الذراع» «مشيته الطويلة المتساوقة». وفي ذلك الحين سجل تولستوي في يومياته: «أود أن أكتب قصة حصان».

لم يحاول تحقيق هذه الرغبة إلا بعد خمسة أعوام، حين كتب في

أعوام ١٨٦١ - ١٨٦٣ الصيغة الأولى للرواية القصيرة عن «الذراع» على شكل مسودة. إلا أن عمله على هذه الرواية قد توقف. فقد كانت رواية «الحرب والسلام» تشغل كل أفكار الكاتب في ذلك الحين. ظهرت «الذراع» في صيغتها المعالجة من جديد، والمطولة، - في «الأعمال الكاملة لليف ن. تولستوي» (١٨٨٥، الجزء الثالث).

أسير القفقاس

في عام ١٨٧٢ أصدر تولستوي «الأبجدية» التي صارت الكتاب المدرسي الأول لأجيال عديدة من الأطفال الروس. وكل جزء من أجزائه الأربعة يتألف من نوادر وحكايات، وألغاز، وأمثال، وقصص ممتعة. وقد اهتم تولستوي في أن يكون كل شيء في «أبجديته» «جميلاً، موجزاً، بسيطاً، والأهم من ذلك أن يكون واضحاً». وقد وجد الكاتب أن «أسير القفقاس» الذي كتبه لـ «الأبجدية» يستجيب كلياً لهذه المتطلبات. وأعجبت هذه القصة إعجاباً شديداً حتى إنه اعتبرها في أطروحته «ما هو الفن؟» من بين الأعمال النموذجية للفن «العالمي» الميسر للجميع.

يكتب يوري الكسيفيتش غاغارين الملاح الفضائي الأول في العالم، لدى تذكره سنوات تعلمه أنه «في ذلك الحين وقع في يدي الكتاب الذي ترك أثراً لامعاً في حياتي كلها. إنه قصة تولستوي «أسير القفقاس». فقد أعجبت كثيراً بالضابط الروسي جيلين، وبصلايته وجراته. إن مثل هذا الإنسان لن يفشل أبداً.

حين وقع في الأسر حرب، بل وساعد على هروب كوستيلين الضعيف

الإرادة. والتتريّة دينا كانت أسرة. وكنت حين أعيد قراءة القصة أقارن أبطالها دائماً بمعارف لي. فإن أخي فالنتين قد هرب أيضاً من الأسر. وقد وجدت فيه ملامح جيلين المحبوب لي» (ي. غارغارين. الطريق إلى الفضاء. موسكو، ١٩٦٩، صفحة ١٩).

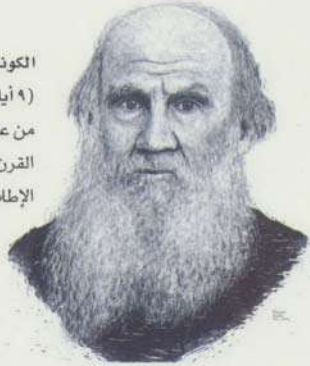
محتويات

19	غارة
57	الفارسان
145	ثلاث مينات
167	بوليكوشكا
255	الذراع
309	أسير القفقاس

الكونت ليف نيكولايفيتش تولستوي

(٩ أيلول ١٨٢٨ - ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٠)

من عمالقة الروائيين الروس ومن أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر والبعض يعتبره من أعظم الروائيين على الإطلاق.



ليو تولستوي روائياً ومصلحاً اجتماعياً وداعية سلام ومفكراً أخلاقياً. أضمر الكاتب الروسي احتراماً خاصاً للأدب العربي، والثقافة العربية، والأدب الشعبي العربي، فعرف الحكايات العربية منذ طفولته. عرف حكاية "علاء الدين والمصباح السحري" وقرأ "ألف ليلة وليلة"، وعرف حكاية "علي بابا والأربعون حرامي"، وحكاية "قمر الزمان بين الملك شهرمان"، ولقد ذكر هاتين الحكايتين ضمن قائمة الحكايات التي تركت في نفسه أثراً كبيراً، قبل أن يصبح عمره أربعة عشر عاماً.

كفيلسوف أخلاقي اعتنق أفكار المقاومة السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب (مملكة الرب داخلك) وهو العمل الذي أثر على مشاهير القرن العشرين مثل المهاتما غاندي ومارتن لوتر كينج في جهادهما الذي اتسم بسياسة المقاومة السلمية النابذة للعنف.

إن القصص والروايات القصيرة المنشورة في هذا الكتاب كتبها هذا الكاتب الروسي العبقري على مدى نصف قرن، وتشمل نماذج من مجمل إبداعه.

كتب ألكسندر بوشكين: "كلمات الشاعر هي أفعاله". وهذه حقيقة عظيمة تنطبق بدرجة غير اعتيادية على ليف تولستوي الذي ظل يتحدث ويكتب بإخلاص متناه عمّا توصّل إليه بضروب الاستقصاء الروحي المجهد، والمعاناة المضنية. وقد كتب في يومياته: "يقتلع الشاعر من حياته أفضل ما لديه، ويضعه في إبداعه" و"كتابتي هي أنا".

إن كتب ليف تولستوي ستظل لقرون عدة تذكراً لعمل دؤوب قام به عبقري.

